

رواية

مكتبة FIN65 على
التليجرام
t.me/FIN65

بالبحر حتى لا أضل أكتب

الجزء
11

مريم الحيسي

رواية

مكتبة FIN65 على

التليجرام

t.me/FIN65

أكتب بالبحر حتى لا أصاب بالجنون

الجزء
11

مريم الحيسي

رواية

مكتبة FIN65 على
التليجرام
t.me/FIN65

أكتب حتى لا أصاب بالجنون

الجزء
11

مريم الحيسي

ح) مركز الادب العربي للنشر و التوزيع ، ١٤٤٧ هـ

حيسي ، مريم يحي محمد
أكتب حتى لا أصاب بالجنون. / حيسي ، مريم يحي محمد - ط١.
- الرياض ، ١٤٤٧ هـ.
..ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٧/١٠٧٤١
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٥٩٣-٠٩-٧

مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

الموقع الإلكتروني :

Www.Adab-Book.Com

مركز الأدب العربي

@Services_Book

@ServicesBook1

مركز الأدب العربي

adabarabic7

aladab@subeie.com



للتواصل :

+966582533504

+966561212210

المملكة العربية السعودية-الرياض

لطلب إصدارات مركز الأدب العربي

00966594447441



تنفيذ الطباعة

مطبعة الكتاب العربي - الرياض

دولة الإمارات العربية المتحدة مكتبة الأدب العربي 00971569767989

جمهورية مصر العربية مركز الأدب العربي 00201120102172

الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق
استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر .

جميع العبارات و الأفكار الواردة في الكتاب تعبر عن
وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر .

أكتب حتى لا أصاب بالجنون

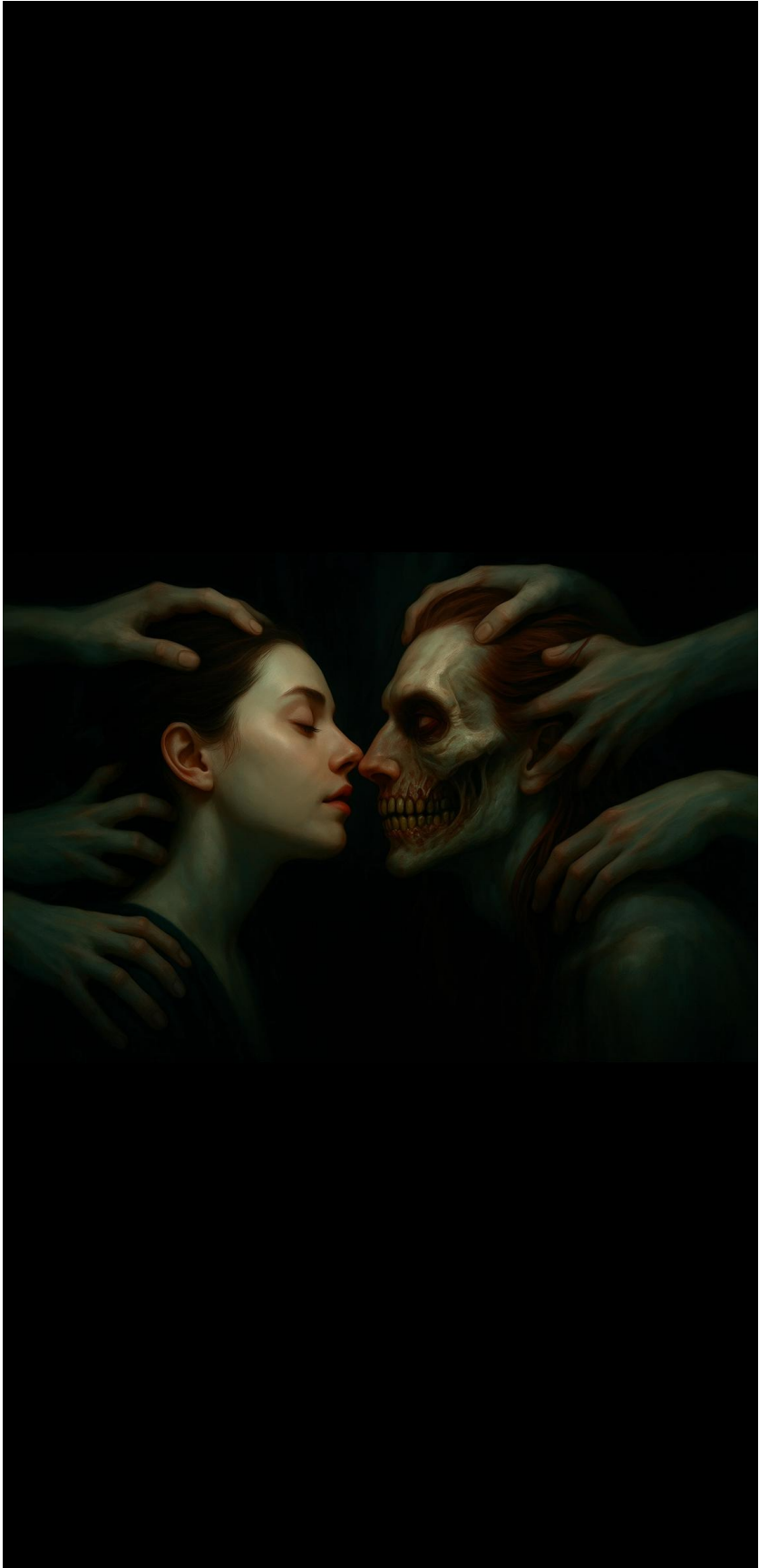
الجزء الثاني

مريم الحيسي



maria_hise5

1447هـ - 2026م



"هل ما زلت تكتبون؟ أم توقفت عن الكتابة؟" ..

"لا أعرف الآن إذا كنت كاتبًا حقًا؟ لا أعرف إذا كنت
مجنونًا بما فيه الكفاية؟".

"ديموس آريس"



تمهيد

مَن كان في الأرض يُخلق بدون خوف؟ نحن؛ لأننا الخوف!

قبل مئات السنين، بل ربما آلاف، في زمنٍ طواه النسيان، لم يكن هناك ما يُعرف بالخوف أو الرعب، لم تكن النفوس تعرف الارتعاش، ولا القلوب تعرف الذعر، حتى ظهر شخص غامض... لا أحد يعرف مَن هو، ولا إلى أي جنسٍ ينتمي! تقول الروايات القديمة إنه كان أول مَن خطَّ كتابًا يُصنّف تحت ما يُسمى لاحقًا بـ"رواية رعب".

ذاك الكتاب لم يكن مجرد قصة... بل كان لعنة مكتوبة، كان أشدَّ ما كُتب عنقًا، دمويًا، وظلامًا. قيل إن مَن قرأه أصابه الرعب حدَّ الموت؛ بعضهم سقط ميتًا من أزمة قلبية، وآخرون فقدوا عقولهم إلى الأبد.

في زمنٍ كان الأدب فيه لا يعرف سوى الرومانسية الحالمة، جاء ذلك الكتاب كصفعة من الظلام في وجه النور، فزرع الرهبة في قلوب الناس، وأربك أرواحهم البريئة.

وتروي الحكايات أن هذا الكائن، سواء كان بشريًا أم لا، اعترف بعد ذلك بأنه لم يكتب ما كتب بإرادته... بل كان مُجبّرًا!

أقرَّ صاحب الكتاب، في لحظة من الجنون والانهيار، أنه لم يكن كاتبًا من الأساس، وأن ما دُوّن في صفحاته من قصص وأحداث، لم ينبع من عقله، ولا يعرف عنها شيئًا. بل اعترف بأنه نفسه لم يحتمل ما كتب، ولم يستطع مقاومة الكوابيس التي اجتاحتها، والرعب الذي سكن جسده، فاختر أن يُنهي حياته... فانتحر.

كان انتحار مؤلف أول رواية رعب في التاريخ صدمة مزلّلة، أدّت إلى تحريم هذا النوع الأدبي في شتى بقاع الأرض. ومنذ ذلك الحين، لم يُكتب شيء يُشبهه، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب من "الرعب" مجددًا.

لكن مع مرور الزمن، بدأت تنتشر الحكايات والهمسات، تائهةً بين الحقيقة والخيال. قيل إن الرواية اختفت دون أثر، وقيل إنها أُحرقت، فيما زعم آخرون أنها أُلقيت في أعماق البحر. إلا أن الثابت الوحيد، أن هذا الكتاب لم يكن مجرد كلمات... بل كان مفتاحًا لشرٍّ مطلق، فتح ثغرة في العالم، وأطلق قوى لم يكن من الممكن إيقافها.

ومنذ عام 1678م، بدأ عالم جديد يتشكّل - عالم مظلّم لا تنطبق عليه قوانين البشر، عالم لا يخضع لشيء، ولا أحد يقدر على السيطرة عليه.

في ذلك العام، بدأت القصة من جديد، مع فتى يدعى "لوسيريس"، كان عاشقًا للكتابة، يخطُّ الحكايات بشغف، حتى اختفى فجأة وهو في سن الثالثة عشرة. جُنَّ أهله وأهالي القرية بحثًا عنه، نَقَبُوا في الجبال والوديان، وفي باطن الأرض وسطحها، ولم يجدوا له أثرًا يُذكر.

أربعون عامًا مرّت... ثم عاد.

عاد "لوسيريس" فجأة، لم يتغيّر مظهره كثيرًا، كأن الزمن تجمّد له حين سأله:

- أين كنت؟

أجاب بصوت غريب يحمل ارتجافًا في نبراته:

- كنتُ مع قوم، لكنهم ليسوا بشرًا.

سأله:

- أتقصد شياطين؟ جن؟

فهزّ رأسه، وقال:

- لا أعرف مَنْ يكونون، لا أعرف حتى ما كنتُ أنا بينهم.

ثم أردف بصوت خافت:

- كل ما أعلمه أنني كنتُ في مملكة تُدعى 'مملكة الخوف'... مملكة لا يُمكن

لعقل بشري أن يتخيلها، ولا لقلبٍ أن يحتمل أهوالها. كل شيء هناك جنون،

صراخ، دم، وظلال لا تنتهي.

وحين سأله:

- وماذا كنت تفعل هناك؟

ابتسم ابتسامة غريبة، وقال:

- كنت أكتب لهم...

وعندما سأله:

- لماذا أطلقوا سراحك؟

أجاب:

- لأنهم يرغبون في أن أنشر هذا العلم، وبتوارثه أبناء جيلنا، والعالم أجمع.

- وما هو هذا العلم؟

- الرعب، والخوف، والذعر.

عزيزي القارئ، سأخذكم في هذه السلسلة لعوالم مختلفة، عوالم كيف نشأ
وخلق أدب الرعب؟ ومن أين أتى؟ وكيف صنع؟ ومن هم المسؤولون عنه!...
كل ما في هذه السلسلة سيكون عبارة عن جسيم قاسٍ ومظلم ومرعب،
إذا كان لديك فضول تجاه هذا العالم بالطبع، نرحب بك، لكن احذر أن تتعمق
كثيرًا فيه، والأهم أن تكتب فقط.



"عزيزي القارئ، كل شخصياتكم المرعبة والمخيفة والمجنونة التي أحببتموها في رواياتكم المفضلة، سواء كانت وحوشًا، مخلوقات، قاتلين، مجانين، مرعبين... استعدوا، ستقابلونهم في الواقع، وربما تحتسون معهم كوب قهوة، وبعدها سيقتلونكم بأسوأ الطرق أو يلتهمونكم! بالطبع لن يأخذوكم بالأحضان".

ماريا

الفصل الأول

سنة جديدة



كانت الثلوج تتساقط بغزارة، بينما تنطلق الألعاب النارية في السماء، فتغمر الأضواء والألوان أرجاء العاصمة، لتغدو السماء والأرض في عناق احتفالي صاخب. تهلل الجموع فرحًا بقدوم عامٍ جديد، عام 2025 ميلاديًا، وكأن العالم بأسره يعانق لحظة أمل وانبعاث.

لكنَّ السعادة لا تشمل الجميع. فعند إحدى النوافذ، وقف أبٌ شاحب الوجه، مثقل الملامح، لا تحمل قسماته سوى الحزن، والهَمُّ جاثم على صدره كصخرة لا تزول.

قبل أربعة أشهر، فُجِع الأب بفقدان ابنته الوحيدة، آخر ما تبقي له من نبع الحياة. اختفت دون أثر، كأن الأرض ابتلعها، لا صوت ولا صورة، لا دليل ولا

وداع.

كان يظن أن الزمن سيتوقف، أن الحياة ستتحني أمام فاجعته... لكنها لم تفعل. الناس نسوا، والعالم واصل دورانه، إلا هو وزوجته، وحدهما توقف الزمن فيهما، وتصلَّب الشعور وتكلَّس في داخلهما، حتى عَدَّوا كجثثٍ تمشي، فارغة من الحياة.

إن مَنْ يدفن ابنه يرى جسده أمامه، فيستطيع أن يقتنع بأنه مات، يسلم للألم ويبدأ رحلة الجِداد. أما أولئك الذين يُنتزع منهم أحبَّاءهم دون إنذار، دون جثث، دون علامات؛ فهُم ضحايا أملٍ قاتل، يعيش فيهم ويعذبهم. أملٌ يزرع الانتظار في أرواحهم، انتظارًا مريِّرًا قد يمتد إلى ما لا نهاية.

جلس الأب على الأريكة، ووضع كوب الشاي الدافئ على الطاولة أمامه بأعين خافت، التقط مذكرات ابنته المفقودة، وفتحها للمرة الألف، أو ربما للمرة المليون. صار يقرأ سطورها بجنون، باحثًا عن أيِّ إشارة، أي رمز، أي شفرة قد تقوده إلى بصيصٍ من الحقيقة.

توقفت عيناه عند السطر ذاته الذي قرأه مرارًا وتكرارًا، السطر الذي كتبه ابنته بخوفٍ خفي:

- أنا أراه... أراه يقف هناك، رجل طويل القامة، ضخم البنية، يشبه الظل. يقف خارج نافذتي، إنه يقف هناك، وسط جموع قَرَّائي ومعجبيني في حفلات التوقيع، يقف دون أن ينبس بكلمة، دون أن يتحرَّك. ثم أراه مجددًا، في الشارع المقابل تمامًا للمقهى الذي أجلس فيه مع صديقاتي، يرمقني من بعيد.

في كلِّ مكان أتواجد فيه، أجد ذلك الظلَّ يسبقني أحيانًا، ويتبعني في أحيانٍ أخرى.

إنه يُحدِّق بي مباشرة، يراقبني بصمتٍ ثَقِيلٍ، وكأنَّ عينيه تختزلان شيئًا أعجزُ
عن تفسيره.

والأغرب من كلِّ ذلك، أن لا أحد سواي يراه!
إنه غير مرئيٍّ للناس جميعًا... فقط أنا مَنْ أراه.
أجهل حقيقته، وأجهل ما يريدُه، لكنه يَرعِبُنِي.
بل أحياتًا، أرتعب من نفسي.

أبدأ في الشكِّ بعقلي، أتساءل: هل فقدتُ اتزانِي؟ هل أصبحتُ أتوهَّم؟
لكنه ليس مجرَّد وَهْمٍ، إنه أكثر حضورًا من خيالاتي، وأكثر واقعيَّة مني.
لقد تجاوز حدود المنطق، ونسف قوانين الواقع.
لا أعلم متى سينتهي هذا الكابوس؟

أم أنه في النهاية سيبتلعني؟!

ما إن انتهى الأب من قراءة تلك السطور، حتى أغلق المذكرة وألقاها على
المكتب بإهمال، وكأنَّ ما فيها أثقلُ عليه من أن يُحتمل. كان الحزن يعصر قلبه
عصرًا، وألمٌ دفين ينهش داخله بلا رحمة.

وضع يده على صدره فجأة؛ إذ شعر بنغزات حادة تضرب صميم قلبه. لم
يعلم إن كانت تلك وخزات المرض الناتجة عن تقدُّمه في العمر، أم أن الحزن
ذاته بات يأكل قلبه حيًّا؟

وفي لحظة، انفتح الباب بسرعة، ودخل شاب في منتصف الثلاثينيات،
يركض نحو والده بهلعٍ واضح:

- أبي! هل أنت بخير؟ ضع يدك عليَّ، تعال، سأساعدك!

أسرع الشاب بإسناد والده، وأجلسه على الأريكة بلطف، ثم أحضر له كوب ماء وبعض الأدوية التي يعرف أنها أصبحت تُهمل كثيرًا في الآونة الأخيرة.

- خذ يا أبي، لقد بدأت تتجاهل أدويةك كثيرًا هذه الأيام، لماذا تفعل هذا بنفسك؟

قالها الابن بنبرة عتاب، يغلفها القلق والحب. تنهد الأب، وقال بصوت خافت مكسور:

- لا تقلق أنا بخير، لكنني لیتني متُّ قبل أن يحدث كل هذا، لیتني ارتحت من هذه الحياة.

- أبي، أرجوك، لا تقل هذا الكلام.

- لكنه الواقع يا بُني، إنه حقيقي، صدّقني.

- ما الذي تقصده؟ ما الذي تعنيه بأنه "حقيقي"؟

سكت الأب لحظة، ثم قال بصوت مرتجف، كمن يكشف سرًّا ظلَّ حبيس قلبه لسنين:

- كل ما حدث مع والدتك، يتكرر الآن مع شقيقتك.

- أبي، أنا لا أفهم ما الذي تتحدث عنه؟

- الشيطان، إنه حقيقي، إنه موجود، هو الذي أخذ والدتك، ثم كان السبب في موت شقيقتك، ثم كان السبب في أخذ عقل والدتك وانتحارها، ثم الآن هو أخذ مجددًا "ماريان" بعد أن أخذ مني "ماريانا"..

إن الشياطين والوحوش والخوف والرعب في كل مكان، لكن عندما نتحدث عن شياطين ووحوش والرعب الذين يقطنون في "مملكة الخوف"، فهم شيء آخر، شيء لا تستطيع أن تتخيله، ولن تتخيله أبدًا..

30

October



إنها ليلة تطبيق حكم الإعدام على المؤلفين المذنبين، كل مؤلف قتل شخصية بطريقة بشعة سيموت بنفس الطريقة!

لم تكن هذه الليلة عادية، بل كانت ليلة ظهور الشيطان، حيث يتوجب على جميع الضحايا الركض فحسب، الأهم أن لا يمسك بك!

ارتدى قناعه المخيف يفكر هل عليه أن يستبدله بقناع أكثر شراسة أو أكثر رعبًا أو أكثر بشاعة! ارتدى القفازات السوداء بيديه الملطخة بالدماء، بعد أن قطع لسان أحدهم، بينما الاثنان كانا ينظران إليه برعب، وصديقهم الثالث ينازع ألم قطع لسانه، لا زال حيًّا، لا زال يتمسك بالحياة. نظر إليهم من خلف القناع بنظرة ثاقبة، ثم صرخ أحدهم وعيناه غريقتان بالدموع والخوف والهلع.

- لماذا تفعل ذلك؟ ما الذنب الذي ارتكبناه؟

أجاب من خلف القناع بصوته الحاد وهو يهز كتفيه بدون مبالاة:

- لقد سلبتم أرواحًا كثيرة.

- ماذا؟! نحن لم نقتل أي أحد في حياتنا، لم نوذ ذبابة حتى!

قال وهو يقترب منهم بعد أن دهس بحذائه رأس الضحية الثالثة التي كانت ما زالت تنازع بدون لسان: - لقد قتلتم شخصيات كثيرة، في الكتب التي كتبتموها، يجب أن تعرفوا أنه ليس معنى أن تكون كاتبًا، يعني أنه يجب أن تقتل أي شخصية بعشوائية، وahan الآن وقت عقابكم.

- اقتلنا فحسب إذًا.

- لا، هذا ممل، يجب أن تركضوا. اركضوا بأسرع ما لديكم.

"ويليام"

الفصل الثاني

أعوام الجوع



لطالما كانت الكتابة بالنسبة لي وسيلة نجاة، وستظل كذلك مهما عظُمت
العواقب التي تجرُّها خلفها.

ومهما حاولت الهروب منها، ومهما سعيت لتجنبها؛ أجد نفسي دائماً أعود
إليها.

جميع الطرق، مهما تفرَّعت، تؤدي في نهايتها إلى الكتابة.
كل ما عشته من أحداث، وما مررت به من تجارب، كانت في جوهرها
كوابيس نسجتها الكتابة.

نعم... حتى للكتابة كوابيس، كما أن لها أحلاماً.

ورغم صعوبة الغوص في ظلالها القاتمة، وقسوة ما تحمله من وجع، إلا أنني أعجز عن التخلي عنها.

الكتابة، في حقيقتها موت ونجاة في آنٍ واحد.
هي غرق، وهي السباحة مع التيار وضدّه في اللحظة نفسها.
هي السكون، وهي العاصفة.

لم يكن لديّ خيارات كثيرة في هذه الحياة، سوى أن أكتب.
ربما لأنني، دون وعي، تقمّصت شخصية شقيقتي التوأم "ماريانا"، أو ربما لأنني أردت، ببساطة، أن أصبح كاتبة.
وربما كنت أرغب في أن أملأ رأسي بكل شياطين الأرض، أو أن أخلق عوالم لا وجود لها؛ لأهرب من واقعٍ أثقلني.

ربما كنت مرهقة من قسوة الحياة، وربما اتخذت من الكتابة حجابًا أستتر به عن ذاكرتي؛ علّني أنسى ما مررت به، أو أتجاوزه.
أو ربما... فقط ربما اخترت الكتابة حتى لا أفقد عقلي، وحتى لا أصاب بالجنون.

قرأت تلك الرواية المربعة مرارًا وتكرارًا؛ لأنها لطالما أسرّني، ولا تزال من أحبّ الأعمال إلى قلبي.

إنها واحدة من أكثر الروايات شهرة في العالم، تدور أحداثها في زمن متقدّم انقرضت فيه الحياة، بعدما تحوّل البشر إلى وحوش ليلية وآكلي لحوم بعضهم البعض.

حازت الرواية على العديد من الجوائز، وكانت دومًا مصدر إلهام لي في الكتابة. أحببتها كثيرًا، لكن لم يخطر ببالي، ولو بنسبة ضئيلة، أنني ذات يوم لن

أكون قارئة لها فقط، بل سأدخل عالمها... وسيتحوّل خيالها إلى واقعي!

حينما عادت إلى ذاكرتي ملامح الماضي القاسي، ماضي أمي وشقيقتي التوأم، خرجت من الغرفة التي كان "ويليام" يحبسني فيها؛ لأتفاجأ بأن القصر قد تبدّل كلياً. لم يكن القصر ذاته، بل صار مهجوراً، مُوحشاً، متهاكاً... جدرانه مشققة، وأرضياته متصدعة.

إحدى تلك الأرضيات انهارت بي، فسقطت أرضاً، وعندما فتحت عينيّ، وجدت نفسي في عالم رواية خيالية مرعبة!

خلال فترة اختطافي، رأيت من العجائب والغرائب ما يكفي ليدمرّ العقل، لا سيما من ذلك الشيطان، لكنني لم أتوقّع أبداً أن يملك القدرة على التسلّل إلى الروايات كما يتسلّل إلى عقول المؤلفين!

لم يكن هناك وقت للشعور بالخوف، أو الذهول، أو الدهشة؛ فقد اختفت مشاعري منذ زمن، وذابت مع ذكرياتي المؤلمة.

كل ما كان يهمني حينها هو سؤال واحد فقط:

"إن متُّ هنا، في هذا العالم الخيالي، هل سأموت في الواقع أيضاً؟ أم أنني سأحبس إلى الأبد داخل رواية لعينة، وُلدت من خيال شخص غريب؟".

الناجون... أو بالأحرى شخصيات الرواية، لا يزالون يوجهون أسلحتهم نحوي، يشكّون في أمري، لا يصدقون أنني بشرية مثلهم.

يخشون أن أكون دخيلة، أو متحوّلة، أو مصابة.

رغم أنني أخبرتهم بأسمائهم واحداً تلو الآخر، وقلت لهم إن أحدهم سيظهر الآن عبر الباب - تلك كانت غلطة غبائي - وقد زادهم ذلك خوفاً مني!

لكن الصدمة الكبرى لم تكن في ردة فعلهم، بل في سُؤالي المتكرر
لنفسي:

هل أخبرهم بأنهم مجرد شخصيات في رواية؟

هل أقول لهم إنهم ليسوا حقيقيين، وأن هذا العالم ليس إلا ثمرة عقل
كاتب، حبرًا على ورق؟

لكن ماذا لو لم أكن أنا الحقيقية؟

ماذا لو كنت أنا الأخرى شخصية مختلقة، تائهة في خيالٍ لا أعرف مَنْ
نسجه؟

- كيف عرفتِ كل ذلك، تكلمي؟

صرخ الرجل العجوز وهو يوجه فوهة البندقية نحوي، لكن صراخه لم يكتمل،
ولم يُنه تهديده؛ إذ بدأ طَرق عنيف يهز الباب بعنف، ضربة تعقبها ضربة، وكل
واحدة أقوى من سابقتها، كأن شيئًا هائجًا خلفه يسعى لاقتحام المكان.

قالت أليسون بصوتٍ متوتر:

- يجب أن نخرج من هنا!

وأضافت بسرعة وهي تشير إلى جهة مظلمة خلفنا:

- دعونا نستخدم المَخرج الخلفي، إن لم تكن تلك الوحوش قد أحكمت
الحصار حولنا.

كنت أراقب بصمت، ممزوج برعبٍ وخيبة، وقلبي يعتصر حسرة؛ لأنني أعلم
يقينًا ما سيحدث.

أعرف أن نصفهم سيموتون الآن... وأعلم أن أليسون وذاك العجوز سيَلقون
حتفهم في الفصل الثاني والعشرين!

لكن ماذا عساي أن أفعل؟

كيف أتصرف؟

هل أصدق ما يحدث؟

هل هو واقعٌ فعلي؟ أم أنها إحدى ألاعيب ذلك الشيطان الذي يشوّه إدراكي

ويدفعني إلى الجنون؟

الباب أصبح هَشًّا، متهاكًّا، ثلاث ضربات أخرى فقط بالكاد وسيهوي علينا!

ركض الجميع باتجاه القبو السفلي، فتبعتهم وأنا لا أعرف إلى أين أمضي؟

لكن فجأة، تذكرت ما كُتب في الرواية...

روبرت، لويس، وأليساندرا سيموتون حين يحاولون الخروج من القبو.

ذاك القبو، لم يَعد ملاذًا، بل فحًّا.

لقد سبق للوحوش أن حفرَتْ نفقًا تتسلل منه إلى الداخل.

ما يميز هذا العالم، أن تلك الوحوش ليست بهائم عمياء، بل هي ذكية، تفكر

وتخطط بذكاء يفوق أحيانًا إدراك البشر.

ورغم معرفتي بأنهم مجرد شخصيات خيالية، من نسج كاتبٍ، إلا أنني لم

أستطع منع نفسي من الشعور بهم، لم تسمح لي إنسانيتي، أو ما تبقي منها،

أن أراهم يموتون دون أن أنبّههم.

صرختُ بكل ما في داخلي:

- توقفوا!!

رفعْتُ صوتي ثانية محدّرة:

- لا تذهبوا إلى هناك! ستموتون!

التفتوا إليّ بملامح مصدومة، خليط من الذهول والرَّيبة، كأنهم رأوا مجنونة
تتحدث عن هواجس لا وجود لها.

اتهموني بالجنون، وقالوا إنهم لن يأخذوني معهم؛ لأنهم ببساطة... لا يثقون
بي.

لكن رغم ذلك، أصررت على تحذيرهم، بل وأصررت على مرافقتهم.
لا أعلم لماذا أبالي!

لماذا أهتم بشخصيات من رواية، وهم في الأصل ليسوا حقيقيين؟

لكنهم أمامي الآن، يتنفسون، يتحركون، يتألمون.

ولأنهم أصبحوا واقعًا، فإن موتهم سيفطر قلبي لا محالة.

دخلوا القبو، متجاهلين كل تحذيراتي.

ولعل هذه كانت، وستظل، ردة الفعل الطبيعية لأي أحد أمام من يتحدث
كمن يعرف النهاية قبل أن تبدأ.

حين هممت باللاحاق بهم، دفعني أحدهم بعنف إلى الخارج، فسقطت أرضًا،
ثم أغلق الباب خلفي بإحكام. تخلَّصوا مني عمدًا، وتركوني طُعمًا للوحوش!

وفعلًا... اقتحمت الوحوش الباب الرئيسي، في اللحظة ذاتها التي اندفع فيها
الجميع إلى القبو، معتقدين أنه سيكون لهم ملاذًا آمنًا، لكنه لم يكن كذلك.

كنت مذهولة، مشلولة من الرعب، وعقلي يرفض التصديق: هل ما يحدث
حقيقي، أم أنه مجرد كابوس آخر من كوابيس عقلي المتعب؟

لا وقت للإجابات، عليّ فقط أن أهرب، أن أختبئ، أن أتحرَّك.

أو لعلِّي أغمض عينيّ، وأفتحهما، فأكتشف أن كل هذا مجرد وهم سينقشع.
أو أضرب رأسي بالحائط، لعلِّي أعود إلى رشدي وإلى عالمي الحقيقي.

لكن لا مفر.

لقد أصبح هذا هو عالمي.

وهذا هو واقعي الجديد.

نهضتُ على قدميّ المرتعشتين، أنظر يمنةً ويسرة، حتى لمحت سَلَمًا في الزاوية، فاتجهت نحوه بسرعة.

وفي طريقي إلى الأعلى، سمعت صرخات مُدوية تنبعث من القبو...

صرخات استغاثة، صرخات ألم، صرخات موت.

عندها تأكدتُ.

لقد تحقق مشهد الرواية، بكل تفاصيله.

إنه السيناريو ذاته، دون أدنى اختلاف.

تسارعنَّ نبضات قلبي، وارتجفت أطرافني، فتراجعتُ عن الصعود، وما إن التفتُ حتى لمحت الباب الخلفي في المطبخ، يُفضي إلى الخارج.

اندفعت نحوه، وكل ما في داخلي يصرخ: "اهربي!".

ورغم الضجيج المتفجّر خلفي، لم ألتفت، ركضت بكل ما تبقيّ فيَّ من قوة.

حتى حين كان "ويليام" يُرغمني على الجري، لم أركض بهذه السرعة من قبل.

وصلت إلى الباب، فتحته دون تردّد، واندفعت إلى الخارج. لتستقبلني رياح باردة، وظلام حالك، يختلط فيه صوت الأشجار المتمايلة مع صرخات الضحايا، أولئك الذين افترستهم الوحوش.

لم أكن أعرف إلى أين أذهب...

لكنني، رغم كل شيء، واصلت الركض.
ركضت في ذلك الطريق الغريب، بدأت أركض بكل ما أملك من قوى، كأني
أفرُّ من قَدَرٍ كُتِبَ عليَّ بِمِدادٍ من الدم.
ركضت حتى خانتني أنفاسي، ثم توقَّفت فجأة...
كانوا أمامي.

صفُّ من الوحوش يقف في طريقي، يتسمون بوجوه خالية من الروح،
ابتسامات تنزف سخريةً وموتًا.

في تلك اللحظة اجتمعت في داخلي كل مشاعر الخوف، والهلع، والضياع.
غيرت مساري دون تفكير، وانطلقت نحو الغابة السوداء التي تتلوَّى
ككابوس حيٍّ، تغوص جذورها في الظلام، وتصمت أغصانها كأنها تتربَّص بي.
أركض... أركض في صمت الغابة الوحشي، في عتمتها التي تبتلع الضوء
والأمل، والبرد الذي يشبه قبضة ميتٍ على عنقي.
ركضت، لكنني ما زلت أركض، لا أعرف إن كنت أتحرك فعلاً، أم أنني عالقة
في دائرة لا تنتهي.

توقفت أخيرًا، حين لم تُعِدْ ساقي تقويان على حملي.
وقفت ألَهَث، الهواء نفسه هرب من حولي.
أشعر بأن الأكسجين لا يصل إلى رئتي، صدري قد انغلق على نفسه، الحياة
تنسحب من داخلي ببطء.

حاولت أن أرى ما حولي، لكن الغابة كانت سوداء كجوف قبر، باردة تُسجَت
من موتٍ قديم، وفارغة، فارغة من الحياة، ومن الرحمة، ومن الأمان.
بعدها جاءت الأصوات!

أصوات غريبة، تهمس من المجهول، لا تهدأ، تنهش أطراف عقلي.
ضاقت أنفاسي، وتصلَّبت قدماي، حتى ما عُدت أشعر بهما.
فجأة، لمحت شيئًا يتحرك بين الأشجار، شيئًا لا تنتمي هيئته لأيِّ من أشكال
الحياة التي أعرفها.
كان يملك أذرعًا كثيرة، جلده شاحب كالموت، وحركته تتسلل مثل المرض
في الجسد.
لم أتمالك نفسي.
أطلقت جسدي مرة أخرى في الركض، بلا وجهة، بلا وعي، فقط أهرب.
لكن هذه المرّة لم أركض طويلًا.
تعثرتُ، وانزلقت، وسقطت في حفرةٍ ما.
لم يكن لديّ وقت للصراخ، ولا حتى للفهم.
العالم من حولي اختفى، الصوت انقطع، الصورة تلاشت...
وحلَّ الظلام.
ظلامٌ عميق... ثم لا شيء.

من الذاكرة:

تدشين كتاب

ليس من المفترض بالجنون أن يلاحقك في كل مكان، لكن بما أنك كاتب...
فهذا يعني أنك أنت من يسعى خلفه.

كانت الشمس غائبة ذلك اليوم، والغيوم السوداء قد أحاطت بالسماء حتى
حجبت نورها بالكامل. لم أكن في مزاجٍ يسمح لي بتدشين هذه الرواية؛ فقد
تشاجرت مع والدي - كما يحدث دومًا - لكن هذه المرة كان الشجار أكثر حدة،
وأكثر عنفًا.

يظن والدي أنني مجنونة، فقط لأنني أكتب!

لطالما كانت تصرفاته غريبة، عصيَّة على الفهم، ولا يقل عني غموضًا. لا هو
يفهمني، ولا أنا أفهمه، ومع ذلك نتجاهل هذا الجدار الذي بيننا، ونتظاهر بأن كل
شيء على ما يُرام.

وصلتني رسالة من مدير أعمالي، يذكرني فيها بأني يجب ألا أتأخر؛ فالقراء
ينتظرون بشغف. هؤلاء القراء لا يملكون ذرة صبر، يظنون أن الكاتب لا يملك
حياة سوى الكتابة.

وفي الحقيقة، ربما يكونون على حق.

فأنا لا أملك من حياتي شيئًا... سوى الكتابة.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحًا، لكن جسدي لا يزال متشبثًا بالسرير،
رافضًا مفارقتة، خمولًا قاتلًا يجتاحه مع كل بداية جديدة. عادةً ما يرافقني
شغف وحماس عند كل عمل أدبي أشرع في تدشينه، إلا هذه المرة كانت
مختلفة.

عنوان كتابي الجديد هو "قلب الرجل".

ولا أعلم على وجه التحديد كيف تَشكَّلت هذه الفكرة في ذهني، أو من أين خرجت. كل ما أعلمه أن ما يتكوَّن في مخيلتي دومًا مظلم، شرير، وغريب. ورغم ما يشتعل داخلي من ألم نفسي وتمزق روحي، تحملتُ. يُقال إن على الكاتب أن يحتمل من أجل القارئ، أن يقدِّم نفسه قريبًا للكلمات.

لكن، في نهاية المطاف، نحن بشر، ولكل بشريٍّ حدُّ ووجع.

ارتديت أول ما وقعتُ عليه يدي من ملابس. لم أهتم، كما اعتدت دائمًا، بأن أكون أجمل امرأة في المكان. لم أكن أعنى بأي شيء هذا اليوم، ولم أدِر حتى كيف وصلت إلى مكان تدشين الرواية.

كان في استقبالي المحرِّر الخاص بي ومساعدوه، وجمعٌ غفير من الصحفيين وعدسات الكاميرات. كنت أرتدي نظارتي الشمسية حتى بعد دخولي القاعة، ليس هروبًا من الضوء، بل إخفاءً لعينين امتلأتا بالحزن، تفيض بالأسئلة.

لماذا يعاملني والدي كأني مجنونة؟

لماذا لا يستطيع، ولو لمرةٍ واحدة، أن يجعلني أشعر بأنني أفعل الصواب؟

لماذا يُشعرنني مع كل كتاب أكتبه وكأنني ارتكبت جريمة؟ وكأنني قتلت أحدًا؟

- مرحبًا أستاذة، تهانينا على إصدارك الجديد.

لم تتحدثي كثيرًا عن هذا الكتاب، أستاذة... هلَّا أخبرتنا عنه؟

- أولًا، ناديني "ماريانا" فقط؛ فأنت تعلم أنني أكره لقب "الأستاذة".

ثانيًا، ليس من الضروري أن أتحدث عن كل عمل أكتبه. ثمة مشاريع تفرض نفسها علينا فجأة، دون إذنٍ أو إنذار، فنجد أنفسنا مضطرين إلى إخراجها، خرجت منّا رغماً عنّا.

- حسناً، هل يمكن أن تتحدثي قليلاً عن هذا العمل؟

ساد صمت غريب، صمتٌ ثقيل، وكأن الجميع ينتظر منّي جملة، فكرة، أو حتى ملخصاً بسيطاً. لكنني كنت، وما زلت، أكره تلخيص القصص. أؤمن أنه ليس ضرورياً، بل فيه خيانة للنص. ماذا يمكنني أن أخبرهم؟ من أين استلهمت هذه الرواية؟ هل أقول لهم إنها وُلدت من رحم كوابيسي الحالكة؟ أم من تخيلاتٍ غريبة تراودني دائماً، عن أبٍ مجنونٍ يهْمُ بقتل ابنته في ليلة مظلمة، ممطرة، باردة كحدّ السكين؟

وفجأة، اخترق سمعي صوت غريب، مألوف، تردّد في رأسي:

- اكتبي، آلي...!!

صوتٌ خافت لكنه حاد، متأكدة أنه خرج من بين الحشود، لكنّ الجميع كان صامتاً، يرمقني منتظراً، كما لو أن شيئاً لم يحدث. هذه ليست المرّة الأولى التي أسمع فيها هذا الصوت. لطالما تكرّر في رأسي، يهمس بتلك الكلمة، "آلي"...

ألم تكن هذه مجرد هلوسة كتابية؟ أم أن واقعي بدأ ينزلق نحوه؟

- آنسة "ماريانا"؟!!

همس المذيع بتعجّب، بينما كانت العيون مُعلّقة بي، والهواتف والكاميرات مرفوعة، تنتظر مني إجابة، تنتظر أن أبدو طبيعية.

رأيت مدير أعمالني، كالعادة، يتذمّر بصمته، يُورّع ابتساماتٍ باهتة على الحاضرين، محاولاً تغطية ارتباكني.

تنهدت ببرود، دون اكتراث:

- في الحقيقة، لم أكن مستعدة لشيء، خصوصًا لصدور هذه الرواية.
سأكتفي اليوم بتوقيع النسخ للقراء؛ فهم السبب الوحيد الذي جئت من أجله، لا من أجل الصحافة.

أتمنى أن تتفهموا ذلك، أو... تعلموا الأمر كما شئتم.

أنهيت كلمتي، وأنهيت المؤتمر قبل أن يبدأ فعليًا.

ومع وميض الفلاشات الوداعية، اتجهت نحو منصة التوقيع، أرtdي ابتسامة زائفة أخرى، تلك التي أصبحت مألوفة لديّ في مثل هذه المناسبات.

جلست، وبدأت بجلسة التوقيع.

قارئٌ يتلوه قارئ، صورٌ تُلتقط، هدايا تُقدّم، وكلمات مجاملة تُقال.

كان الصف طويلًا، والانتظار منهكًا، لكنني كنت أعلم أنهم يرونه جديرًا، فهم ينتظرون كما قال أحدهم:

- بالطبع يستحق الانتظار، لأجل أفضل كاتبة.

عرفت هذا الصوت فورًا، لا يمكن أن أخطئه.

رفعت رأسي ببطء، فإذا بي ألمح رجلًا ذا قامّة متوسطة، وبشرة بيضاء، ملامحه هادئة جميلة، شعره أسود مجعد، ويرتدي لونه المفضل: الأبيض.

كان يحمل باقة من الزهور الحمراء، وحينها ارتسمت على وجهي أول ابتسامة صادقة لي في هذا اليوم، خالية من التصنع.

قفزت من مكاني بفرح، تجاوزت الطاولة بخفة، واحتضنته بحرارة:

- "إيثان؟! لا أصدق... أنت هنا حقًا؟

شدّني إلى صدره أكثر، يربّت على ظهري بلطف، وقال:

- نعم، أنا هنا. أخيرًا جئت لأدعم صديقة المهنة والدراسة.

كان "إيثان" صديقي منذ عشر سنوات. دخلنا الجامعة معًا، وتخصصنا سوياً في الكتابة الإبداعية والأدب.

لكنه اختار لنفسه طريقًا مختلفًا، حيث اتّجه إلى أدب الخيال الرومانسي، وكان ذلك العالم يناسبه تمامًا.

كان "إيثان" شابًا حساسًا، رقيق المشاعر، أنيقًا في هيئته، مثقفًا وهادئًا إلى حدٍّ كبير، على النقيض مني تمامًا.

نشر حتى الآن أربعة أعمال روائية، جميعها لاقت نجاحًا كبيرًا، وما زال يسير بخطى ثابتة في عالم الأدب.

لكن نجاحه، رغم بروزه، لم يكن بمثل نجاحي.

بدأ الحضور يرفعون هواتفهم، يصوّرون اللحظة، يوثّقون لقاءً أدبيًا بين كاتب مشهور وكاتبة شهيرة.

معظمهم يعرف الحقيقة: نحن صديقان فحسب.

ورغم ذلك، لا تزال الشائعات تتردد بين الحين والآخر، تزعم أن بيننا علاقة حب.

لطالما تجاهلت تلك الأقاويل، ولم تؤثر بي؛ فأنا أعلم جيدًا أن الشهرة لا تأتي بلا ثمن، وأنا كأشخاص تحت الأضواء، يجب أن نكون مستعدّين لمثل هذه التُّرّهات.

لكن ما كان إشاعة للعالم، لم يكن كذلك بالنسبة لـ "إيثان".

أنا أعرف الحقيقة. أعلم أنه يُكنُّ لي مشاعر حب منذ سنواتٍ طويلة، وأعلم أيضًا أنه يُدرك تمامًا أنني لا أبادلُه هذا الحب، وأنتي أراه صديقًا وأختًا لا أكثر.

لهذا السبب، لم يعترف لي قط.

يعلم جيدًا أنه إن فعل، فربما يخسرني إلى الأبد... وأن صداقتنا قد لا تعود كما كانت.

- لماذا وقفت في الصف؟ كان عليك أن تتجاوزته؛ فأنت صديقي، وفوق ذلك كاتب مشهور.

أجاب ضاحكًا وهو يسلمني باقة الزهور الحمراء:

- أردت أن أعيش تجربة القارئ الحقيقي، ونجح الأمر!

لطالما كان "إيثان" يعرف ما أحب وما أكره.

وأنا لا أحب الزهور الحمراء.

لكنه يحبها، ويعلم تمامًا أنني، برغم ذلك، سأقبلها منه.

انتهى حفل التوقيع بسلام.

دعاني "إيثان" لتناول العشاء، فتوجهنا إلى مطعم راقٍ قريب، يكاد يخلو من الزبائن بسبب أسعاره المرتفعة.

كان المطعم فخماً، أنيقاً، هادئاً، مثله تمامًا.

"إيثان" وُلد في أسرة ثرية، ولم يكن غناه ثمرة قلمه فقط.

فمئات الفتيات الثريات والجماليات يتمنين القرب منه لأنه وسيم، أنيق،

ثري، وكاتب رومانسي ناجح.

لكنه... لا يرى سواي.

فتاة غريبة الأطوار، لا تؤمن بالرومانسية، وتعترف بين نفسها بأن "إيثان"، رغم لطفه، يملك شخصية مملة.

لكنه يظل صديقي الأوفى، وصاحب قلبٍ نقي، كنقاء بياض قميصه الحريري.
- إذًا، ماذا تودّين أن تأكلي؟

سأل وهو يتفحّص قائمة الطعام الإلكترونية أمامه.

- لا أعلم، دائمًا ما أحتار عندما أكون جائعة.

همس، ممازحًا:

- ربما... "قلب الرجل"!

ضحكت بسرعة، أدركت أنه يشير إلى بطلة روايتي الجديدة، التي كانت تكره الرجال بسبب والدها.

بدأت بزوجها بعد أن قتله، انتزعت قلبه والتهمته، ثم واصلت مسيرتها في قتل الرجال والتغذي على قلوبهم.

قلت مازحة وأنا أحدّق في عينيه بنظرة تُنذر بالخطر:

- سأفكّر في الأمر بجدية.

ضحك متظاهرًا بالخوف، وتراجع قليلًا:

- أوه، حسنًا! أعتقد أنني سأنسحب الآن... أشعر بالخوف حقًا. ما رأيك بلحم

الستيك؟

- لحم بقري، بالطبع؟

- بالتأكيد.

أنهينا طعامنا على هدوء، وانخرطنا في حديثٍ طويلٍ عن شتى المواضيع:
حياتنا، أعمالنا، وذكريات الدراسة، حتى باغتني، كعادته، بسؤال يحمل في
طياته تلميحًا:

- ألا تفكرين بالزواج؟

لم أُفاجأ بالسؤال؛ فقد اعتدت سماعه من أصدقائي المقربين.

ابتسمت قليلًا:

- بالنسبة لي؟ لا، لا أفكر بذلك. لكن، هل تعرف ما يقوله والدي دائمًا؟

- ماذا يقول؟

- يقول: لن يتزوجك أحد.

- ولماذا؟

- لأنني كاتبة.

انفجرتُ في ضحكة هستيرية، لفتت أنظار الجالسين من حولنا، بينما حاول
"إيثان" أن يشارك ضحكي بابتسامة خفيفة، مرتبًا وهو ينظر يمنةً وبسرة.

- غريب حقًا! ما العلاقة بين الكتابة والزواج؟ لم أفهم.

تناولت كوب الماء، وارتشفت منه بهدوء، محاولةً كتم ضحكتي التي لا تزال
تتصاعد من صدري، تختلط بها غصة خفيفة، مصدرها حزن قديم على والدي،
على غرابة منطقته، وعلى قسوته غير المبررة.

- لا أعرف... لكنه يعتقد أنني مجنونة، ولهذا لن يتزوجني أحد.

وأنت، ما رأيك؟

نظر إليّ بنظرة سريعة، أعقبها بابتسامة متوترة وأجاب:

- لا بأس، يا "ماريانا". أنتِ تعرفين أن والدكِ يكره الكتابة، ولهذا يقول أشياء لا معنًى لها.

لكن في أعماقه هو يحبك كثيرًا، حتى وإن لم يظهر ذلك.
ولا تنسَي أيضًا، أن الرجال جميعهم يتمنونكِ، فتاة جميلة، ناجحة، موهوبة، حسناً... مغرورة قليلاً، لكن لا بأس!

- شكرًا على مواساتك وإن كانت مبتذلة، لكنني أظن أن والدي كان محققًا، لا أحد قد يحتمل جنوني وتقلباتي المزاجية سوى شخصٍ واحد. أتدري مَنْ هو؟
- مَنْ؟

سأل بصوتٍ يحمل شيئًا من التوتر والاهتمام، وأمل أن أقول هو:
- شخصية خيالية، مجنونة... من إحدى رواياتي.
قلت ذلك ضاحكة، بينما هو ابتسم بتهيدة خافتة، تحمل خيبة أمل لم يستطع إخفاءها.

كان يتوق لسماع اسمه، ظنَّ أنني سأعترف أخيرًا... لكنه خاب مجددًا.
لطالما تمسك "إيثان" بذلك الأمل العنيد، بذلك الحب الصامت الذي لم يعلنه يومًا.

أوصلني إلى المنزل.
كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساءً، والجو بارد، لكنه لم يكن قارسًا.
راقبته بعينيَّ وهو يبتعد بسيارته، يجرُّ خييته معه، للمرة المائة.
لوَّحت له بابتسامةٍ باهتة حتى اختفى عن ناظري، ثم استدرتُ لأدخل المنزل.

لكنني توقفت فجأة.

صوتٌ ما ناداني من الخلف، نطق باسمي:

- "ماريان"!

استدرت بسرعة، قلبي يخفق بقوة.

لم يكن هناك أحد، سوى أشجارٍ ساكنة، ورياحٍ باردة تعصف في الظلام.

أسرعت في خطواتي، ودخلت المنزل أخيرًا بعد يومٍ طويلٍ ومرهق.

كعادتي، تجاهلت أفراد العائلة، وتوجهت مباشرة إلى غرفتي، التي كانت مملوءة بالهدايا والزهور، كما يحدث بعد كل حفل توقيع.

خلعت معطفي، وكنت على وشك الذهاب إلى دورة المياه، حين استوقفتني باقة ورد كبيرة في الزاوية.

ما لفت نظري لم يكن حجمها، بل لونها!

"زهور سوداء... كسواد الليل"!

تقدّمت منها، لمستها بفضول، والدهشة تملأني.

كانت طبيعية، زهور حقيقية بلونٍ أسود! ولم أستلم من قبل شيئًا كهذا.

وحين اقتربت أكثر، لمحت شيئًا غريبًا في وسط الباقة.

مددت يدي وسحبته، كانت "جمجمة صغيرة بيضاء"!

اتسعت ابتسامتي - نعم، مثل هذه التفاصيل الغريبة تثير فضولي وتُسعدني،

فأنا لا أحب الأشياء المملة.

وحين نظرت أسفل الجمجمة، وجدت بطاقة سوداء، كُتب عليها بحبر أبيض:

"إلى "ماريان"... حتى نلتقي، اكتبني من أجلي".

لم يكن هناك اسم، ولا توقيع، ولا حرف، ولا لقب.
لم أُصدَم كثيرًا، فقد اعتدت رسائل المعجبين المهووسين.
لكن ما أثار قلقي، أنه أخطأ في اسمي!
أنا "ماريانا"، لا "ماريان".
ولم يحدث قط أن نسي مُعجَب اسمي، أو أخطأ فيه!
تذكرت على الفور ذلك الصوت الذي سمعته قبل دقائق، حين ناداني في
الخارج بذات الاسم: "ماريان"!
شعرتُ برعشة تسري في عمودي الفقري.
وضعت البطاقة جانبًا، واتجهت إلى النافذة. فتحتها ونظرت بقلق.
لكن لم يكن هناك أحد، فقط فراغ وصمت.
صرخت بسخريّة:
- أيها المعجب المجهول... إن كنت تحبني حقًا، فعلى الأقل تعرف اسمي
الصحيح.
ثم أغلقت النافذة، وتوجهت بهدوء إلى الحَمَّام.

الفصل الثالث

صانع الدمى



في حلمي المتكرر، وجدت نفسي محاصرةً بين عوالم منسوجة من رعبٍ وقسوة. عوالم كنتُ أظنها محض خيال، مجرد انعكاس مسموم لما يطرحه قلبي على الورق. لكن ما كنتُ أعدُّه وهمًا، بات الآن واقعًا ينهش حواسي.

كل عظمة في جسدي تنفصل عن الأخرى. الرؤية معتمة، سوداء كالعدم، أنفاسي ثقيلة تتقطع في صدري، والغثيان ينهش جوفي بلا رحمة. أشعر بأطرافي مقيدة، وكأن القيود تنغرس في جلدي. ثم... ذلك الصوت، صوت أعرفه جيدًا، صليل السلاسل كلما حاولتُ التحرك.

توقفت فجأة، هل يُعقل أنني عُدت إلى "ويليام"؟!

صداغ حادُّ يطرق مقدمة جمجمتي بعنف، وذكرى خاطفة تلوح في ذهني: كنتُ داخل رواية "أعوام الجوع"، أركض في غابة كثيفة، ثم سقطتُ في حفرةٍ لا قاع لها، لكن، أين أنا الآن؟

هل وصل إليَّ "ويليام"؟ لا، هو لا يعصب عينيَّ عادةً. أسمع صوت بكاءٍ خافت، صوت أنثوي قريبًا، قريبًا جدًّا، يبدو أنها تجلس بجواري. لا أعلم لِمَ نطقتُ، لكن الكلمات خرجت من بين شفتيَّ المرتجفتين.

- مَنْ هناك؟

جاءني الجواب أنيًّا متقطعًا. فهمتُ، إنها تحاول أن تتحدث، لكنها لا تستطيع، ربما فمها مكَّمم، على عكسي. يا إلهي، ما هذا المكان؟

صوت صرير بابٍ عتيق مرَّق الصمت، أعقبه صوت خطوات ثقيلة تنزل سلمًا خشبيًّا نحونا. نعم، نحن في الأسفل.

تتبعها صرخة مكتومة، صرخة امرأة تستجدي الرحمة، يملكها الذعر. هذا يعني أنها ترى القادم، ترى مَنْ اختطفنا، أو ربما من يعدُّبنا. لكن ما الجديد؟ لطالما كنت مخطوفة، وما زلت. يبدو أنني يجب أن أتعلم الاعتياد على ذلك.

أسمعها تبكي، إنه يحررها من قيودها، لكن لماذا؟ إلى أين سيأخذها؟

كل ما كان في مقدوري أن أفعله هو أن أراقب، لا بعينيَّ، بل بأذنيَّ، أصغي للصوت فقط.

- أرجوك، لا تؤذني! أرجوك، دعني أرحل!

نطقتُ أخيرًا يبدو أنه نزع ما كان يخنق صوتها. لكنها لم تتوقف، راحت تبكي وتصرخ بحرقهٍ حقيقية، صرخات يائسة ممزوجة بالجنون والألم:

- لا، لا تفعل! أرجوك، لا تفعل!!

ارتجف كياني، تسارعت نبضاتي حتى شعرتُ بأن قلبي سينفجر، كل خلية في جسدي ارتعدت، ودموعي انهمرت بصمتٍ خائق. لا حاجة لرؤية ما يجري، فقد كان واضحًا، واضحًا أنه يعدُّ بها.

كان الرعب يسري في عروقي كسمٍّ قاتل. لم أشعر من قبل بهذا القدر من الجنون، هذا القدر من اليقين، بأن البشر هم أشنع الكائنات قاطبةً.

ثلاث دقائق من الصراخ، بعدها... صمْتُ قاتل. ذلك الصمت الذي لا يحمل طمأنينة، بل يحمل شبح النهاية.

هل قتلها؟

لا صوت، لا نفس، لا منها، ولا منه.

لم أستطع الصمت أكثر، الكلمات خرجت من حلقي مرتجفة، متعثرة، مشبعة بالرعب:

- أرجوك، هل تسمعي؟ اتركها، فقط اتركها!

صرختُ بصوتٍ مرتجف، يتوسل عبر العتمة، لكنَّ الرد لم يكن سوى صوتٍ معدني خافٍ، سلسلة تهتز، واحتكاك أدواتٍ حديدية يوحى بشيء لا يُبشِّرُ بخير، ربما... أدوات تعذيب.

سمعت خُطاه تبتعد رويدًا رويدًا، تصعد السلالم الخشبية، حتى بلغ الباب. فتحه، ثم أغلقه بإحكام، كما لو أنه يُغلق علينا أبواب الجحيم.

لقد رحل، مؤقتًا على الأقل.

بقلق ولهفة، حاولت الحديث من جديد:

- هل أنتِ بخير؟

لم يصلني منها أيُّ رد. لا صوت، لا همسة، ولا حتى أنين.

همسْتُ برِجاء:

- فقط أصدرِ أي صوت خفيف، أي شيء يدل على أنك لا تزالين على قيد الحياة.

لكن الصمت كان سيِّد اللحظة، لا دليل على حياة.

مضت دقائق لا أعلم عددها، دقائق من ظلام دامس وصمت قاتل.

كنتُ أعيش في رعبٍ مطبَّق، سَجينة ظُلْمة لا تنقشع، وصوتي الداخلي يصرخ بالبكاء، بكاء لا يُسمع إلا داخلي.

وفي كل مرة كانت روحي تضعف، يتردد في داخلي سؤال حارق:

أين "ويليام"؟

لماذا تركني وحدي؟

هل سينقذني؟

أم أنه هو مَنْ قادني إلى هذا الجحيم؟

كل الطرق تقود إليه. هو السبب، هو من خَرَّب حياتي، ودَمَّر عائلتي.

"ويليام"، كيف استطعت؟ كيف جرؤت؟

كيف استطعت أن تُغرقني في هذا الظلام وتتركني أواجهه وحدي؟

إنه يفعل ذلك منذ سنين طويلة. إنه هو، الشخص ذاته!

يا لسذاجتي، كيف أسمح لنفسي حتى بالتساؤل؟!

إنه الشيطان بعينه، ومعه أولئك الأتباع الذين لا يمتُّون للبشرية بِصلة.

وجوهم أقنعة، وأصواتهم كوابيس.

هم ليسوا سوى شياطين متجسدة، كوابيس تمشي على الأرض، وقد
ساقوني الآن إلى تيهٍ لا نهاية له، داخل دهاليز أحلامٍ مفترسة، كأنني محبوسة
في عقل كابوسي لا يرحم.

لا أعلم كم مضى من الوقت؟ لكن التعب انتصر في النهاية، وغرقتُ في
نوم ثقيل.

ثم بعد لحظات فتحتُ عيني من جديد.

لحظة!

أنا أرى!

الرؤية ضبابية، تتضح شيئًا فشيئًا، لقد أُزيلت العصابة عن عيني، ومع ذلك، لا
زلت أشعر بالقيود تُطبق على معصمي.

شعورٌ مألوف، ذكرى أولى، كأنني أعود إلى اللحظات الأولى مع "ويليام".

لكن هذه المرّة، ليس "ويليام".

أحاول أن أحدد أين أنا؟ الذي تبين لي من النظرة الأولى أنني داخل قبو،
لكنه ليس قبوًا عاديًا، بل فسيحٌ على نحو غريب، نظيفٌ إلى حدٍّ مزعج، وذو
ديكور يثير الريبة.

كان القبو يغمره ضوءٌ أصفر دافئ ينبعث من أباجورات صغيرة منتشرة
بعناية، تُضفي على المكان جوًّا منزليًّا زائفًا.

وكانت هناك دمي.

عشرات... لا، مئات من الدمى الغريبة، بعضها جميل، وبعضها قبيح بشكلٍ
فظيع، مختلفة الأحجام والألوان، مصطفة بعشوائية مدروسة.

حاولتُ أن أعتدل في جِلستي بصعوبة، تَفَحَّصْتُ جسدي بعينيَّ المرتعشتين،
فوجدتُ بعض الخدوش والكدمات، لكنها لم تكن عميقة.

أخذتُ أُمعن النظر في المكان.

تذكَّرتُ تلك الفتاة التي كانت معي، لكن الآن؟

لا أحد، لا شيء سوى الدمى تُحدِّق بي بصمتها المشؤوم.

لا يوجد دماء، لا أثر، لا فوضى.

المكان نظيفٌ بشكلٍ غريب، والرائحة عطّرة، بل تكاد تكون جميلة.

آه! أجل، هناك شموع معطّرة تملأ الزوايا، تضيء على القبو وهمًا بالسَّكينة.

سمعتُ الصوت.

صرير بابٍ يُفتح ببطء.

قلبي تسارع، تراجعْتُ إلى الخلف بارتباك.

صوت خطوات ثقيلة تهبط الدَّرج!

وأخيرًا... ظهر.

رجلٌ طويل القامة، عريض المنكبين، يرتدي قميصًا أبيض وبنطالًا أسود.

بشرته قمحية، وعرفت ذلك من أجزاء جسده الظاهرة، كيديه ورقبته،

لكن... وجهه!

ها نحن من جديد، الدوامة ذاتها، اللعنة تتكرر. كان يرتدي قناعًا أبيض، أشبه

بوجه دمية، خالٍ من الملامح، وبارد كالموت.

اقترب خطوةً بعد خطوة، بثباتٍ مُفزِع، حتى وصل إليَّ.

انحنى.

جلس أمامي، بجسده الثقيل، حتى أصبح على مقربةٍ لا تُحتمل. حَدَّقَ بي بعينه، وكانت إحدى عينيه بلون العسل الفاتح، تلمع ببرودٍ غريب، تخرق أعماقي. أَمَالَ رأسه ببطء مريب، أولاً نحو اليمين، ثم إلى اليسار، كما لو أنه يدرس تفاصيل وجهي كما يُفحص جسدٌ في مشرحة.

تأملني بنظراته الحادة، ثم مد يده نحوي.

أراد أن يلمس وجهي. فزعتُ، وأبعدت رأسي إلى الخلف محاولةً أن أتماسك، رغم الارتجاف الذي بدأ يتسلل إلى أنفاسي.

لكنه لم يتراجع، بل أصر، وفي هذه المرة أمسك بوجهي بقوة. قبضته كانت صارمة، قاسية، وراح يحرك رأسي يمينًا ويسارًا وكأنني دمية بين يديه.

وحين انتهى، نطق بصوته الأجش، العميق، الذي حمل نغمةً أشبه بالهوس:
- مثالية أخيرًا، جميلةٌ جدًّا. الآن أعلم أن السماء تنظر إليّ، وتدرك أنني على الطريق الصحيح.

أتدريين لماذا؟

لأنني وجدتكِ مُلقاةً مغشيًا عليكِ في حديقة منزلي. نعم، بينما كنتُ أبحث عن فريسة بعد زمنٍ من الوفرة والجوع. وإذا بكِ، هناك، بين الزهور، وكأنكِ سقطتِ من السماء، هديةً لذئبٍ متعطش.

ارتجف قلبي، وبدأ صوتٌ داخلي يصرخ بالفزع.

ماذا يقول؟!

حديقة منزله؟

كيف وصلتُ إلى هنا؟

هل يُعقل أنني عندما سقطتُ في تلك الغابة داخل رواية "أعوام الجوع"، لم
أُمت، بل انتقلتُ؟

نعم هذا ما يبدو، لقد انتقلت إلى رواية أخرى، كتابٍ جديد، كابوسٍ جديد،
ودوامة لا نهاية لها.

وقف مبتعدًا، يسير نحو خزانة قديمة عند الجدار. فتحها ببطء، بينما قلبي
كان يدق بعنف داخل صدري، يكاد يُمرِّق ضلوعي.

لم أستطع الانتظار، لم أحتمل معرفة ما سيُخرجه منها.

صرختُ، بصوتٍ متهدِّج يملأه الرجاء:

- أرجوك، لا تؤذني.

التفت إليّ. نظراته لم تتغير، لكنها صارت أكثر هدوءًا بشكلٍ مريب.

أخرج مفتاحًا، وتقدّم نحوي بهدوء مُقلِق، ثم قال:

- أوذيكَ؟ لا... بالطبع لا.

أنا لا أوذي الفتيات الجميلات.

أدخل المفتاح في قفل السلسلة التي كانت تقيّد قدميّ، وحررهما أخيرًا من
القيود، فيما أبقى الأصفاد مشدودةً حول معصمي.

أمسكني من ذراعي، وساعدني على الوقوف، لكن ساقيّ كانتا ترتجفان، لا
تكادان تحملان جسدي الواهن.

ورغم ذلك، جذبني من ذراعي، هامسًا بصوته المتحفز:

- تحتاجين إلى الطاقة، يجب أن نحافظ على جمالك!

ما زلتُ حتى هذه اللحظة عاجزةً عن فهم كلماته؟ حديثه مُبهم، مجنون!

سيرنا عبر السلالم، نصعد ببطء من القبو المظلم إلى الأعلى.
وما إن تجاوزنا عتبة القبو، وانّضحت معالم منزله أمامي، حتى شعرت
وكأنني خرجت من كابوس إلى كابوسٍ آخر.
ما رأيته لم يكن منزلًا؛ بل شيئًا أشبه بالخيال. يبدو أنه قفز من صفحات
رواية، وهو كذلك فعلاً.

كان المكان أقرب إلى قصرٍ مصعّر، مشرقٍ إلى حدٍّ مبالغ فيه، غارقٍ
بالأضواء الغريبة التي تنبعث من كل زاوية، كما لو أن صاحبه يهاب الظلام...
بل، هو الظلام ذاته.

تصميم المنزل بدا وكأنه استُخرج من لعبة سحرية أو حلمٍ مجنون. الشموع
المعطّرة، اللوحات المُقلّقة، المرايا المنتشرة بكثافة وبعشوائية مدروسة،
مزيّجٌ غريب بين الطراز القوطي والكلاسيكي، لكنه لا يوحى بالدفع، بل
بالخوف المتأصل في الجدران.

غير أن ما أزعجني حقًا...

كانت الدُمية.

كانت تغمر المكان في الصالات، في الأروقة، في الزوايا والغرف، حتى
على السلالم.

أعدادها مهولة، وأشكالها متفاوتة، بعضها غريب ومشوّه، وبعضها الآخر
جميل على نحو مُقلّق.

لكن ما زاد من رعبي كانت تلك الدُمية الضخمة بحجم فتيات بشريات، بل،
لحظة!

هل هي...؟!

صُدِمْتُ.

كل شيء بدأ يتكشف في رأسي كصفحات تتساقط من ذاكرة منسية:
الدمى، الفتيات، القصر، القناع، الشموع المعطرة، اللوحات المجنونة.
إنه ليس مجرد قاتل، بل صانع رعب.
إنه يحاول أن يجعلني مثالية، يبحث عن "الفتاة المثالية"؛ ليحوّلها إلى دمية
مثالية.

كل تلك الدمى الضخمة لم تكن دمي فحسب، بل كانوا فتيات حقيقيات!
فتيات بريئات، قتلّهن، ثم صبّ عليهن شمع "السيريسين"، ذاك الشمع
المخصص لصناعة الدمى والمنحوتات؛ ليخلّد أجسادهن في هيئة مثالية،
جامدة، باردة... إلى الأبد.

تجمّدت الدماء في عروقي.

أنا أعلم هذا المكان، أعرف هذا الجحيم جيّدًا.
لقد وقعتُ داخل واحدة من أكثر روايات الرعب النفسي ظلمةً وقسوة.
إنه عالم رواية "رجل الدمية"، للكاتبة "ليلي سميث".

تلك الرواية التي كانت كابوسًا متحرّكًا.

تحكي عن رجل مجهول، مختل، قاتل متسلسل، يعيش في قصر يشبه
منزل دمي، يستدرج الفتيات ويحتجزهن، يعذبهن حتى آخر رمق، ثم يصب
عليهن شمع "السيريسين"؛ ليحوّلهن إلى منحوتات بشرية... إلى دمي أبدية.
والآن...

أنا داخله، داخل الرواية، داخل الكابوس.

كان يُلبس ضحاياه الفساتين الفاخرة، ويضع على وجوههن مساحيق التجميل بعناية مَرَصِيَّة، حتى يُضفي عليهن مظهرًا مثاليًا، مثل دمي معروضة في واجهة متجر.

أتذكّر جيدًا هذه التفاصيل، فقد نُشرت تلك الرواية في عام 2020، وحققت حينها نجاحًا باهرًا، وكانت محل إعجاب كثيرين، وكنتُ واحدةً منهم. نعم، كنت من أشد المعجبين بها، لكن لم يخطر ببالي قَط أنني سأدخل إلى عالمها الكابوسي، ولم أرغب يومًا بذلك.

كان يسير بي في أروقة المنزل الغريبة، ممسكًا بذراعي بقوة، يَجُرُّني خلفه دون أن يَنبَس بكلمة، ودون أن أعلم إلى أين نمضي. حتى توقف أمام باب خشبي، فتحه، ودخلنا إلى غرفةٍ اتَّضح من ملامحها أنها غرفة طعام.

طاولة طويلة من الخشب العتيق، أثاث كلاسيكي الطراز، بعض الشموع، ومدفأة حجرية تشتعل بنيران هادئة.

سحب أحد الكراسي، وأجلسني عليه قسرًا.

ثم جاء ببعض الأطباق الممتلئة بأنصاف شهية من الطعام، وضعها أمامي برتابة دقيقة، إلى جانب كوب من الماء وآخر من العصير.

كان المنظر غريبًا! الطعام يبدو مثل وليمة، لكنني أعلم القصة من قبل.

تذكّرت ما قرأته في الرواية...

في البداية، كان الصانع يُطعم ضحاياه جيدًا، يحافظ على صحتهم حتى بعد أن يبدأ بتعذيبهم.

أتذكّر الضحية ذات الجسد الممتلئ.

ظلَّ يعذِّبها لسته أشهر متواصلة، حتى أصبحت نحيلة كالغصن اليابس، ثم قتلها بدمٍ بارد، وحَوَّلها إلى دمية من الشمع.

لا أريد حتى أن أتخيل كمَّ العذاب الذي عاشته تلك الفتاة، لا أريد أن أعرف. كنت أقول لنفسِي: "لا بأس... إنهم شخصيات خيالية".

لكنني الآن، لست خيالًا. أنا هنا، وأتساءل:

هل سأشعر بكل قطرة ألم؟!

هل سأموت فعلاً إذا قُتلت هنا؟

لا، لا أريد أن أكتشف، لا أرغب بالتجربة. كل ما أريده هو الخروج الخلاص، النجاة.

"ويليام..."

هل أرغب في العودة إليه؟

لا أظن ذلك. أنا أكرهه، أكرهه بشدة.

إنني على استعداد لمواجهة الموت بدلاً من رؤيته مجددًا.

لقد دمَّر حياتي، دمَّر عالمي. لكن، لا أظن أن هناك مهربًا منه. كل الطرق، مهما تشعبت، تؤدي إليه.

هو السبب في كل هذا، هو مَنْ قادني إلى هذه الكوابيس المتوالية.

لذلك، إن خرجت من هنا، فالغالب أنني سأعود إلى ذلك القصر... قصر "ويليام".

فجأة، ضرب بيده الطاولة بقوة، فارتجفت الأطباق، ثم سحب كرسيًا آخر وجلس أمامي، يُحدِّق فيَّ بعينٍ ثابتة، وأشار نحوي قائلاً بلهجة آمرة:

- عليك أن تأكلي.

بلعت ريقِي، وأجبت بكذبة حاولتُ أن أُمرِّرها بلطفٍ متوتر:

- لا أستطيع... يداي ما تزالان مقيّدتين.

قال متنهّدًا:

- لا تحاولي الكذب أيتها الجميلة، كنا على وفاقٍ حتى الآن. يمكنكِ تناول

الطعام بيدكِ، وإن لم ترغبِي فلا بأس، سأطعمكِ بنفسِي.

مدّ يده نحو الطبق، لكن شعورًا غارمًا بالقرف اجتاحني، فتراجعت متلعثمة:

- لا... لا، أرجوك! لا بأس، أستطيع أن أكل وحدي.

بدأتُ بتناول الطعام وقلبي يرتجف، وعيناي لا تجرؤان على الابتعاد عن

نظراته الثاقبة، تلك النظرات التي كانت تنبعث من خلف قناعه الأبيض مثل

خناجر تسلخ طبقات روحي.

شعرت بانقباض داخلي، بعدم ارتياح، بخوفٍ خانق، ومع ذلك، لم يكن أمامي

خيار آخر.

انتهيت من الطعام، وشربت العصير والماء دفعةً واحدة، كمن يتمنى أن

يُطيل لحظة الأمان الزائف.

كنت أتمنى، لو استطعت، أن أبقى أكل إلى الأبد؛ لأنني لم أكن أعلم ما

الذي ينتظرني بعد هذه الوليمة المسمومة.

وما إن أنهيت، حتى التقط الأطباق بسرعة، دون أن ينيس بكلمة.

كنت أرتعش، ارتعاشًا داخليًا لا يمكن إخفاؤه.

ثم أمسك بي من ذراعي، وسحبني معه صعودًا نحو الطابق العلوي.

وأنا أعلم...

أعلم تمامًا ما يوجد في الأعلى.

ذلك الطابق ملآن بالغرف، وكل غرفة تحوي عددًا من الدمى، أو بالأحرى الضحايا، أولئك الفتيات اللواتي حوّلن إلى تماثيل بشرية مطلية بالشمع.

كان يُقسّم غرفه وفقًا لتواريخ القتل.

كل غرفة تحمل على بابها أعوامًا محددة، تُشير إلى فترة اصطياده للفتيات. الزمن نفسه أصبح أرشيًا لجريمته.

الغرفة الأولى، مثلًا، كُتب على بابها: "من عام 2004 حتى عام 2008"، وتحتوي على الدمى القديمة.

أما أنا...

فأنا حديثة العهد.

توقّف أمام غرفةٍ كُتب على بابها: "من عام 2019 حتى عام 2022".

أجل، نحن الآن في عام 2020، بحسب زمن الرواية، لكنه على ما يبدو قد خطّط كل شيء، حتى سنوات موتهن.

يفتح الغرفة، يُخزّن الجثث، يُغلق الباب بإحكام، وينتقل إلى ضحايا جدد.

صدر عن الباب صرير خافت، ثم انفتح على مهل، والرعب يتسلل معه.

كانت الغرفة أمامي أشبه بحلمٍ مُشوّه...

جميلة في ظاهرها، مرعبة في جواهرها.

مساحتها شاسعة، مصمّمة على الطراز الكلاسيكي، جدرانها مزخرفة

بنقوش دقيقة، شموع مُعطّرة تملأ المكان بروائح زهرية فاتنة، مرآة ضخمة

في منتصف الحائط، وأمامها تسريحة مُتَرَفَة تتناثر عليها مساحيق التجميل،
كما لو أن مَنْ تسكن هنا ما زالت فيها أنوثة حية.

وخزانة مكتظة بالفساتين، ملابس نسائية من كل شكل ولون، مرصوفة
بعناية قاتِلٍ يعرف تمامًا ماذا يريد.

وهناك كان خمس دمي ضخمة.

لكنها ليست دمي.

إنهنّ نساء، كنّ يومًا ما مثلي.

وقفتُ مشدوّهة، امتلأت عيناى بالدموع، وقلبي بالهلع.

هل هذه هي نهايتي؟!

أن أصبح دميةً بين أيدي مختلِّ داخل رواية مريضة؟

وإن حدث، هل سيعثر أحدٌ على جثتي يومًا؟

لا أمل، لا مفر، لا أثر.

أجلسني على الكرسي أمام التسريحة، وأنا أحاول ألا أنظر إلى الجثث
الواقفة كالعجينة الصامتة... لكن صورتهم انعكست في المرآة أمامي،
تحاصرني من كل اتجاه. لا مهرب من رؤيتهم.

ثم نطق بصوته المليء بالهدوء المزيف:

- سأختار لكِ فستانًا يليق بهذه الليلة.

قاطع شرودي المضطرب صوته، وهو منهمك في قلب الفساتين، باحثًا
عمّا يناسب "دمية الليلة"، فيما كنتُ أنا ألوذ بالصمت، أنكمش على مقعدي،
أراقب في سكون ثقيل.

لكن بداخلي كانت العاصفة تعصف.

لا يمكنني الاستسلام.

يجب أن أفعل شيئًا، يجب أن أتحرك، أن أقاوم، أن أبحث عن مخرج، حتى وإن بدا مستحيلًا.

لقد صمدتُ أشهرًا طويلة في وجه شيطانٍ آخر، شيطانٍ اسمه "ويليام"، فلا بأس، شيطانٌ جديد لن يكون نهاية الطريق.

سأتجاوز هذا الجحيم أيضًا، لكن كيف؟

قطع أفكاري صوته الجاف، مجددًا:

- سأغيب دقائق فقط... سأذهب لإحضار شيء.

ابقي هنا، ولا تحاولي أن تكوني ذكية.

لا يوجد سوى مخرج واحد لهذه الغرفة، وهو هذا الباب، وسأقفله خلفي.

ولا تُتعبني نفسك في البحث عن سلاح؛ فكلُّ ما في الغرفة مُعدُّ بعناية، لا شيء يمكن أن ينقذك.

أطلق تهديداته ببرود، ثم خرج، وأعقب خروجه صوت إغلاق الباب، ثلاث نقرات متتالية، ثلاث لَقَّات مفتاح، كأنها أقفال أُغلقت على قلبي.

تنفستُ بعمق.

نفسًا واحدًا حاولتُ فيه لملمة أنفاسي المتناثرة، واستدعاء ما تبقى في داخلي من شجاعة وذكاء.

يجب أن أخرج كما خرجتُ سابقًا من رواية "أعوام الجوع".

لكن، كيف فعلت ذلك؟

تذكّرت...

عندما سقطتُ في الحفرة، حينها خرجت من الرواية.

هل يعني هذا أن الهروب يتطلب السقوط؟

هل لكل رواية مخرج يشبه الجرح؟

أم أن هناك طريقًا آخر أكثر خفاءً؟

قبل أن أصل إلى إجابة، قاطعني صوت موسيقى خافتة، رتيبة، حزينة.

التفتُ بفزعٍ حذر.

الصوت ينبعث من صندوق موسيقى موضوع على رفٍّ خشبيٍّ مقابل، وكان الرف مكتظًّا بالألعاب الصغيرة، الدُّمى، الدباديب القطنية، وصناديق الموسيقى المتراسة.

نهضتُ من مكاني بخفة، واقتربتُ من ذلك الرفِّ.

كانت الأشياء تملأ المكان فوضى منظّمة، وكل غرض فيها يحمل ذاكرة مشوّهة.

لفت نظري قلادة صغيرة، معلّقة بخيط أسود، تتدلّى من مسمار على حافة الرف.

كانت القلادة على شكل عنكبوت، محفور عليها نقوش غريبة! رموز لا تشبه أي كتابة أعرفها.

أحسست بشيء غريب، وكأن للقلادة طاقة خفية، تنبض بين أصابعي.

انتقلتُ عيناى إلى الجانب الآخر، حيث وُضعت تحفة زجاجية دائرية، بدت للوهلة الأولى مثل كرة ثلجية، لكنها لم تكن كذلك.

كانت أشبه بعالمٍ مُصَغَّرٍ حُبس في زجاج.

داخله قصرٌ عظيم، مظلم، مشيّد على طراز مرعب، تحيط به جبالٌ سوداء شاهقة، وتغمره مياه داكنة، أقرب إلى سواد البحر، أو لعله سوادٌ أعمق، سوادٌ لا قرار له.

لكن قبل أن أتمكّن من تأمّل تفاصيله أكثر، قاطع تركيزي صوتٌ أنين خافت يتسلل من خلفي!

التفتُ بذعر، ولم يكن في الغرفة سواي على قيد الحياة. ظننتُ لوهلة أن خيالي يخدعني، لكن الأنين عاد من جديد، وحينها خفق قلبي برعبٍ جارف، كأن دمي قد توقف عن الجريان.

كان الصوت ينبعث من إحدى الدمي البشرية!

تقدّمتُ بخطى بطيئة مرتعشة حتى وصلت إليهن. كنّ خمس فتيات، حُولن إلى دمي بلاستيكية، بلا روح، بلا دفء. حدّقت بهن بذعرٍ وخوف، أنفاسي تتقطّع، أترقّب أي حركة أو صوت. وحين عاد صوت الأنين من جديد، شعرتُ وكأن الأرض تهوي بي، وكأن الجنون يَفُغر فاهه ليبتلعني.

الأنين كان يصدر من دمية ذات بشرة حنطيّة، وشعر أرجواني، ترتدي فستانًا أبيض. لم يكن الجنون في شكلها، بل في الحقيقة التي تنبض بها. تمثّيتُ لو كانت شبّاحًا، أو مجرد وهمٍ صوتي كما اعتدت في كوابيسي، لكن الصوت كان حقيقيًّا، مصدره الفتاة نفسها! وتأكدتُ من ذلك حين رأيت دمعَةً تنساب من عيناها... كانت لا تزال على قيد الحياة!

اقتربتُ منها أكثر، وجسدي كلّهُ يرتجف. ركعت على ركبتَي، واحتضنتها. كانت تحاول أن تتكلم، لكن صوتها مخنوق، وشفثيها لا تتحركان. عندها أدركتُ الحقيقة المرعبة: إنه يمزق ألسنتهن، وينزع جفونهن ليبدونَ كدمى مثالية!

شعرت بجزع عميق، ببؤسٍ لا يُحتمل، وبرعبٍ لا يمكن وصفه. كيف استطاعت أن تبقى حيّة حتى الآن؟ أيُّ عذاب هذا الذي تحتمله؟ كانت عيناها تصرخان طلبًا للموت، للراحة، للخلاص.

- هل تريدني أن أنهي عذابك؟ أن أخلّصك؟ لكن كيف؟!

وفجأة، سمعتُ صوت خطواته تقترب من الغرفة. نهضتُ بسرعة، وهمست لها:

- اصمدي... سأحاول مساعدتك، اتفقنا؟

قلت ذلك وأنا أعود إلى الكرسي أمام التسريحة، لكن قبل أن أفعل، التقطت الكرة الزجاجية، وأخفيتُها في كفّي المرتجف. وضعت يديّ بين فخذيّ، محاولَةً إخفاءها.

فُتح الباب، ودخل ذلك المَسْخ...!

شعرتُ بأن قلبي سيسقط من صدري من شدة الخوف. لم أرتجف هكذا قط قبل ذلك، حتى وأنا بين يدي "ويليام".

دخل الغرفة، وكان كل تركيزي منصبًا على أن أوجه له ضربة قاضية، لكن لا بد من الصبر، لا مجال للتسرّع.

اقترب، ووضع بعض المعاطف في خزانة الملابس.

انتشر عبير بعض العطور في الأجواء، واقترب نحوي بخطى هادئة. شرع في فتح صناديق مساحيق التجميل واحدًا تلو الآخر، ثم التقط فرشاة الشعر، ووقف خلفي قائلاً:

- حان وقت تسريح شعرك، لا تخافي، أنا خبيرٌ في هذا الأمر. وبعدها سنضع لك بعض المساحيق، سأجعلك أميرة.

بدأ بتمشيط شعري بالفرشاة، فيما كانت مشاعر الاشمئزاز والنفور تملكني من هذا المختل الذي يتصرف بثقة غريبة. ثم أردف بحماسة طفولية:

- أخبريني، ما اسمك؟

علمتُ أن تجاهله ليس خيارًا آمنًا، بل إن مجاراته في جنونه قد تكون السبيل الوحيد لتفادي الأسوأ. أجبت بصوت هادئ:

- "ماريانا"... اسمي "ماريانا".

توقف عن تسريح شعري للحظة. شعرْتُ بتغيُّر في هدوئه، كأنه فوجئ بالاسم، أو يعرفه. نظراته انعكست في المرآة، وكأن صدمةً ما اجتاحتها. لكنه سرعان ما تمالك نفسه، وعاد إلى تمشيط شعري بصمت. ثم قال:

- وكأنتي سمعتُ اسمك في أحلامي... بل وكأنتي رأيتكِ من قبل. يبدو أنكِ الجائزة التي انتظرتها طويلاً، لطالما حلمتُ بكِ.

تنهد بعمق وهو يتحدث، ثم توجَّه إلى التسريحة. وضع فرشاة الشعر، والتقط فرشاة التجميل. شرع في وضع المساحيق على وجهي بعناية، مستخدمًا الأساسيات باحترافية لافتة. كان من الواضح أنه يعرف تمامًا ما يفعل، كأن هذه المهنة أصبحت جزءًا من كيانه أو من جنونه.

لم أكن أستمع لِمَا كان يتمم به بينما كان يضع مساحيق التجميل على وجهي؛ إذ كان كل تركيزي منصبًا على اللحظة الحاسمة، على الضربة القاضية التي يجب أن أوجَّهها مباشرة إلى جمجمته، كان عليَّ ألا أتردَّد.

وبينما كان لا يزال منهمكًا في وضع المساحيق، وجَّهت الضربة بكل ما تبقى لديَّ من قوة نحو رأسه! لكن - وبِالأسف - لم تكن بالقوة التي تمنيتها؛ إذ كانت يداي مقيدتين بالأصفاة، ما قيَّد حركتي وأضعف الضربة. ومع ذلك، كانت

كافية لإرباكه؛ إذ صرخ متألمًا وترنَّح جسده قليلًا، تراجع إلى الخلف وسقط أرضًا.

كل هذا حدث في لمح البصر، وعندما قررت الفرار، أمسك بقدمي وأسقطني على وجهي. بالطبع، كان الهروب صعبًا مع ذراعين مقيّدين. حاول سحبني نحوه، لكنني قاومته مستخدمة قدميَّ، وركلته مرة، ثم ثانية... وفي الثالثة كانت الركلة أقوى، وأخيرًا أفلتني.

زحفت بسرعة نحو الباب. كانت المفاتيح ما تزال عالقة في القفل! التقطتها، وأغلقت الباب بسرعةٍ لا أعلم من أين أتيت بها.

تراجعت خطوتين إلى الخلف، بصدمة، وقلبي يخفق بشدة. لم أستطع مساعدة تلك الفتاة، لكن، كيف أساعدها وأنا بالكاد أستطيع إنقاذ نفسي؟! عليَّ أن أنجو أولًا.

هي الأخرى بالكاد تستطيع الحركة، جسدها مغلفٌ بالكامل بالبلاستيك، وعلى الأرجح ستموت خلال ثوانٍ.

من خلف الباب، بدأ يضربه بعنف، ونبيرة عصبية ممزوجة بالجنون صاح:
- افتحي الباب! صدقيني، لن تتمكني من الخروج من هذا المنزل، إنه أكثر تعقيدًا من أحجية عبقرية. لذا، قبل أن أغضب أكثر، افتحي الباب يا دميتي الجميلة.

ركضت مسرعة عبر السلالم، نزلت إلى الأسفل أبحث عن أي مَخرج؟ أي باب؟ لكن ويا للعجب! لقد كان مُحققًا.

لا توجد أبواب! فعليًا، لا وجود لأي مَخرج، لا شيء سوى جدران صامتة تحاصرني. لا نوافذ، لا فتحات، لا حتى ضوء!

كنتُ في متاهةٍ حقيقية، متاهة بلا خرائط، بلا أمل.

كان عليّ أن أركّز، يجب ألاّ أسمح للتوتر أن يسيطر عليّ. لم أعد أسمع صوت الطّرق على الباب، ربما لا، بالتأكيد وجد طريقًا آخر للخروج. هو يعرف جيدًا خبايا هذا المنزل، ويجيد التنقل بين ممراته ومخارجة.

لمحت سلاّم تؤدي إلى الأسفل، ربما تؤدي إلى القبو الذي كنت محتجزة فيه. لكنني لا أظن ذلك عندما خرجنا من هناك، لم يكن هناك ممر يُطل على هذا الرواق. ومع ذلك، لم يكن لديّ خيار آخر.

فتحت الباب الخشبي ببطء، كان المكان مضاءً كما هو حال كل زاوية في هذا المنزل الغريب. نزلت الدّرج بحذر، وكان بالفعل قبوًا، لكنه مختلف. قبو غريب مملوء بالصناديق الكبيرة، أو ربما التوابيت!

هل يُعقل أنه يخبئ فيها جثثًا تالفة؟

ربما لم تذكر الكاتبة شيئًا كهذا، لكن في هذا العالم، تتجاوز الروايات حدود الورق، هنا كل شيء قابل لأن يتحقق.

كنت أبحث عن أي سلاح. لا وقت للأسئلة، ما أحতاجه الآن هو باب للخروج، أيّ مخرج!

لكن فجأة، سمعت صوته يقترب بسرعة مخيفة! نظرت من حولي، وكان هناك عدد كبير من الصناديق، فانسلفت أسفل أحدها. ولحسن حظي، وجدت مفكّ براغي ملقّى بين الغبار. التقطته بيدين ترتجفان، بينما العرق يتصبب مني كالشلال.

رأيت قدميه الضخمتين تدخلان القبو، كان يندندن بصوت هادئ مخيف:

- هيا يا دميتي الجميلة... لقد كنا على وفاق، لن أؤذيك، سنقضي وقتًا ممتعًا، صدقيني.

وما إن أنهى كلماته حتى انحنى أرضًا، ووجهه المخيف بقناعه الرهيب اقترب أكثر، نظراته تلاقت مع نظراتي، ابتسم وهو يقول:

- وجدتكِ...

رفع الصندوق بيدٍ واحدة كما لو كان قطعة خشب خفيفة، وأمسك بشعري بعنف. بدأت أصرخ وأتوسل إليه أن يتركني، لكنه لم يُصغ. وجَّه إليَّ ضربة قاسية على وجهي، فسقطت على الأرض، وشعرت وكأن كل عظمة في وجهي قد تحطمت، وسالت الدماء من أنفي وفمي بغزارة.

عاد إليَّ مجددًا، أمسك بشعري مرة أخرى، بينما كنت أرتجف من الألم والرعب. لكن هذه المرة... كنت عازمة على إنهاء الأمر.

صرخت بكل قوتي، وطعنت المفكَّ في حنجرته بسرعة مذهلة!

انغرس المفك في مقدمة عنقه. لحظة من الصدمة والذهول ارتسمت على وجهه، ثم انفجرت الدماء كنافورة، لتغمر وجهي وملابسي.

تراجع مترنِّحًا، حاول انتزاع الأداة المغروسة في رقبته، لكنه لم ينجح. ثم سقط، سقط بكامل جسده إلى الأرض.

غمرت دماؤه المكان، وتجمَّعت حولي مثل بحيرة من الخوف والرعب. ظل يركل بقدميه، ينازع أنفاسه الأخيرة حتى فارق الحياة.

أما أنا، فبقيت مستلقية فوق تلك البحيرة الصامتة، دون أدنى حركة. كنت كأنتي متجمدة، عاجزة عن الشعور، هل هو التبلد؟ أم الصدمة؟ أم الفاجعة؟ لا أعلم.

لقد قتلت أحد شخصيات الرواية، هل هذا ما أشعر به عندما أكتب نهاياتهم بيدي؟ لكنَّ الأمر مختلف تمامًا حين تكون الطعنة حقيقية، حين يتلوى الجسد أمامك وينزف حتى يموت.

كان قاتلاً مختلاً، ويستحق تلك النهاية، لا شك في ذلك.
في الرواية، كانت نهايته مختلفة. لقد قُبِضَ عليه بعد سنوات من سفك
الدماء، وتم إيداعه بكل بساطة في مصحةٍ نفسية.
أما هنا، فقد غيرتُ مجرى الأحداث.
أنا مَنْ حُسمت نهايته.
أنا من قتله.
لقد كان يستحق هذه النهاية.
إنها المرّة الأولى في حياتي التي أقتل فيها إنساناً، وإن كان "شخصية في
رواية".
لكن، هل هذا حقّاً جديد عليّ؟ أنا كنت أقتل الشخصيات في كتبي، أم أنني
كنت أكتب عن نفسي طوال الوقت دون أن أدرك؟
ومع ذلك، يراودني سؤال لا يفارقني:
ماذا الآن؟
ما الذي سيحدث بعد ذلك؟
هل سأبقى حبيسةً إلى الأبد في هذا المنزل؟ المنزل الذي لا يوجد إلا بين
سطور رواية؟
هل أصبحتُ أنا الأخرى شخصية في قصة كتبتها بيدي... ونسيت أن أكتب لها
مَخرجاً؟



"الشيطان لا يأكل الفتيات اللواتي يأخذهن بغض النظر عن القصص التي
يكتبونها خارج مملكة الخوف"
"ويليام"



الفصل الرابع

مملكة الخوف



انفتحت البوابة المزروجة العملاقة ببطء مهيب.

البوابة السوداء التي تزيّنت بنقوش حمراء وزخارف سيرلانكية، تلك اللغة الغابرة التي حرصت هذه العائلة على الحفاظ عليها عبر قرون طويلة من المجد والدم.

وفي وسط البوابة، نُحت شعار مهيب:

رجل يرتدي عباءة حمراء، يطير قلبه أمامه، ويملك جناحين بيضاوين.

يقف بثبات فوق جمجمة حمراء ضخمة، تتوسطها جمجمة ذهبية صغيرة.

وفي قلب هذا الرمز، ينتصب سيف ذهبيّ لامع، بينما تحلّق فوق جناحيه

مجرّات صغيرة، تبدو بقايا عوالم ابتلعها الخوف.

ذاك هو الشعار الرسمي لـ "مملكة الخوف".

دخل الرجل إلى قاعة الاجتماعات العتيقة، المبنية بالكامل من الحجارة السوداء، ذات المساحة الواسعة.

تألقت القاعة بزخارف ونقوش حمراء وذهبية، وتوزعت على أطرافها شموع غريبة، اتخذت أشكالَ جماجم وقلوب وعقول، تنبض بالسكون والرعب. وفي منتصف القاعة، انتصبت طاولة حجرية ضخمة، صُممت لتستوعب قرابة خمسة عشر شخصًا، يحيط بها مقاعد حجرية منحوتة بعناية، تزدان بالنقوش ذاتها.

خمسة رجال كانوا جالسين، والسادس قد وصل تَوًّا.

تقدّم الشاب الأخير بخطى ثابتة، وجلس في رأس الطاولة.

كان شابًّا في مطلع الثلاثينيات، رغم أن الأعمار لا تُقاس هنا كما تُقاس في عالم البشر.

إلا أنه كان الأصغر بين أولئك الشيوخ الكبار الذين شهدوا حروبًا لا تُحصى، وعقودًا من الدم والحُكم.

جلس الأمير، ذو البشرة الحنطية ولون شاحب بنفس الوقت، والوجه الذي اجتمع فيه مزيج مَهيب من الشجاعة والحدّة، والشر الهادئ الكامن في عينيه.

شعره الأسود المجعّد، وبنيته القوية، كانت تشي بأنه مقاتل لا يُقهر.

عيناه كانتا كالماستين زجاجيتين، تشعّان ببريق بارد، قاتل.

وضع يديه على الطاولة، لكن سرعان ما سحب يده اليسرى، وقد تذكّر فجأة ما لا يُنسى:

تلك اليد مشلولة، تحمل في جسدها ذكرى قديمة لإعاقةٍ لم ترحمه، لكنها لم تمنعه أبدًا من أن يكون ما هو عليه اليوم.

أمير "أرض الكوايبس".

الابن البكر للملك "آريس"، وحفيد مؤسس "مملكة الخوف"، الملك الأول "داميان"، أقوى فرسان هذا العالم، والنائب الرسمي، والمساعد الأول للملك الحالي... شقيقه الأصغر.

ربما حرّمته إعاقته من اعتلاء العرش، لكنها لم تنزع منه الهيبة، ولا السُّلطة، ولا حقيقة واحدة لا جدال فيها:

"أنه الرجل الذي لا يُهزم".

- اعتذّر عن تأخري، كان هناك أمر طارئ استدعاني.

هل يمكنكم أن تشرحوا لي بإيجاز ما هو جوهر هذا الاجتماع؟

تبادل الرجال النظرات فيما بينهم، منتظرين أن يتقدّم أحدهم بالكلام.

وأخيرًا، تكلم أكبرهم سنًا وأرفعهم رتبة، بصوتٍ هادئٍ حازم:

- على العكس سمو الأمير، نحن من يجب أن يعتذر إليك.

لقد شغلنا وقتك الثمين، لكن في الحقيقة، هناك بعض الأسئلة التي بدأت تُطرح علينا من قبل بعض اللوردات، والوزراء، بل وحتى من الشعب ذاته.

الجميع يريد أن يعرف: ما مدى خطورة الحرب الوشيكة؟

قطّب الأمير حاجبيه، وأجاب ببرود:

- أيُّ حرب؟

مرة أخرى، سادت القاعة لحظة من التردد، ثم تحدّث رجل آخر قائلاً:

- جيش الظلال، يا سمو الأمير.

يُقال إنهم بدأوا بالتحرك هذه المرة، ومعهم جيش المتمردين، وكذلك جموع من شعب اللقطاع، وأعداد لا يُستهان بها.

ردَّ الأمير بنبرة ساخرة، وقد بدت ملامحه أكثر صلابة:

- أعلم كل تلك المعلومات، لكن لا تُطلقوا عليها "حرب"، هل أنتم خائفون؟

تلعثم الحاضرون، وتبادلوا النظرات المرتبكة، قبل أن يجيب أحدهم بحذر:

- لا، لسنا خائفين، بطبيعة الحال، لكن علينا حماية ممالكنا، وأراضينا،

وشعوبنا.

عندها، مالت نبرة الأمير إلى الصرامة، ونظر إليهم بعينين كالسيف:

- لا تُقلّوا عليّ ما ينبغي فعله، نحن نعلم تمامًا ما نقوم به.

قال أحد الرجال بصوت خافت وهو يطأطئ رأسه:

- نعتذر، سمو الأمير. لا شك في ولائنا وثقتنا بكم. لقد ظلَّ النظام مستقرًّا

منذ أكثر من ثلاثمائة عام، وسيظل كذلك.

ثم صمت لبرهة، قبل أن يستأنف حديثه بتلعثم:

- لكن...

رفع الأمير حاجبيه، وقال بحدّة:

- لكن ماذا؟ هاتِ ما لديك.

أجاب الرجل بتوتر وهو يحاول اختيار كلماته بعناية:

- الجميع يتساءل عن جلاله الملك، أين هو؟ وما دوره في هذه المرحلة؟

بطبيعة الحال، لا أقصد التقليل من شأنه، لكن وجود الملك بين شعبه يمنحهم شعورًا بالثقة والطمأنينة.

وما إن أنهى عبارته المرتبكة، حتى وجَّه إليه الأمير نظرة حادة، تخرق أعماقه، نظرة جمّدت الدماء في العروق.

بدأ العرق يتصبَّب على جبين الرجل، في حين خفض الآخرون أنظارهم، وقد دبَّ التوتر في المجلس.

نهض الأمير من مقعده بعنف، فأصدر الكرسي صوتًا حادًّا، يوحى بتحذيرٍ صريح، وارتجف الرجال الخمسة من حول الطاولة رعبًا.

رد بصوت حاد مرعب:

- جلالة الملك غادر منذ ثلاثة أيام إلى "المكتبة المحرَّمة" لاحتواء الفوضى التي عجزتم أنتم عن احتوائها.

وبدلاً من أن تتداركوا تقصيركم، تجلسون هنا وتحدثون بالهراء؟

تقدّم بخطوات بطيئة نحو الطاولة، ثم تابع بنبرة أشد:

- حسناً، ستسألون أيضاً: وأين كان قبل ذلك؟ ولماذا لا يبقى طويلاً في القصر؟

دعوني أوضِّح: لا يحقُّ لكم سؤال أين ذهب، ولا متى يعود.

إنه منشغل بأمور أكبر من أن تستوعبوها.

وإن أردتم لقاءه، فسأسعى لترتيب ذلك إن عاد.

كما أن الاجتماع السنوي سيُعقد قريباً، وسناقش فيه كل ما يجب من قرارات.

ثم أردف بصوت أكثر حدة وهو يُحدِّق فيهم:

- وإن كانت لديكم أي شكاوى أو أسئلة، فتحدثوا إلى والدي.

أما أنا، فلست متفرغًا لسماع أحاديثكم الفارغة.

أدار ظهره وتابع بنبرة حاسمة:

- والآن، إن كنتم قد انتهيتُم، فسأنصرف.

فوقف الرجال الخمسة دفعة واحدة، وانحنوا احترامًا، يعتذرون وهم مطأطئو الرؤوس.

سار الأمير بخطى ثابتة نحو البوابة، وقبل أن يخرج، توقّف والتفت إليهم قائلاً بنبرة منخفضة لكنها تقطر تهديدًا:

- لا تكررُوا هراءكم عن الملك مجددًا... في المرة القادمة، سَنُقَطِّع رؤوسكم، ونُنتزع قلوب أبنائكم وزوجاتكم.

ثم غادر القاعة.

وفي الرواق الطويل، التقى برجل ضخم الجثة، يحمل عصًا هائلة، يتقدّمها رأس دُب محنّط.

ذلك كان الحارس الشخصي للأمير "فوبوس".

قال "فوبوس" وهو يقترب منه:

- ما الأمر؟ هل عاد الملك؟

أجابه الحارس دون أن يتوقف:

- ثمة أخبار تقول إنه عاد قبل يومين من "المكتبة المحرّمة"، لكنه لم يَعد إلى القصر؛ بل اختفى مجددًا، ولم يُخبر أحدًا إلى أين ذهب.

تنهد الأمير، والغضب يتلأأ في عينيه كشرٍ يتطاير من جمرٍ دفين، ثم قال بنبرة مشوبة بالضيق:

- آه، يا "ديموس" لماذا تستمر في هذه التصرفات الطائشة؟ أما زال لا يدرك أنه أصبح ملكًا؟ أن على عاتقه مسؤوليات أعظم من تلك الأفعال المتهورة التي يُقَدِّم عليها؟ هل يعلم والدي بذلك؟

- لا، ليس بعدُ، يا سمو الأمير.

- حسنا... ألا تملك أي خبر عن وجهته؟ إلى أين ذهب؟

ساد صمت قصير، ثم قال الحارس بصوتٍ متردد:

- لست متأكدًا تمامًا، لكنني أظن أنه يبحث عن فريسته.

قطب الأمير حاجبيه:

- تقصد تلك الفتاة، الإنسية التي اختطفها؟

- نعم، على حد علمي، لكنها اختفت فجأة.

زَمَّ الأمير شفثيه، وقد بدا عليه القلق والتفكير العميق، ثم قال:

- هل أنت واثق من هذا؟ غريب... "ديموس" لا يدع أحدًا يفلت من قبضته،

هل يُعقل أنها نَجَتْ وهربت؟!

أجاب الحارس بهدوء:

- في كل الأحوال، لا يمكنها أن تذهب بعيدًا.

لن تستطيع الخروج من القصر، ولا من تلك الجزيرة المعزولة.

أشار الأمير بيده:

- حسناً، انطلق الآن، وبلغ رجال "الجنون" بأن يجتمعوا في قصري الخاص فوراً.

نظر إليه الحارس بدهشة من الطلب، لكنه لم يعترض، ولم يطرح أي سؤال، بل انحنى احتراماً، وانصرف على الفور.

وفي قاعة الاجتماعات، كان الرجال الخمسة لا يزالون جالسين في أماكنهم، والقلق يعتصرهم.

قال أحدهم بنبرة تجمع بين الحيرة والاستياء:

- لا أفهم... لقد أصبح ملكاً!

أليس من المفترض أن يتخلى عن تلك المهمة العبثية؟

لماذا لا يزال حتى الآن منشغلاً باختطاف المؤلفين البشر التافهين؟

قال أحدهم بصوت خافت وقد ارتسم الخوف على وجهه:

- اخفض صوتك أيها الأحمق، أتريد أن يفصل رأسك عن جسدك؟

فأجابه ثالثهم بهدوء واتزان:

- لا تنسَ أننا، منذ قرون، نعتمد على البشر في تشييد عوالمنا وبنائها.

رد الآخر بنبرة حازمة:

- كان ذلك في الماضي، أما الآن، فقد أصبح كل شيء أكثر استقراراً. بات

بإمكاننا توسيع عوالمنا بأنفسنا، لا تنسَ أن أرض "العقول" اليوم تملك نظاماً متكاملًا، وخططاً مدروسة نعتمد عليها.

ضحك أحدهم ساخرًا، وقال:

- "بأنفسنا"؟ لا تُضحكني، لا تقارن نفسك بذلك الشاب المجنون! إنه الوحيد في عالمنا الذي يمتلك موهبة الكتابة، تلك الهبة التي وُلِدَ بها ولم تُمَحَ لنا، هو مَنْ أسَّس، إلى جانب شقيقه ووالده، العديد من الممالك والأنظمة. فوق ذلك، يملك قوى خاصة ومميزة تُفوق تلك التي يمتلكها أفراد عائلته، ولهذا وضعه والده مبكرًا على العرش. ومع ذلك، يبدو أنه لا يكثر كثيرًا، فاهتماماته في مكانٍ آخر، بعيدًا عن شؤوننا.

صرخ أحدهم وقد ارتعد صوته من الخوف:

- هل جُننت؟ كيف تجرؤ على وصف الملك بالجنون؟ يا إلهي! أنتم ستسببون في جعل هذه الليلة آخر ليلة نرى فيها رؤوسنا على أجسادنا! قال آخر بصوت خافٍ وهو يلتفت حوله بقلق:

- دعونا نخرج من هنا... نحن داخل قصرهم ونتحدث بهذه الطريقة عن الملك؟! أقسم أن هذه الجماجم المثبتة على الجدران قادرة على سماعنا. وبعد أن خيم التوتر على الجميع، نهض الرجال على عجل، وقرروا مغادرة القاعة دون أن يلتفتوا وراءهم.



30 أكتوبر

"ليلة صيد المؤلفين"

أسمع ضجيجًا غير واضح يتخلله صفير خافت في أذنيّ. لم أكن قادرة بعدُ على فتح عينيّ. لحظة، ما آخر ما أتذكره؟ نعم... لقد قتلت ذلك المعتوه. كنت مستلقية فوق بحيرة من دمائه، وجثته إلى جانبي، ثم... لا أعلم ما الذي حدث بعد ذلك، هل ابتلعتني دماؤه؟ أم غبت عن الوعي في أعماقها؟ كل شيء ضبابيُّ.

شيئًا فشيئًا، بدأ الصوت يتضح، وبدأت حواسي تعود إليّ، ثم فتحت عينيّ فجأة مع شهقة قوية وكأنني خرجت من كابوس إلى كابوس آخر. الأصوات أصبحت واضحة، الرؤية جلية.

أول ما فعلته هو أنني تأملت نفسي، فوجدت ملابسي ما زالت ملوثة بالدماء، وذاك المجنون لا يزال أثره عاليًا على جسدي المتألم من ضرباته. إذًا، كل ما حدث كان حقيقيًا، الواقع ينتقل معي.

لكن أين أنا الآن؟

الليل يشود المكان، والسماء فوق رأسي متلألئة بالنجوم، لكنها ليست كما أعرفها، لونها غريب، تُشعرك وكأن السماء أقرب إلى الأرض من أي وقت مضى.

وقفت في ساحة واسعة، أو ربما شارع مغطى بالصخور السوداء والرمال الداكنة، الجو بارد بشكلٍ مرعب، تتناثر حولي أشجار غريبة الشكل، لا تبدو طبيعية، حاولت التمعن فيها، لكن صوتًا مفاجئًا قاطعني...

صوت أفواج من الناس يركضون!

نهضت واقفة برعب، أٌحدّق في وجوههم، علامات الخوف والذعر والألم
ترتسم عليها بوضوح! بعضهم كان جريحًا، بعضهم ملابسه ممزقة، وآخرون لا
يزالون مكبّلين بسلاسل في أيديهم أو أعناقهم، يبدو قد خرجوا لتوهّم من
جحيم التعذيب.

اقترب الجمع الهارب، واندمجت وسطهم. اصطدم البعض بي، كدت أن
أسقط، لكنني تماسكت.

كم مرة عليّ أن أُصدم حتى أعتاد هذه الكوابيس؟

- تحرّكي أيتها الشابة، عليك أن تركضي!

جاءني الصوت من امرأة مسنّة، في السبعين من عمرها تقريبًا. وما إن
التقت عيني بعينيها حتى انتفض جسدي!

إنها هي... الكاتبة "سينثيا المور"!

لقد اختفت منذ أربع سنوات!

كاتبة رعب وجريمة، قضت عمرها في كتابة نحو خمسون عملاً، وها أنا أراها
هنا، أمامي، ممسكةً بذراعي، تسحبني معها.

قطعت صمتي وهي تصرخ:

- لا وقت للتفكير يا "ماريانا"، إن لم تخنّي ذاكرتي، فذلك هو اسمك.

اركضي الآن، بسرعة! لا وقت لدينا، وإلا ستموتين.

ركضت بأقصى ما أوتيت من قوة، متشبثةً بذراع السيدة "سينثيا"، التي
كانت تلهث بجواري، لكنّ عيناها بقيتا متقدتين، كما لو أن هذا الجحيم مألوف
لديها.

- ما الذي يحدث؟

صرختُ بصوت مرتجف ممزوج بالذعر.

أجابتنى بصوت أعلى، دون أن تلتفت:

- إنها ليلة الصيد.

- صيد ماذا؟! سألتها بصوت يائس، يكاد يخنقه الرعب.

ابتسمتُ بسخريّة مريرة، وقالت وهي تواصل الركض:

- إن لم يكن ذلك واضحًا لكِ، يا آنستي الجميلة، فسأوضحه لكِ الآن: إنهم يصيدوننا... نحن المؤلفين.

- ومن هؤلاء الذين يقومون بذلك...؟

لكنني لم أكمل سؤالِي؛ إذ انقطع نَفْسي، وجحظتُ عيناَي حين رأيتهم...

فوجُ من الكائنات. للوهلة الأولى حسبتهم خيولًا، لكنهم لم يكونوا كذلك. كانت أجسادهم مشوّهة، ضخمة بشكلٍ مُريع، لهم أسنان بارزة كالسكاكين، وأرجل عريضة تُحدث ارتجاجًا في الأرض مع كل خطوة.

وعلى ظهورهم، امتطى قُرسان... لا، بل كانوا أشبه بالشياطين أو المسوخ، رجال أو جنود بملامح مرعبة، يرتدون دروعًا سوداء، وخوذات على هيئة جماجم، وأجسادهم أكبر بكثير من أجساد البشر.

كل واحد منهم كان يحمل في يده سلسلة حديدية ضخمة، تتقد نارًا، أو رمحًا ذا رأس مُسنّن، وبعضهم يحمل رؤوس دبابيس عملاقة تَقْطر دُمُويّة ورعْبًا.

كانوا يندفعون نحونا بسرعة جنونية، يصرخون ويقهقهون بضحكات هستيرية، تضرب أعصابي كالسياط.

تابَعْنَا الركض وسط الفوضى والدماء.

حولنا كان الجحيم قد انفجر.

رأيت رؤوسًا تُطَيَّر من الأجساد فتتدحرج أمامي، وآخرين يُضربون ضربات قاتلة تتحطم بها جماجمهم، ومنهم مَن دُهِس تحت أقدام تلك الوحوش المسعورة، أجسادهم تتحطم كالعظام الهشة.

لم يكن هناك منطق أو عدالة، كان المؤلفون يُذبحون فقط لأنهم كتبوا الرعب، لأنهم نسجوا كوابيس في صفحات كتبهم، تُحاسبهم تلك الكائنات عليها وكأنها جرائم حقيقية!

جرائم لم تُرتكب يومًا، لكنها هنا تُعامل كحقائق دامغة، والقصاص منها وحشي وبلا رحمة.

وصلنا إلى ساحة ضيقة، محاصرة بين جبال سوداء شاهقة. كنا قلة فقط، الذين نجوا حتى هذه اللحظة. لكن المسوخ أحاطوا بنا من كل الجهات.

أحاول أن أتنفس، ألهث، قلبي ينبض بعنف، وصدري يرتجف وكأنه سيتهشم من فرط الإجهاد.

لا أعلم كم ركضتُ؛ ساعات؟ أيامًا؟ أسابيع؟

الوقت هنا لا شكل له ولا معنًى، كل شيء عالق في دائرة لا تنتهي، كأننا عالقون في كابوس أبدي يرفض أن يستيقظ.

ثم أُلقيت سلاسل سميكة ملتهبة، كأنها خرجت من قاع بحرٍ من الجحيم، تنهال علينا مثل فرائس في شبكة صياد ماهر.

تعلَّقتُ ببعض أقدامنا، التفتُّ حول أذرع الآخرين، شدَّت أجسادهم للخلف بعنف وهم يصرخون، وكأنهم لا يُصادون كبشر، بل ككائنات بلا قيمة.

تم سُحب الأول من قدمه، وهو يصرخ صرخة ألم حادَّة، تخرق الهواء نداء استغاثة لا يُجاب.

أما الآخر، فقد أمسكوا به من عنقه مباشرة، دون رحمة، لا يرون فيه سوى جسد يُجَرُّ نحو مصيره.

كان يتم سحبهم بقسوة لا تُعرف الشفقة، كما تُسحب الحيوانات المذعورة، أو العبيد في زمن لا ينتمي لهذه الأرض.

أما أنا، فكنت واقفة هناك، أو بالأحرى أحاول أن أظل واقفة، بينما قدمي ترتجفان، بالكاد تحملان جسدي المنهك.

كانت السيدة "سينثيا" لا تزال بجواري، شامخة رغم الذعر، تُمسك بيدي المرتجفة. نظرت إليّ نظرة لا تُنسى، نظرة ممتزجة بالخوف والأسى والرعب، لكنها أيضًا كانت مُشبعة بقدر من الشجاعة العميقة، تلك التي لا يملكها إلا من عاش ألف كابوس ونجا منها على الورق.

صدقْتُ وقتها أن كاتب أدب الرعب، لا بد أن يصير شجاعًا؛ لأن المخاوف التي يكتبها تُصبح، مع الوقت، جزءًا من جلده.

قالت لي بصوت خافت، لكن ثابت:

- سيكون ذلك سريعًا، لا تقلقي.

فهمت ما تعنيه، كانت تقصد طريقة الموت.

لم تمضِ ثوانٍ، حتى سمعت صوت السلسلة، تقطع الهواء كصفعة، ثم تلتفُّ فجأة حول عنق "سينثيا"!

وفي لحظة، طار جسدها بعيدًا، تجرُّه السلسلة المشتعلة مثل روح تُنتزع من الجسد.

كنت متأكدة أنها ماتت فورًا على الأرجح، بفعل كسر في العنق.

صمتُ ثقيل خيم بعد الصدمة.

أو لعلني أصبحت غير قادرة على الشعور، بعد أن تجاوزت حد البكاء.
لم أَعُدْ أذرف الدموع، لا لأنني قوية؛ بل لأن الدموع نفدت.
كنت واقفة أنتظر.

أين ستكون سلسلتي؟ في قدمي؟ ذراعي؟ أم عنقي؟
وأين سأسحب؟ وإلى أي جحيم يُريدون اقتيادي؟
تسلّلتُ إلى نفسي حالة غريبة من الاستسلام، نسيت أنني حية.
وفجأة، قاطع ذلك السكون صوتٌ صارخ:

- انتظروا!

جاء الصوت قبل لحظة من وصول سلسلتي.
استدرت ببطء، لا أرى مَنْ المتكلم؟ لكنني رأيت شيئاً آخر.
رجل يرتدي عباءة سوداء يتخللها خيوط فضية، خوذته تحمل تصميمًا غريبًا،
يشبه جمجمة لامعة تلتهم الضوء.
سلاحه مميز... والمخلوق الذي يمتطيه لم يكن حصانًا مشوهًا كغيره من
الجنود، بل كان ضبعًا ضخماً، وحشيًا، تفوح منه رائحة الموت، ويقطر لعابه
يتلذذ بفريسته قبل التهامها.

حين رأيته، علمت دون شك... "هذا هو القائد".
كانت الساحة قد خلت من الجميع.
لم يبقَ فيها غيري، واقفة وحدي في المنتصف، دمي يغطي ملابسي
ووجهي، كأنني تهمة قائمة بذاتها.
أنا دليل الجريمة.

أنا المشهد الأخير من المسرحية.

بدأ القائد يقترب، بخطوات ثقيلة، ممتطيًا وحشه المرعب، حتى وصل إليّ...

كان عليّ أن أرفع رأسي عاليًا، مستقيمًا، كي أتمكن من رؤيته، ذاك الرجل الذي كان يمتطي ذلك المخلوق الضخم الهائل. وحين ترَجَّل عنه، بدأ يخطو نحوي بخطوات بطيئة، لكنها ثقيلة، حتى وصل إليّ.

تأملني بعيون خالية من البؤبؤ، بيضاء تمامًا، وكأنها نُزعت منها الروح والبصر.

كانت على وجهه ندبة عميقة، تمتد مثل تاريخ محفور على جلده. مدَّ يده نحو وجهي، قبض على فكِّي بين أصابعه، وأخذ يُقلب وجهي يمينًا ويسارًا.

قال بنبرة باردة، تُخفي خلفها شيئًا لا يُفسَّر:

- عجيب... لم أرك من قبل.

لا في هذه الأرض، ولا في "أرض الخلاص".

من أين جئت، أيتها الجميلة؟

وما سرُّ هذه الدماء التي تُلطخ ثيابكِ؟

كما أن جسدكِ يخلو من أي علامات تعذيب، هذا أمر نادر هنا!

صمت قليلًا، ثم وضع يده على كتفي، وأدار جسدي بعنف، كمن يفتِّش عن شيء مخفي. رفع شعري بتلك القسوة المعتادة منهم، وبدأ يتفحَّص عُنقي بعناية.

وبعد لحظات، أعادني إلى وضعيتي الأولى، وقال بنبرة مليئة بالرَّيبة:

- لا يوجد أيُّ ختم على رقبتها! من أين جاءت هذه الفتاة؟
وجَّه سؤاله لجنوده الواقفين، فتقدَّم أحدهم وقال ساخراً:
- لعلها نزلت من السماء.
وانفجر الجميع في ضحكٍ مستفزٍ، لقد وجدوا في جهلي أو ضعفي متعة لا
توصف.

- لئَلَّه بها إِدَّا، ثم نرميها في ساحة المهمَّلات.
قالها أحدهم باستهزاء مقيت.
ردَّ آخر وقد أخذ يتأملني بنظرة شهوانية منحرفة:
- أنت مجنون؟ انظرُ إلى جمالها، كيف يُلقى بمثل هذا الجمال في ساحة
النفايات؟ أعطوني إياها، وسأتكفَّل بها بنفسي.
تواصل ضحكهم المقزز من حولي، بينما كنت أرتجف من الداخل.
قلبي يتآكل من الرعب، عقلي لم يتوقف عن نحت أسوأ السيناريوهات،
أتصور كل ما قد يحدث، كل ما لا أستطيع تحمُّله.
كنت أبحث بعيني عن أي شيء، أي سلاح؛ ليس لأقتلهم، بل لأقتل نفسي
قبل أن تصل إليَّ أيديهم القذرة.

دَوَّى صوت القائد:

- كفى ضحكًا، فورًا.

قالها بصرامة حادة، ثم تابع وهو يخطو حولي، يُحدِّق بي بنظرات تحليلية:
- لا تسلية هذا اليوم. أنتم تعلمون أننا نملك مهمًّا أهم.
انطلقت أصوات التذمر من الجنود، يغمرها خيبة الأمل...

- "ويليام"...

أجل، أنا أعرف "ويليام".

نطقْتُ أخيرًا، بعد صمتٍ طويل، بكلماتٍ كنت أظنها طوق نجاتي الوحيد. لم يكن لديَّ خيار آخر للفرار من الجحيم الذي قد يلتهمني بعد دقائق.

نظروا إليَّ بدهشة، صمتوا لحظة قصيرة، ثم تقدّم قائدهم ناحيتي بخطوات بطيئة، وقال بصوت عميق:

- ماذا قلتِ يا آنسة؟

جمعتُ شتات صوتي المرتجف، وأجبت:

- "ويليام"... قائدكم، أو لا أعلم مَنْ يكون على وجه الدقة، هو مَنْ أحضرني إلى هنا، أريد مقابلته.

ساد صمت ثقيل للحظات، للحظةٍ خُيِّل إليَّ أنني نجوت، أن كلماتي قد أحدثت أثرًا، لكن الوهم تلاشى بسرعة، حين انفجروا ضاحكين من جديد - هذه المرّة بما فيهم القائد نفسه وكأنني أصبحت نكتة.

قال أحدهم ساخرًا:

- "ويليام"؟ لم نسمع بهذا الاسم من قبل، أول مرة يصل إلى آذاننا في هذا المكان!

أضاف القائد بنبرة تنمُّ عن خبث:

- لا بأس، سنحقّق حلمك. ستقابلين شخصًا مهمًّا بعد دقائق، لكنه ليس "ويليام"، بل هو "القصاص".

انفجروا ضاحكين مرة أخرى، ضحكات تَقطر منها السادية، وهم لا يرون فيَّ إلا متعة لحظية.

أمسك أحدهم بذراعي بعنف، وقادني نحو ذلك المخلوق الذي يمتطيه القائد.
قيدني بالسلاسل، ثم صعد على ظهر الوحش الكريه، واستدار إليّ، وأنا ما
زلت على الأرض، وكأنه يقف على قمة جبلٍ وأنا عند سفحه.

قال بصوته القاسي:

- لقد كنت متساهلاً معك أكثر مما ينبغي... لذا، عليك أن تكوني سريعة. إن
تباطأت، سيتولى "شيل" جرّك بنفسه، وهو لا يحب الانتظار. وإذا اضطر إلى
ذلك، فستسقطين تحته، وسيدهسك وستتهشم عظامك، وربما تنفجر عيناك
من محجرتيهما.

ثم صرخ:

- هيا بنا!

بدأ بالسير بخطوات سريعة، ووجدت نفسي أركض خلفه، بكل ما تبقى فيّ
من قوة، بينما قلبي يكاد يقفز من مكانه.

كنت أركض والخوف يعصف بي، مزيجٌ غريب من الرعب والجمود يسري
في أوصالي.

كل مرة كنت أشعر فيها باقتراب الموت، كنت أنجو بطريقة ما، لكن هذه
المرّة الأمر مختلف.

هذه المرّة شعرت بأن النهاية قد اقتربت.

وتمنيت ذلك بصدق.

نعم، كنت أتمنى أن ينتهي كل شيء، أن يُغلق هذا الباب الجحيمي إلى الأبد.

لقد أرهقني هذا العذاب، مرت في ذهني ذكريات حياتي السابقة، مثل فيلم
زائف يُعرض بسرعة.

حياة لم تكن صادقة أبدًا، لا اسم حقيقي، ولا أم حقيقية، ولا هوية. حتى
موهبتني في الكتابة، ربما لم تكن لي.

مَن أنا؟ "ماريانا" التي تعشق الكتابة والقراءة؟ أم مجرد قناع لشيء أعمق؟
شيء ضائع؟

لكن... هل أندم؟

لا.

رغم أن الكتابة هي التي قادتني إلى هذا الجنون، إلى الرعب، إلى هذه
الكوابيس التي أعيشها الآن... إلا أنني لست نادمة، سأموت على أي حال،
كاتبة كنتُ أو لا.

- وصلنا.

صرخ القائد بقوة.

رفعت رأسي بدهشة، لأرى أمامي "بوابة خشبية عملاقة"، متربعة بين
جبلين منحوتين على شكل جماجم بشرية ضخمة.

انفتح الباب ببطء وثقل، محدثًا صريرًا مرعبًا، يفتح فمًا لابتلاع الداخلين.

ظهر من خلفه حارسان عملاقان، يقفان بثبات.

دخلنا البوابة.

وما إن خطونا الداخل، حتى دَوَّى في أذني صوت الجموع! صراخ، وهتافات،
وصياح غريب.

رأيتهم مئات، بل آلافًا من الكائنات، تتنوع أشكالهم وصفاتهم:

بعضهم بشر، بعضهم مسوخ، آخرون كائنات هجينة، أو مخلوقات لا تنتمي
لأي منطق معروف.

وحوش تسير على قدمين، ووجوه لا يُمكن فَهْم تكوينها، وأجساد تحاكي
الرعب بحد ذاته.

كل شيء هنا... كل شيء غرائبي، مرّوع، صادم، وغير مفسّر!

كأنني دخلت عالمًا من الكوابيس، عالمًا لا عودة منه.

سيرنا في ممّرٍ طويل، مظلم، مخصّص لسحب الضحايا نحو مصيرهم
المحتوم. من حولنا، كانت الجموع تهتف بجنونٍ وحماسة، تصرخ من الجانبين،
تنتظر عرضًا دمويًا طال انتظاره.

رفعت بصري إلى الأمام، وشيئًا فشيئًا تبين لي المشهد بأكمله...

إنها "ساحة إعدام"!

تعددت وسائل الموت أمامي، وتنوعت المنصات التي خُصصت لتكون نهاية
لكل من جُلب إلى هذا المكان.

منصة مخصّصة لقطع الرؤوس، تتلأأ فوقها نصال حادة مشحودة بوحشية.

وأخرى تحتوي على إناءٍ أسود ضخم، يتصاعد منه بخار كثيف حارق، رائحته
توحي بما لا يدعو للشك: ماء يغلي، يكفي لأن يُذيب لحم جسدك قبل أن ينهار
عظمك.

أما في الجهة الأخرى، فثمّة ضريح للحرق، تتأجج تحته النيران.

ثم رأيت آلة غريبة، مرعبة في تصميمها، لم أكن بحاجة لتفسيرها؛ هي آلة
تمزيق، تُمزق الجسد البشري قطعةً قطعة، تبدأ بالأطراف، ببطءٍ وسادية.

منصة أخرى كانت محاطة بأقفاص، بداخلها وحوش ضارية، أنيابها تقطر
جوعًا، كانوا يطلقون الكاتب في المنتصف، ثم يفتحون الأقفاص، ويتركون تلك
الكائنات تنهش لحمه دون رحمة.

لم أستطع أن أحصي عدد منصات الموت، هذا فقط ما رأيته عيناى، لكن بدا لي أن أشكال العذاب هنا لا حصر لها.

في تلك اللحظة، راودني شعور مرير:

لطالما اعتقدتُ أن حياتي كانت بائسة، لكن لم أتخيل أن يؤسها سيبلغ حد أن أُقتل في عالمٍ مجهول، يُنفذ فيَّ حُكم إعدامٍ وحشي، فقط لأنني... "كاتبة روايات رعب"!

دُفعت بقوة لأقع أرضًا، تمامًا كما حدث مع الآخرين، أولئك الذين نجوا من مرحلة "الصيد"؛ ليتم اقتيادهم الآن إلى مرحلة "الإعدام".

أُحدّق في وجوه زملائي الضحايا، وجوه شاحبة، ترتجف أجسادهم بعنف، غير قادرين على الوقوف أو التوازن، بعضهم يبكون، يتوسلون، وآخرون صامتون، مشلولو الفهم، غارقون في صدمة عميقة، عقولهم رفضت التصديق.

رأيت أحدهم يتبول على نفسه أكثر من مرة، فقدانه للسيطرة لم يكن إلا دليلاً على ما يعيشه جسده من رعبٍ لا يُحتمل.

كنا جميعًا ننتظر، ننتظر أن نستيقظ من هذا الكابوس.

ثم انطلق صوت جهوريٍّ يخترق الأجواء، يتردد صداه في المكان كله:

- يا شعب الخوف.

إنَّ اليوم من الأيام العظيمة في تاريخ مملكتنا، في أرضنا، في كوابيسنا، في حاضرتنا وماضينا، وفي مستقبلنا أيضًا.

الليلة... ننتقم.

نتنقم لأبناء شعبنا من هذا الجنس التافه من الإنسان، ذاك الذي ظنَّ أن
أرواح العوالم لعبٌ بين يديه.

لطالما كان الإنسان عدونا الأول.

يظن، في غروره وغبائه، أنه هو مَنْ خلقنا، وأنه السيد المطلق.

لكنهم لا يعلمون.

كلُّ خوف يسري في دمائهم، كل كابوس يعصر أرواحهم، كل رعشة تسري
في أجسادهم؛ كلها منّا، من هذا العالم، من "مملكة الرعب".

نحن مَنْ يُمسيك بزمام رعبهم، من يتغلغل في كوابيسهم، من ينهش هدوء
نومهم، وبحوِّله إلى صرخات في الظلام.

نحن لا نخشى أحداً، لا نخاف شيئاً.

أتدرون لماذا؟

مَنْ نحن؟!

فارتفعت الهتافات كالرعد، بصوتٍ واحدٍ موحِّدٍ يهزُّ الجبال:

- لأننا الخوف.

تعالَت الصرخات من الحشود، صرخات لا تشبه البشر، صرخات حماسة
مَرْضِيَّة، وتقديس مريض لكل ما هو دموي ومرعب.

لم نكن نملك الوقت لنلتقط أنفاسنا أو نستوعب ما يحدث.

بدأ الحراس يسحبون الكُتَّاب واحداً تلو الآخر، يورِّعونهم كقطع شطرنج
دامية على منصَّات الإعدام المتعددة.

أغمضتُ عيني، وشعرت بقلبي ينبض بحرارةٍ رجاءٍ خافت.

دعوت الله من أعماق صدري المرتجف أن تكون نهايتي في منصّة قَطْع الرأس.

نعم، إنها الأسرع، الأكثر رحمة وَسَط هذا الجنون.
لا أريد أن أُسلَخ حيّة، أو أرمى لوحوشٍ جائعة فقط، ضربةً واحدة تُنهي كل شيء.

سمعت القائد يصرخ، بنبرة ساخرة:
- الجميلة ستذهب إلى منصّة قَطْع الرؤوس؛ لتقابل القصّاص، لقد وعدتها بذلك سابقًا.

ضحك الجميع، وعلت أصوات الاستهزاء من حولي، أما أنا فابتسمتُ داخليًا.
شعرت ولأول مرة بأنّ دعائي قد استُجيب.

قادوني نحو المنصّة. كنت أمشي، أو أُسحب، لا أعلم.
كل شيء في داخلي كان ساكنًا. فراغٌ مريب، وسكون غريب.
هل انتهى الخوف؟ هل استُهلكت ذراته داخلي حتى لم يُعد له مكان؟
بدأ تنفيذ أحكام الإعدام حولي، لكنني لم أجروُ على النظر.
كانت الصرخات تتعالى، صرخات ألمٍ حقيقية، بشرية، تخرق الروح.
أغمضتُ عيني بشدة، ثم فتحتهما، أبحث عن أنفاس، عن هواء.
كلما حاولتُ التنفّس، ازداد اختناقِي.

التهافت من الجماهير كانت أشبه بطقوس عبادة شيطانية، تنبع من ظُلمة النفس البشرية.

أحاول خداع نفسي، أقول إنني لو متُّ الآن، ربما أستيقظ في سريري، ربما
تعود الحياة إلى طبيعتها، ربما... تكون النهاية مجرد بوابة عودة.

لا بأس، سأقنع نفسي بذلك حتى يطير رأسي.

لا بأس بالخيال، إن كان هو وسيلتي الأخيرة للهرب.

ثم تساءلت...

هل سأشعر بلحظة قَطْع الرأس؟

هل سأحسُّ بحدِّ السيف؟

أم أن كل شيء سينتهي في غمضةٍ وعي؟

لا بد أن يكون سريعًا كما يقولون.

واحدًا تلو الآخر، مات كلُّ مَنْ جاء من عالمي، كل مؤلف رعب كان ذنبه

الوحيد أنه كتب قصة، أو قتل شخصية ورقية.

جاء دوري.

أمسكني الحارس، قبض على جسدي بوحشيَّة جعلتني أصرخ من الداخل.

ضغط على كتفيَّ بقوة حتى شعرت وكأنَّ عظامي ستتفكَّك.

أجبرني على أن أجتو على ركبتيَّ، رأسي منخفض، أنتظر السيف.

سكن كل شيء فجأة.

صمتٌ مرَّوع.

هل سكنت الجموع؟

أم أنَّ سمعي خذلني؟

أم أنني عبَّرت إلى ما بعد الخوف؟

ربما... هذا هو الرعب الذي أرادوا لنا أن نصل إليه.

الآن، وبعد كل شيء أعترف.

أنا آسفة، يا أبي.

ربما كنت على حقّ حين قلت إن نهاية كاتب الرعب لن تكون عادية.

سقطت دمعة من عيني، من عيني اليمنى تحديدًا.

ابتسمتُ لأنّ أُمّي قالت لي ذات يوم: "إذا سالت الدمعات من عينك اليمنى

دون اليسرى، فاعلمي أن هناك أملًا لا يزال ينبض في داخلِك".

أمل؟!

أيُّ أملٍ هذا وأنا على وشك أن أفقد رأسي؟!

لكنني تمسّكت به.

وُضع رأسي فوق الخشبة النحيلة المخصّصة لقطع الرؤوس. سكنت

الأصوات من حولي، وتلاشت كل الهتافات والصرخات.

لم أجد أسمع شيئًا سوى همسات الرياح الباردة تُلامس عنقي المكشوف،

تودّعني بلطفٍ ما قبل النهاية.

سيُحسم الأمر عمّا قريب، لا بأس.

سأعود إلى حياتي التي أعرفها، سأستيقظ في سريري، في غرفتي

الصغيرة، حيث ينتظرني أبي وأُمّي وأخي.

ربما... لا بأس بقليل من الخيال، قبل أن يُفصل رأسي عن جسدي.

أغمضتُ عينيّ في هدوءٍ تام، وكأنني أسلم نفسي لما هو قادم.

لكن...

- تَوَقَّفُوا!

"هناك أشياء في هذا الكون لا يمكن تفسيرها أو شرحها، من أين أتت وكيف أتت؟ المهم أنها أتت مثل "مملكة الخوف" وأراضيها الثماني...".



"عزيزي القارئ، هذا العالم سيحمل أسوأ الشخصيات والرعب والظلام
والشر، سيحمل كل شيء مخيف ومظلم وغريب وقاتم. هذا العالم المريض
يريدك فقط أن تصدق خيال الكاتب".

ماريا الحيسي



الفصل الخامس

مملكة الخوف والرعب



تحكي أقلام الكُتَّاب قصةً ضاربةً في عمق الزمن، أو لعلها أقدم من الزمن ذاته. كان هناك كائن لا يُدرى أهو إنسان، أم ساحر، أم مخلوق من عالم آخر، لا أحد يعرف حقيقته على وجه الدقة. لم يُعرف له اسم، وربما كان له اسم ثم طُمِس، ظل مجهولاً، منكراً، منبوءاً، يوصف بالجنون، ولم يُسجَّل التاريخ اسمه حتى يومنا هذا، ولا يزال البحث جارياً عنه.

كان ذلك الكائن يمتلك خيالاً واسعاً ومرعباً، وكان ذنبه الوحيد أنه تجرأ على أن يتخيل! اتخذ من الحبر والورق سلاحاً ومَعْبَراً، فراح يسجِّل على صفحاتهما عالمه المتخيَّل، ويخطُّ ما جال في خاطره من رؤى وأفكار. ومع مرور الأيام، أَلَّفَ كتباً كثيرة، كتباً وصفتها العقول الجافة بأنها كتبٌ محرَّمة، وأطلقوا عليه لقب: الملعون والساحر، فقط لأنه كتب ما عجزوا عن تصويره.

وكأنه شيطان... كيف لإنسان أن يكتب كلمات يغمرها العنف والرعب والسواد؟ لقد حُكم عليه بالموت، لكنه فَرَّ هاربًا قبل تنفيذ الحُكم، حاملًا معه كنوزه التي لم تكن دَهَبًا ولا مجوهرات، بل كانت كتبه. كان يعلم أنه ميت لا محالة، لكنه أراد أن يُتَمَّ شيئًا قبل النهاية.

اتَّجه إلى أرضٍ بعيدة تحكي عنها الأساطير، أرضٍ قيل إنها تقع تحت أعماق البحار، أو ربما تحت الأراضي السبعة. في تلك الأرض، قيل إن هناك شجرةً عجيبة تُحقق أمنية واحدة فقط، مقابل ثمن مجهول قد يكون أي شيء، حتى روحك!

ولما بلغ تلك الشجرة، وجد فجوةً في جذعها، ففتح كتبه وألقى بها كلها في جوفها، ثم قال بصوتٍ خافت يشبه الدعاء أو الهذيان:

- أرجوك... لتحوّل كل الأسطر، كل الكلمات، كل الحروف إلى واقع! واقعٍ حقيقيٍّ أكثر مني. واقعٍ مرعب، مجنون، خارق للعقل والمنطق، لكنه واقع. يجب على البشر الحمقى أن يصدّقوا عوالم وخيال المؤلفين! أرجوك يا إلهي، اجعله حقيقة، حقيقةً تولد منها أشرس وأرعب المخلوقات في هذا الكون وما بعده. اجعله حقيقيًّا، تمامًا كما سيكون موتي كذلك.

ويُروى بعد ذلك أن الرجل اختفى. منهم مَن يقول إنه قُتل أو أُعدم، ومنهم مَن يرى أنه جُنَّ من فرط الكتابة فانتحر، وآخرون يزعمون أن الشجرة ابتلعه، ثم لفظت خياله... ولذلك، فإن كل ما خطّه على الورق تحوّل إلى واقع.

لكنها حقيقة لا تُرى لجميع البشر... يُقال إن فجوةً أو ثقبًا قد تَشكّل في نسيج الكون، ومن خلاله وُلد عالمٌ جديد، كل كلمة يكتبها مؤلف، كل فكرة يتخيلها كاتب، تصبح حقيقةً فيه.

وبعد مرور مئات السنين، وُلد فتى يُدعى "داميان"، في ذلك العالم الذي صار فوضى مخيفة، عالم يسكنه الرعب والعتمة والوحدة. لم يكن هناك قانون ولا نظام، بل كان كل شيء من صنع خيال المؤلف الذي ابتلعه الشجرة.

لكن "داميان"، بحلمه الواسع وخياله المختلف، تساءل: كيف يمكنني أن أبتلع هذه الفوضى؟ كيف أصنع من الجنون نظامًا؟

لقد أراد "داميان" أن يكون هو الذي يخلق النظام من رحم الخراب، وأن يُخضع هذا العالم لقانونٍ واحد، يُوحّد الفوضى تحت رايةٍ من صنعه.

في عالمٍ كانت فيه المخلوقات والوحوش تفترس بعضها البعض، وتقتل دون رحمة، كان الخراب يزحف من كل اتجاه، والعالم يوشك على الانهيار والانقراض. في خضم هذه الفوضى، كان لا بد من أن يتحرك "داميان".

"داميان"، ذلك الشاب الشجاع، الذكي، الطّموح، القوي، ذو الروح المتقدمة، كان يمتلك قوى خارقة لا يمكن تفسيرها. ويُقال إن صانعه أو مؤلفه لم يكن بشراً، بل شيطانًا تجسّد في الكلمات! لا شيء مؤكد في هذه الرواية، غير أن "داميان"، مدفوعًا بإرادة لا تلين، قرر أن يوحّد مَنْ تبقّى من المخلوقات تحت راية نظام واحد.

بدأ يجمع المؤيدين، وشيئًا فشيئًا أصبح قائدهم، ووحّد صفوفهم، وخاض مئات المعارك والفتوحات ليوسّع هذا العالم المتفكك. حتى غدا حاكمًا عليه، وتوجّج مَلِكًا.

تزوج "داميان"، ورزق بثلاثة أبناء: الأكبر "موروس"، والأوسط "شارون"، والأصغر "آريس".

ومرت سنوات طويلة من الاستقرار، لكن التهديد عاد من جديد، فقد بات العالم مهددًا بالانقراض مرة أخرى، ليس بسبب الحرب، بل بسبب عجزهم

عن توسيعه. لم يعرفوا كيف يُوسع هذا الكون المخلوق من خيال.

عندها تقدم الابن الأصغر، الأمير "آريس"، باقتراحٍ إلى والده: "يمكننا توسيع العالم، تمامًا كما فعل المؤسس، عبر الكتابة... فقط من خلال عقول المؤلفين".

لكن "داميان" لم يكن واثقًا. استشار المجلس والحكماء، إلا أن العقبة الكبرى كانت أنهم لا يجيدون الكتابة، ولا يملكون القدرة على التخيل الخالص، فكيف لهم أن يعثروا على مؤلف بشري؟ وكيف يصلون إلى عالم البشر؟ بين عوالمهم وعالم البشر كانت أبواب مغلقة، حواجز لا يمكن اختراقها، وكل من حاول عبورها تلاشى وهلك كأن لم يكن.

فكروا طويلًا، حتى كاد اليأس يأكل قلوبهم؛ لأنهم يعلمون أن محاولة العبور تعني الهلاك، ومع ذلك، كان لا بد من المخاطرة إن أرادوا النجاة.

كانت أجسادهم ستمزّق قبل أن ينجحوا في الوصول؛ إذ إن قوانين صارمة تمنعهم من دخول عالم البشر. ذلك العالم مغلق عليهم، محرّم لا يُطال.

غير أن الأمير "آريس"، الابن الأصغر، ذا الذكاء الحاد والعقل المدبر، لم يستسلم. أراد أن يُثبت لوالده أنه الأذكى، الأقوى، الأجدر بالخلود في ذاكرة هذا العالم الملعون.

عثر "آريس" على بوابة تُعرف باسم "البوابات البيضاء" - وسنفضّل أمرها لاحقًا - وهي الأسهل من بين البوابات، لكنها تُعد مغامرة مميتة؛ إذ لم يجرؤ أحد على عبورها من قبل، لأن فعل ذلك بمثابة انتحار.

لكن "آريس"، بشجاعةٍ وتهوُّر، مضى نحوها، عابرًا الفجوة، رغم يقينه بأنه قد يهلك. قال يومها: "الموتُ للجناء... لا لنا".

وبالفعل، نجح "آريس" في عبور البوابة، ووصل إلى عالم البشر. لكن الصدمة كانت أعظم مما تخيّل! فبينما كان يظن أنه سيجد الأدباء غارقين في بحار الخيال والرعب، اكتشف أن أدب الرعب لا وجود له بينهم! وأنهم لا يزالون يدورون في قَلْبِ الشَّعْر والرومانسية، غير مدركين لِمَا يمكن أن يصنعه الخيال حين يُولد في الظُّلْمَة.

شعر "آريس" بالخيبة، بالضعف، كادت روحه تنكسر، وجسده بدأ يتشوه من طول مكوثه في عالمٍ لا ينتمي إليه. كاد أن يتلاشى، أن يندثر... لكنه لم يستسلم.

دخل ذات يوم إلى مكتبة متهالكة، وهناك التقى بأديب شهير في زمنه، عُرف بكتاباتهِ الدرامية والاجتماعية. استدرجه "آريس" بخبث، ثم قتله وأكل دماغه.

فما إن فعل، حتى شعر بالقوة تجري في عروقه، وتعاقت جروحه، واختفت التشوهات عن جسده، وعادت إليه صحته بالكامل.

أدرك "آريس" عندها أن عقول المؤلفين هي المفتاح... هي البوابة التي ستنقذ عالمهم وتمنحه القوة؛ لأن عوالمهم المظلمة لا تُبنى إلا على الخوف والرعب والعنف والخيال الأسود، ولا تقبل تلك العوالم الهشة الباهتة التي يكتبها البشر باسم الحب أو الأمل أو السلام.

وفي لحظةٍ كان فيها على وشك الاستسلام والعودة، لمح صبيًا صغيرًا لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، يتلقى ضربًا مبرحًا من والده، الذي ثار عليه لأن معلمه اشتكى منه، الصبي كان يكتب "أشياء محرّمة"، أفكارًا مخيفة ومرعبة بدلًا من الشَّعْر كما ينبغي، حسب رأيهم.

كان الطفل يصرخ باكياً وهو يقول لوالده: "إنه مجرد خيال فقط!"

عاقبه الأب وحبسه في المزرعة، وألزمه برعاية الماعز تحت المطر، عقابًا له على خياله "الملوّث".

أما "آريس"، فقد التقط بقايا أوراق الصبي الممزقة، وقرأ بعضًا من أفكاره... وما إن فعل، حتى أدرك الحقيقة: لقد عثر أخيرًا على المفتاح، المفتاح الذي سيفتح أبوابًا كثيرة في عالمهم، بوابات من ظلام، لا تُفتح إلا بخيال طفل رُفض من البشر، وقُبِل من الوحوش، وسيتوسع العالم بالطبع. ودون تردد، اختطف "آريس" الطفل، واصطحبه عبر البوابة عائداً به إلى عالمهم.

- مَنْ أنت أيها الغلام؟ وما اسمك؟

- اسمي "لوسيريس"، أكتب في مجال أدب الرعب والخيال الأسود والعنف، وأؤلف عن الوحوش والعوالم المظلمة...

أثارت هذه الإجابة اهتمام الملك "داميان"، بل أنعشت شيئًا خامدًا في داخله، ومنذ تلك اللحظة، أصبح "آريس" الابن المفضل لديه؛ لما قدّمه من إنجازات. لقد استنزفوا عقل الفتى "لوسيريس"، وأبقّوه أسيرًا لديهم؛ ليكتب ويبدع ويخلق لهم العوالم طيلة ثلاثين عامًا متواصلة.

وحين انتهى دوره، لم يُقدّموا على قتله، بل أطلقوا سراحه عن قصد؛ إذ أرادوا أن ينقل هذا "العِلْم" إلى عالم البشر.

لكن حين عاد "لوسيريس" إلى العالم البشري، وروى ما حدث له، لم يصدّقه أحد، بل سَخَرُوا منه وعدّوه مجنونًا. ومع ذلك، بدأت شرارة أدب الرعب تُولد من هناك، وراح البشر يكتبون فيه، يستلهمون من "عالم الخوف" الذي أنشأه ذلك الرجل الغامض... الرجل الذي ابتلعتة الشجرة.

ومنذ ذلك الحين، صار "عالم الخوف" يتسلل إلى عقول الكتّاب، يُلهمهم دون أن يدركوا مصدر هذا الإلهام.

أما "لوسيريس"، فقد وضع حدًا لحياته بعد عامٍ واحد فقط من عودته، انتحر بعد عام!

وفي ذلك العام، استمرَّ في الكتابة والرسم عن "عالم الخوف" بشغفٍ جامح، وهستيريا لا تُوصف، حتى انتهى به الأمر في مصحَّة عقلية، بعد أن عجز الجميع عن تصديقه، ولم يتمكن أي مخلوق من فهمه. حتى مؤلفاته... اختفت، ضاعت آثارها، ولا أحد يعلم أين انتهى بها المطاف.

ومع مرور الأعوام، اتَّسع "عالم الخوف"؛ ليغدو كونيًا شاسعًا، يعجُّ بالمخلوقات والعوالم التي لا تُعد ولا تُحصى؛ عالمٌ تسكنه أفضع الوحوش وأعتى القتلة، من شياطين وبشرٍ متوحشين، إلى جنٍّ ومسوخٍ وعمالقة، وكائنات لا أسماء لها ولا وصف.

ثم ظهرت بوابات خفيّة تؤدّي إلى تلك العوالم، بل قيل إن الشخصيات التي تموت في الروايات لا تَفنى، بل تُبعث من جديد في "عالم الرعب"؛ لتتابع وجودها هناك بطريقة أكثر ظلمةً ورعبًا.

ومع مرور الوقت، تزوّج الأمير "آريس"، وفي حين أصيب والده الملك "داميان" بالعجز، رُزق "آريس" بثلاثة أبناء:

أكبرهم كان الأمير "فوبوس"، المتحكّم في عوالم الظلال، وأمير "مملكة الكوايبس".

وُلدت الأميرة "ليليتو" - أو كما يُطلق عليها "لوليتا" - وكانت ثالث الأبناء وأصغرهم، سيّدة الخداع والدهاء، وأميرة "مملكة الجنون"، وهي من أخبث

مخلوقات هذا العالم، والمتحكمة في الرعب الليلي والكوابيس التي تفتك بالعقول.

الابن الأوسط والأصغر "ديموس"، الذي حمل صفات مختلفة منذ ولادته، حتى قال والده "آريس": "الأصغر دائماً ما يكون مختلفاً".

وُلد "ديموس" في ليلة معركة دامية، تحت قمرٍ أحمر تحوّل فجأة إلى قمر أسود، وكانت تلك الليلة شاهدةً على حرب شرسة بين "جيش الظل" و"جيش الكابوس".

وبمجرد ولادته، حدثت ظواهر غريبة في أرجاء "عالم الخوف"، أبرزها تشكُّل فجوة جديدة لم تكن موجودة من قبل، ومن تلك اللحظة امتلك "ديموس" قوى خارقة وقدرات غامضة، لم تُشبه قوى إخوته ولا أفراد عائلته، ولا حتى شعبه.

امتلك "ديموس" قدراتٍ خارقة ومخيفة، كان أولها قدرته على العبور إلى عالم البشر دون أن يتأذى أو يُصاب بأذى خدش، وكأن قوانين العوالم لا تسري عليه. أما قدرته الثانية، فكانت أعجب من الأولى: "الكتابة".

إذ لم يكن أحد من أبناء "مملكة الخوف" أو شعبها يمتلك موهبة التخيل أو القدرة على الكتابة، إلا أن "ديموس" كان استثناءً فريداً، الوحيد القادر على صياغة الكلمات وتحويلها إلى عوالم.

غير أن لغزاً غامضاً ما يزال يحيط بموهبته؛ إذ لم يتبيّن حتى الآن إن كانت كتاباته تتحوّل حقاً إلى عوالم حقيقية تنبثق في عالمهم، أم أنها مجرد تخيلات لا يرى حقيقتها سواه.

هناك من يعتقد أنه قد فتح أبواباً سرّية، وخلق عوالم ومخلوقات لا حصر لها، مجهولة في طبيعتها ومخيفة في جوهرها، إلا أن الكل يتوجّس من هذا

الاحتمال؛ إذ يعلمون جيدًا أنه إن حدث ذلك، فلن يكون بمقدورهم السيطرة عليها.

ومع مرور الوقت، بات "ديموس" يجلب إلى عالمهم كُتَّابًا ومؤلفين من عالم البشر، أولئك المتخصصين في "أدب الرعب"، فصار جسرًا يربط بين العالمين. وقد تعاون "ديموس" مع شقيقه "فوبوس" في دعم والدهما الملك "آريس" لتأسيس نظامٍ جديد يحكم هذا العالم، نظام ملكي موحد، جمع القارات والدويلات في كيانٍ واحد أطلق عليه اسم "قارة الخوف".

ونجح الثلاثة - الملك "آريس"، وجدُّهما الملك "داميان"، وأبناؤهما - في توسيع رقعة هذا العالم بشكلٍ مرعب، حتى أصبح عالمًا لانهائيًا، بلا حدود ولا نهاية.

اتَّسع ليتكوَّن من تسع ممالك أو أراضٍ كبرى، وامتلاً بملايين الوحوش، والمجرمين، والمخلوقات الأسطورية، والأرواح المعدَّبة، والعوالم المرعبة التي تفوق كل تصوُّر.

وفي نهاية المطاف، تمكَّن "آريس" ووالده "داميان"، وأبناؤه الثلاثة، من توحيد هذا العالم الهائل تحت راية واحدة، باسم عائلتهم الملكية، حاملين لقب "إيريبوس" والذي يعني: "الخوف الذي يلي الخوف... الرعب في أقصى تجلياته".

جميع أسماء أفراد العائلة الحاكمة تحمل دلالات الخوف والرعب، وتنبض معانيها بروح الظلام.

كان "فوبوس" و"ديموس" يُعرفان بأنهما ملوك الخوف والرعب، تهابهما جميع مخلوقات العوالم دون استثناء. لكن يثور سؤال: لماذا اختار الملك

"آريس" أن يورث العرش لابنه الأصغر "ديموس"، متجاوزًا شقيقه الأكبر "فوبوس"؟

لقد تعرّض الملك "آريس" لإصابة أفقدته بعضًا من قواه، وفي "عالم الخوف"، حين يفقد الملك جزءًا من قدراته الجسدية أو الذهنية، يُجبر على التنحّي عن العرش؛ إذ لا يُسمح إلا للملك الكامل المتكامل بأن يحكم. هذا هو القانون الحاكم في "مملكة الرعب".

أما "فوبوس"، فرغم كونه الابن البكر، فقد وُلد بمشاعر بشرية، وكان يعاني عجزًا في يده اليسرى، التي بدت صلبة كالحجر لا تتحرّك. ورغم أن هذه الإصابة لم تُضعف قوته القتالية أو رعب حضوره، فإنها كانت سببًا كافيًا لاستبعاده عن الحكم.

ويُقال إن "فوبوس"، رغم ذلك، يمتلك قوى خارقة وغامضة، تُثير الريبة في قلوب خصومه. فهو ينتمي لعائلة "إيريوس" العريقة، المؤسسة لنظام "ممالك الخوف"، تلك العائلة التي تميّزت بالقوة، وتنوّع القدرات، والجنون اللامحدود.

أما الأميرة "لوليتا"، وهي الأصغر، فقد تم استبعادها أيضًا رغم ذكائها وخبثها؛ لأن الاختيار في هذا العالم لا يكون للأكبر، بل للأقوى والأكثر رعبًا. وهكذا، وقع الاختيار على "ديموس".

كان "ديموس" يخلو من المشاعر تمامًا، على عكس شقيقه "فوبوس"، وكان يتمنّع بسطوة جعلت الوحوش والمخلوقات تنحني أمامه. هو الوحيد في عالمه القادر على العبور إلى عالم البشر دون أن يتأذى.

وقد تُسبت إليه ألقاب كثيرة: "الوحش"، الشيطان، ابن الشيطان، الموت، حفيد الشر، والتنين ذو الثلاثة رؤوس".

وُلِّقَ بالتَّينِ لَأَنَّهُ - وَفَقَ بَعْضُ الرِّوَايَاتِ - قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِ شَكْلِهِ وَوَجْهِهِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ. بَلْ إِنَّهُ الْكَائِنُ الْوَحِيدُ الَّذِي تَمَكَّنَ مِنْ تَرْوِيضِ أَحَدٍ أَعْظَمَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي عَالَمِ الرَّعْبِ: "التَّيْنِ ذُو الرُّؤُوسِ الثَّلَاثَةِ".

عَزِيزِي الْقَارِئُ...

سَنَخُوضُ مَعًا، خِلَالَ هَذِهِ السَّلْسَلَةِ، رَحْلَةً لَا تُنْسَى فِي اكْتِشَافِ أَسْرَارِ هَذَا الْعَالَمِ الْمَظْلَمِ. سَنَغُوصُ فِي أَعْمَاقِ "مَمْلَكَةِ أَدَبِ الرَّعْبِ وَالْخَوْفِ"، وَنَتَعَرَّفُ عَلَى أَرَاذِيهَا الثَّمَانِي، وَأَمْرَائِهَا، وَحُكَّامِهَا، وَجُنُودِهَا، وَمَخْلُوقَاتِهَا، وَشَعْبِهَا.

فِي هَذَا الْعَالَمِ، لَا وَجُودَ لِلصَّالِحِينَ... لَا مَكَانَ لِلْأَسُوبَاءِ...

هَنَا يُرَحَّبُ فَقَطْ بِالْمَجَانِينِ، بِالْعَابَثِينَ، بِغُشَّاقِ الرَّعْبِ.

فِي هَذِهِ الْأَرْضِ - أَرْضِ "الْمَلَائِكَةِ وَالْوَحُوشِ" - سَنَبْدَأُ رَحْلَتَنَا.

مَرْحَبًا بِكَ فِي "عَالَمِ الْخَوْفِ".

الفصل السادس

أرض الملائكة والوحوش



في أقاصي العوالم، كانت هناك أرض بعيدة، يعجُّ ترابها بالوحوش والمخلوقات المرعبة والمظلمة. أرضٌ لا تعرف نور الشمس، ولا يسطع فيها إلا ظلام دامس، يتخلله قمرٌ دموي يُطلُّ في أغلب الليالي، شاهداً على العنف والخراب.

لكن في ليلة استثنائية، حدث ما لم يكن في الحسبان. في خِصْمٍ معركة هي الأشدُّ دمويَّةً وظلمةً، وُلد طفل، وفورَ ولادته تغيَّر وجه السماء؛ إذ تحوَّل القمر إلى سواد حالك، كما لو أنَّ ظلاً عظيماً قد حجبهُ.

وُلد هذا الطفل في أرض لا تعترف إلا بالوحوش، ومع ذلك، بدا طبيعياً، وسيماً، مشعاً، وكأنه ليس من هذا العالم! حتى إن البعض قال في دهشة: "لا

بدَّ أنه ملاك!".

لكنهم تذكَّروا سريعًا: هذه الأرض لا تُنجب إلا وحوشًا... فكيف لطفلٍ يشبه الملائكة أن يرى النور فيها؟

ومنذ تلك اللحظة، ومنذ ولادة هذا الطفل، تغيَّر اسم الأرض إلى "أرض الملائكة والوحوش".

لقد شعر سكانها بشيءٍ مختلف، إحساس بالتفُّرد، عرفوا بأنهم حصلوا على مَلِكٍ مستقبليٍّ، قد يكون في هيئته ملاكًا، لكنهم كانوا على يقينٍ بأن في داخله وحشًا لا يعرف الرحمة.

وبهذا الاسم الجديد، تم الاعتراف بهذه الأرض وتوحيدها رسميًا تحت راية "مملكة الخوف"؛ لتُصبح أحد أعمدتها السوداء، وأرضًا تُمثِّلُ التناقض الأبديَّ بين النور المزيف والظُّلمة الحقيقية.

وقد جرى اعتماد "أرض الملائكة والوحوش" عاصمةً رسميةً وأساسية لـ"مملكة الخوف"، فهي القلب النابض للمملكة، والمَقَرُّ الرئيسي للملك، وفيها تقوم "القلعة السوداء" التي يُوجد بها العرش، وتُعدُّ أعظم أراضي المملكة اتساعًا وأشدَّها هيبة.

من أبرز معالم هذه العاصمة:

"قصر الحُكم"، الذي يمتد على مساحة تعادل مدينة كاملة، ويقع بمحاذاة البحر الأسود، شامخًا كسيفٍ مغروس في قلب الظلام.

"المكتبة المحرَّمة"، وهي من أخطر المعالم في هذا العالم، تحتوي على ما لا يمكن للعقل البشري أن يتخيَّله من أسرار، ومخطوطات، وكتب مرعبة سنتناول تاريخها لاحقًا بتفصيلٍ مروِّع.

ورغم أن العاصمة تُعدُّ من أكثر أماكن المملكة خطرًا، إلا أنها أيضًا تُعتبر الأكثر أمانًا لشعب "مملكة الخوف"، بفضل ما يحيطها من قوى وحراسة وجبروت.

أما الملك "ديموس"، فقد نُصِّب على العرش قبل عامين فقط في مرحلة التدريب، وهو ما يُعد زمنيًا حديثًا نسبيًا في عمر الحكم. لم يكن "ديموس" يومًا شغوفًا بالحكم أو التاج أو المجالس، بل كان منذ طفولته شابًا طائشًا، متهورًا، مغرورًا، واثقًا من نفسه إلى حد الغرور، بفعل قوّته الخارقة، وذكائه الحاد، وتفوّده الذي لم ينارعه فيه أحد.

كان يجد لذّته في القتل، ويستمتع بتعذيب الآخرين، لا يتوانى عن سحق أي مخلوق يعترض طريقه. يفعل ما يشاء دون أن يخشى عاقبة، حتى إن جدّه الملك "داميان" كان يُطلق عليه لقب "الابن المتمرّد".

وقد ظلّ "آريس" - والده - يعاني من كوابيس متكررة، يرى فيها "ديموس" على هيئة ثعبان أسود عملاق يلتف حوله ويبتلعه. إحدى الساحرات أخبرته ذات يوم بأن ابنه الأصغر سيكون عدوّه الأكبر.

لكن "آريس" لم يُصدق ذلك، فقد أحبّ "ديموس" حبًّا جمًّا، وفصّله على سائر أبنائه، ومع ذلك... ظلّ في أعماقه خوفٌ غامضٌ منه، خوف لم يفصح عنه يومًا.

حتى شاع في أنحاء المملكة أن الملك "آريس" لم يُعجّل بتسليم العرش لابنه الأصغر حبًّا به... بل خوفًا منه.

وبينما جلس "ديموس" على العرش، فإن الحقيقة التي لا يُمكن إنكارها هي أن معظم شعب المملكة، وأعضاء المجلس، واللوردات، وكبار القادة، كانوا

يُفَضِّلُونَ "فوبوس"، ويحبُّونه أكثر؛ لِما فيه من حكمة وقوة واتزان، على عكس شقيقه الأصغر الذي يسكنه الجنون.

لأنه متواضع ولا يجلب لهم الدمار، كما يتنبأ المتنبيون بأن "ديموس" هو مَنْ سيُجلب لهم الدمار! ذلك الطفل الذي أطلقوا عليه في البداية "ملاك"، هو الآن وحش وملك للوحوش.

"ماريان"

- توقّفوا...؟! -

انطلقت هذه الصرخة الحادة من أحد الحُرَّاس، فمزّقت سكون المشهد المجنون الذي لا يزال قائماً أمام ناظري، مشهد يتفجّر بالرعب والجنون.

لقد أُعدم جميع الكُتّاب والمؤلفين، ولم يتبقّ سواي.

كنت ألتقط أنفاسي الأخيرة، مستسلمةً لفكرة غريبة كنت أواسي بها نفسي: ربما إذا متُّ في هذا العالم الغريب، سأستيقظ في عالمي الحقيقي في منزلي.

كنت أُنقع نفسي بهذه الأكذوبة لأخفف من وطأة الألم الذي سيسببه سقوط رأسي!

في اللحظة ذاتها التي دَوَّى فيها صوت الحارس، كان الجلابد يرفع سيفه العملاق عاليًا استعدادًا لإنهاء حياتي، لكنه توقّف فجأة...

في اللحظة الأخيرة عند حدِّ الأنفاس.

لم أعُد أشعر بالزمن، ولا بالوقت، ولا بالأصوات من حولي.

كلُّ شيء بدا مكتومًا، وكأنّ أذنيّ قد انغلقتا تمامًا، كما لو أنني على قمة جبل، أو داخل طائفة، أو أنّ الضوضاء باتت بعيدة جدًّا عن إدراكي، ربما من شدّة الرعب.

رفعت رأسي بصعوبة، وارتجافٌ تسري في جسدي، أحاول أن أستجمع أنفاسي، وأنظر إلى الجمهور الذي كان قبل لحظات يهتف متعطشًا للدماء، مستمتعًا بموتنا، يشاهدون فيلمًا دمويًا في مسرح من جحيم.

لكنهم الآن...

صامتون.

صمْتُ ثَقِيل مَرِيب.

وَكُلُّهُمْ، دُونَ اسْتِثْنَاءٍ، أَدَارُوا رُؤُوسَهُمْ بِبَطْءٍ نَحْوَ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، نَحْوَ الْمَسَارِ
الَّذِي قُدْنَا مِنْهُ إِلَى مَنْصَةِ الْإِعْدَامِ.

يَنْظُرُونَ إِلَى أَحَدٍ مَا.

لَمْ أَفْهَمْ مَا الَّذِي يَحْدُثُ، وَكَانَ قَلْبِي يَنْبِضُ بِعَنْفٍ لَا يُحْتَمَلُ.

لَكِنِّي لِلْمَفَارِقَةِ شَعَرْتُ بِسَعَادَةٍ غَرِيبَةٍ؛ لِأَنَّ قَلْبِي مَا زَالَ يَنْبِضُ. كُنْتُ عَلَى
وَشْكَ الْمَوْتِ، وَمَعَ ذَلِكَ، لَا زِلْتُ هُنَا، لَمْ أَنْهَرْ بَعْدُ.

رَفَعْتُ رَأْسِي أَكْثَرَ، كَانَتْ الرُّؤْيَا ضَابِيبَةً لَا أَعْلَمُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ اقْتِرَابِي
مِنَ الْمَوْتِ، أَمْ لِأَنَّنِي فَقَدْتُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّرْكِيزِ.

وَمِنْ حَسَنِ الْحِظِّ أَنَّنِي لَمْ أَتَبَوَّلْ عَلَى نَفْسِي.

أَوْ رُبَّمَا فَعَلْتُ، وَلَا زِلْتُ غَيْرَ مَدْرَكَةٍ لِذَلِكَ.

ثُمَّ... دَوَّى صَوْتُ آخَرٍ.

صَوْتُ حَارِسٍ آخَرٍ، لَكِنَّهُ كَانَ أَعْمَقَ، أَشَدَّ هَيْبَةً، وَأَشَدَّ رَهْبَةً، قَالَ بِصَوْتٍ

جَهْوَري:

- جَلَالَةُ مَلِكٍ "مَمْلَكَةِ الْخَوْفِ وَالرَّعْبِ"، وَأَرَاضِيهَا الثَّمَانِي، الَّذِي شَيَّدَ مِنَ
الْخَوْفِ مَنَازِلَ، وَمِنَ الرَّعْبِ مَمَالِكَ، وَمِنَ الْعَنْفِ جَيْشًا، وَمِنَ الْجَنُونِ أَوْطَانًا...
الْمَلِكُ الْأَعْظَمُ لِهَذَا الْعَالَمِ، الْمَلِكُ ذُو الرُّؤُوسِ الثَّلَاثَةِ: "دِيمُوسُ آرِيَسِ دَامِيَانِ
إِيرِيْبُوسَ".

عَقِبَ انْتِهَاءَ ذَلِكَ الْخُطَابِ الْقَصِيرِ الْمَتَقَّنِ، الَّذِي بَدَأَ وَكَأَنَّنِي أَشَاهِدُ مَشْهَدًا
مِنْ فِيلْمٍ فانتازي، أَوْ أَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ غَارِقٍ فِي الْخِيَالِ، اكْتَشَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ وَهْمًا،

بل حقيقةً دامغة!

انحنت الحشود جميعها دفعةً واحدة، في مشهدٍ مهيبٍ يُجسّد الخضوع المطلق.

الجماهير التي كانت قد تجمّعت لمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام، والتي ربما تجاوز عددها الألف، من وحوشٍ ومخلوقات غريبة، ومُنقّذي الحكم، بل وحتى الجلّاد نفسه - ذاك الذي كان يقف خلفي، قابضًا على سيفه - جثا على ركبتيه! كانت رؤيتي لا تزال مضطربة، لكن مع ازدياد وضوح الصورة، رأيت مَنْ يسير على المسار المؤدي إلى ساحة الإعدام.

موكب ملكي؟ ربما، لكنه لم يكن كأَي موكب اعتدناه أو رأيناه من قبل، بل كان شيئًا آخر بالكامل.

كان حرس الملك يسرون على ظهور خيول سوداء؛ لا، بل كانت تلك الأحصنة سوداء سوادًا حالكًا لا يشبه السواد الذي نعرفه. لم تكن طبيعية لا في حجمها، ولا في هيئتها المرعبة، ولا في حضورها الكاسر.

لكن دعونا من الخيول الآن...

كان الحُرّاس الذين يعتلونها يرتدون عباءات سوداء ضخمة، تفوق أجساد البشر العاديين حجمًا وقوّة.

في أيديهم سيوف أشبه بعِصيّ ضخمة مدبّبة، منقوشة بأنماط متوهجة، تنبعث منها طاقة شرّ لا توصف. كلُّ سيفٍ يعلوه رأسٌ مختلف:

رأس أفعى ملتقّة، رأس ذئب متحفّز، رأس وحش غريب لا يمكن تعريفه!

رأس غوريلا سوداء مزمجرة، ورأس قرش قاتل متأهّب.

لكن ما أرعبني بحق، لم تكن السيوف... بل الوجوه.

أو بالأحرى، "غياب الوجوه".

حاولت أن أتفحص ملامحهم، ظننت في البداية أنهم يرتدون أقنعة، لكن سرعان ما أدركت الحقيقة المفزعة:

لم تكن هناك وجوه على الإطلاق!

كان رؤوسهم مغطاة بقلنسوات سوداء ملتصقة بالعباءة، تُخفي تحتها فراعًا أسود كَأَنَّهُ حفرة من العدم...

لا عينان، لا فم، لا ملامح، لا وجود!

وعندما رفعت عيني نحو المركز... نحو "ملكهم" الذي كان يتقدّمهم، شدّ انتباهي أولاً الحصان الذي يمتطيه.

كان حصانًا "ذهبيّ اللون".

لا أقصد الذهبي المألوف، بل ذلك الذي يبدو مثل صكٍّ من معدن الذهب الخالص، يشعُّ بنورٍ يشبه مصباحًا مُنيرًا بلونٍ أصفر ساحر.

كان الحصان على خلاف سائر الخيول حوله هادئًا، طبيعيًا في ملامحه، جميلًا بجمالٍ يُبهر العين.

يبدو كمخلوق أسطوري، صُنِعَ من الحلم، لا من الرعب.

أما الراكب، فكان يُشبه حراسه في زيّه، لكن بوقارٍ أعظم، وهيبةٍ أضخم.

كان يرتدي عباءة سوداء أشدَّ فخامة وتكلفًا، منقوشة بزخارف ذهبية، فوقها درعٌ ذهبي يلمع بضياءٍ مريب، وعلى خصره سيفٌ عظيم الرأس، تنتهي قبضته بـ"جمجمة تعلوها تاج".

ذلك الرجل كان يُشعُّ هالةً مرعبة، حضورًا يسحق الهواء من حوله، وكان سربٌ من الشياطين يلتفُّ حوله، مشكّلًا "غيمة سوداء تُظللُّه من السماء".

لم يكن عملاقًا كالحرَّاس، لكنه لم يكن بحاجة لذلك.

فهيبته وحدها كانت كافية لتجعل الأرض ترتجف تحت خطاه.

كان حجمه طبيعيًّا، غير أن وجهه لم يكن خاليًّا كوجوه حراسه، بل كان مغطًى بقناع ذهبي يتخلله بعض اللون الأسود. لم يكن القناع عاديًّا، بل امتد من أعلاه تاج مهيب، لم تخرج منه أشواك، بل اندمج التاج بالقناع بطريقة ملكية، منحوتة بدقة وإتقان، ومصنوعة من معدن لامع، تتخلله نقوش غاية في الروعة. فتحات العينين في القناع كانت محاطة بحواف حادة، تعكس نظرات ثابتة تنذر بالهبة والسيطرة، أما منطقة الفم فكانت مغلقة تمامًا، لا أدري كيف يتنفس، لكنها زُيّنت بشبكة زخرفية محفورة عليها رموز سحرية غامضة.

التاج الذي اندمج مع القناع ارتفع من أعلى الرأس بتصميم شامخ مهيب، تتلأأ أطرافه بأحجار كريمة براقّة، تعكس نورًا قادمًا من عالم آخر، وفي مركزه تتربع جمجمة صغيرة تزيد من رهبة المشهد.

كان هذا المشهد أضخم من أن تتحمله مخيلتي أو يستوعبه عقلي. توقفت الأنفاس في المكان بأسره، إلا أن أنفاسي بدأت تعود إليّ ببطء؛ لأدرك أنني ما زلت على قيد الحياة. الجميع كانوا راكعين، رؤوسهم منحنية، مجمدين في أماكنهم، وكأن من دخل ليس ملكهم، بل ملك الموت نفسه!

الهواء ازداد ثقلاً، والظلام أخذ يبتلع المكان شيئًا فشيئًا مع كل خطوة يخطوها موكبه. لا يُسمع صوت سوى وقع أقدام خيولهم الضخمة، وكأن الطبيعة ذاتها تنحني لإرادة هذا الملك الرهيب، بينما الخوف يُحكم قبضته على قلوب الحاضرين بلا رحمة.

وكلما اقترب مني، شعرت بطاقة غريبة تتدفق نحوي، شعورٌ مألوف، كأنني أعرف هذا الشخص! حين وصل إلى أسفل سلالم منصة إعدامي، توقف

الموكب، ورفع الملك يده اليمنى إشارةً للجميع بأن ينهضوا من انحنائهم. فاستجابوا على الفور، واعتدلوا في وقوفهم بانتظام وهيبة، وكأن الفوضى والوحشية التي خيَّمت عليهم منذ لحظات لم تكن سوى سراپٍ تلاشى تحت ظله.

تابع سيره على جواده الذهبي، متقدِّمًا وحده بخطى هادئة حتى وصل إلى أسفل السلالم، حيث أوقف الحصان، ثم ترجَّل عنه بهدوء وثقل، الأرض تستشعر وطأة وجوده. مشى بخطوات مَهيبَة، ثقيلة، أستطيع أن أُميِّز وَقْعَهَا جيدًا، إنها خطوات أعرفها، بل أحفظها.

في تلك اللحظة، كنت أسمع خفقات قلوب الشعب، أولئك الذين ظننت لوهلة أنهم لا يعرفون الخوف، أولئك الوحوش الذين توهمت أن لا شيء يربعهم... لكنني كنت مخطئة.

حين صعد المنصة التي سيُنْفَذ عليها حكمي، أبقيت رأسي منخفضًا، لم أجرو على رفع بصري إليه، فقد كنت أرتجف رعبًا كما يفعلون. ومع اقترابه، شعرت به كما تشعر الروح باقتراب الموت. هبَّت ريح قوية، فتناثر شعري على وجهي المرهق، الذي كان يحمل خمس كدمات أو أكثر، لا أدري، لقد فقدت الإحساس.

وفي خضم ذلك، تسللت إلى أنفي رائحة عطر مألوفة، رائحة أعرفها جيدًا. دون حاجة إلى تأمل أو تفكير، عرفت أنه هو... ملكهم، "ويليام".

أكد لي شكوكي حين اقترب، وانحنى على أذني وهمس بصوت خافت:

- أخيرًا وجدتكِ يا ملكة الفضول.

ثم صمت لثلاث ثوانٍ، تَرَكَ خلالها جسدي معلقًا بين الرجفة والانهيار، قبل أن يتابع:

- كان سيكون من المؤسف أن يُفصل رأسك، كنت سأخسر الكثير من القصص.

لم أعُد أعرف ما أشعر به، هل أنا خائفة؟ سعيدة لأنني نجوت؟ غاضبة؟ مذهولة؟ مرعوبة؟! لم أعُد أميّز إن كنت حيّة أم ميّتة، لم أعُد أدرك من أكون؟ أو ماذا أكون؟

استمر ساخرًا وهو يقرأ اضطرابي:

- أأُصبتُ بفقدان الذاكرة من شدّة الصدمات؟ لا ألومك، لكن لا تقلقي... سأذكرك عمّا قريب من أنت.

صوته اخترق رأسي، تسلّل كعادته إلى أعماق أفكاري، كما لو أن وجوده يفرض نفسه داخل عقلي. ها هو يعود... الشيطان ذاته، يعود ليغزو ذهني، يقرأني، يتغلغل في كياني. كل الطرق تؤدي إليه، ولا مهرب منه، لا خلاص.

لكن رغم كل شيء، هناك شيء واحد فقط بدا واضحًا داخلي: لقد عدت إليه. ومع عودتي، عاد غضبي، وازداد كرهني له. يجب أن أقتله، حتى إن كلفني ذلك حياتي، وبلا شك سيكلفني.

لكن لا بأس، يجب أن أجعله يندم، يندم على كل ما فعله بأمي، وتدمير حياتي، وإغراق عائلتي في دوامة من الجنون.

لكن كيف؟ كيف لي أن أقتله وأنا لا أعرف من يكون أصلًا؟ من هو؟ ومن هم هؤلاء؟ بل ما هذا العالم الغريب الذي وجدت نفسي فيه؟

- من الذي أمر بإعدام هذه الفتاة؟

سأل "ويليام" بصوته العميق الهادئ، وقد وضع يديه خلف ظهره بهيئة مَهيبة لا تُقاوم. عمّ الصمت المكان، وتبادل الحضور نظراتهم المرتبكة المذعورة، كأن السؤال قد اخترق صدورهم وأجبر قلوبهم على الارتجاف.

- لستُ أنا... لقد وُضعت أمامي فحسب!

قفز الجلاذ متقدِّمًا، يحاول الدفاع عن نفسه بصوت مرتعش، وقد بدا عليه الذعر كطفلٍ ضائع. ذاك السيف الضخم، الذي اعتاد سَلْب الأرواح دون أن يرمش له جفن، بات الآن مطأطئ الرأس، يرتجف في حضرة هذا الملك.

- جلالتم... لقد وجدتها أنا ورجالي بين المذنبين أثناء الصيد، فظننا أنها واحدة منهن لا أكثر.

قالها قائد المسوخ بصوت متلعثم، ويُسلِّم رقبتَه للاعتراف، وهو ذاته ذاك الكائن المتوحش الذي قيدني إلى ذراعه الوحشية، وجَرَّني طوال الطريق كأني فريسة في عتمة الغابة.

أشار الملك بيده، فأمر بإحضار ذلك الكائن، قائد الصيادين. وما إن صدرت الإشارة، حتى تحرَّك أحد العظماء، من أولئك ذوي الوجوه المفقودة، حلفاء الملك، ونزل عن جواده الثقيل بخطى أرعبت المكان من حوله. كانوا أقرب إليَّ مما ظننت، وأضخم مما تخيلت، متأكدة بأنهم سُيِّدوا من الصخر.

سار نحو ذلك المسخ المرتجف، أمسكه بقبضته الحديدية، وقد كانت يداه مغطاة بقفازات معدنية سوداء تبعث على الرهبة، ثم رفعه بسهولة، ورمى بجسده أمام قدمي الملك كما يُلقى بكيس لا قيمة له.

بدأ ذلك الوحش الباكي بالتوسل، وقد انهار جسده بين البكاء والرجاء:

- أرجوك يا جلالة الملك ارحمني!

- لم يكن هناك ختم على رقبة الفتاة، أليس كذلك؟

سأل "ويليام" بصوت هادئ:

- نعم... نعم، لم يكن هناك أي ختم.

- إن كنت تدرك ذلك حقًا، فلم أتيت بها إلى ساحة الإعدام؟

ساد الصمت، ولم يخرج من الصياد سوى ارتباك عاجز. لم يجد جوابًا، فعاد إلى البكاء والتوسل، بينما كان جسده يرتجف من شدة الذعر. سحب "ويليام" قدميه بعيدًا، متجنبًا أن تلامسه تلك الأيدي المتوسلة الملوثة بالخوف.

ثم قال بصوت مرتفع يسمعه الجميع:

- يا شعب الخوف، لم أتوقع يومًا أن أرى أحدكم يبكي! نحن، كما وُلدنا، نموت بلا دموع، بلا خوف؛ لأننا نحن الخوف ذاته.

دَوَّت الهتافات والصرخات بحماس بعد لحظات من السكون، لكن الملك رفع يده بهدوء، فأشار إليهم بالصمت. وسرعان ما تلاشت الأصوات، وعمَّ السكون من جديد.

تابع حديثه:

- لم أكن أتصور أن يبكي صيَّاد من صيَّادينا الشجعان، أولئك الذين يُقتدى بهم، ويبني أبنائنا صورتهم على هيئتهم. هذا مخزٍ... إنه عار! وكلُّنا نعلم أن البكاء جريمة لا تُغتفر. نعم، جريمة لا تُغتفر.

ثم أردف بنبرة حاسمة:

- كنت على وشك العفو عنك لأنك تصرَّفت من تلقاء نفسك، وأحضرت فتاة لا تحمل ختمًا إلى ساحة الإعدام، وكنت سأعتبر ما حدث خطأ غير مقصود. لكن بكاءك المخزي، المثير للشفقة، هو ما جعلك تستحق الموت.

عندها عاد الحشد إلى الهتاف والتصفيق والتهليل، يتجاوبون مع كلمات ملكهم، مؤيدين قراره، ومطالبين بتنفيذ الحكم في الحال.

واصل المسخ توسلاته وبكائه، لكن دون جدوى. اقترب "ويليام" منه بثبات، بينما أمسك به السيف العملاق، وجثا به على ركبتيه، مثبتًا إياه بقوة، استعدادًا للنهاية.

كنت أراقب هذا المشهد الجنوني، أنظر إليه كمن يشهد حلمًا كابوسيًا يتجسد أمامه. خطوات "ويليام" كانت أشبه بخطوات قابض الأرواح، ثقيلة، ثابتة، باردة.

ظننت، بل كنت على يقين، أنه سيسحب سيفه ليقطع رأسه، أو يغرسه في صدره، أو يرميه في المحرقة، أو في ذلك الإناء المشتعل بالغليان. لكن لم يحدث شيء من هذا.

بل مد "ويليام" أصابعه الطويلة ببطء، وقد كان يرتدي قفازًا معدنيًا أسود اللون، يشعُّ بتوهج أحمر خافت، يبدو بأنه مغموس في دماء قديمة.

ثم رفع يده الأخرى، وخلع القفاز عن يده اليمنى، لتظهر يده الطبيعية. فتوقفت أنفاسي، أراقب بصمت، بخوف لا يوصف.

ما الذي سيفعله الآن؟

كان شعبه يراقبه بحماسٍ جامح، مأخوذين بالمشهد، كأنهم اعتادوا مثل هذه اللحظات المروّعة، بل وتلذّذوا بها. أما الصياد، فكان يصرخ، لكن صوته اختنق في صدره قبل أن يخرج، الخوف نفسه قد كمّ فمه.

- أتعلم ما عقوبة من يبكي في "مملكة الخوف"؟

قالها "ويليام" بصوته العميق البارد، يبدو أنه الموت ذاته.

ثم، دون تردد، دفع يده بقوة خاطفة إلى صدر الصياد، بسرعة مرعبة جعلت جسدي كله يرتعش. عيوني جحظت، واتسعت حدقتاي، وانقبض قلبي كأنني أنا من يتلقى هذا العقاب المتوحش!

لم يكن هناك جرح ظاهر، بل بدأ الجلد واللحم يذوبان تحت أصابعه كالدخان، يتلاشيان بصمت رهيب، تاركين طريقًا مفتوحًا إلى قلب ينبض بجنون. كان صدى نبضاته يتردد في الساحة كلها، كأن حياة الصياد بأسرها تتمسك بيأس بلحظاتها الأخيرة.

أمسك "ويليام" بقلبه كما لو أنه شيء عابر لا قيمة له، قطعة لا تستحق الشفقة. ومن خلف القناع، لمع بريق في عينيه، بريق شيطاني يتغذى على الرعب، تلمعان بتلذذ كائن لا يعرف الرحمة.

توقّف العالم للحظة، الزمن ذاته قرر أن يراقب هذه اللحظة البشعة.

- قلبُ بالكِ لا فائدة منه.

قالها "ويليام" بسخرية باردة، ثم بدأ يسحب يده ببطء من داخل صدر الصياد، لكن لم تكن يده وحدها مَن خرجت... لقد أخرج قلبه معها، لا يزال ينبض!

نبضة... ثم أبطأ... فأبطأ... حتى توقّف بين أصابعه تمامًا.

سقط جسد الصياد على الأرض كدمية مفرغة، بلا روح، بلا قلب، جسد هشّ لا قيمة له.

استدار "ويليام" نحو شعبه، رافعًا القلب الميت، ثم قبض عليه بقوة حتى تحطم بين أصابعه، وتحول في لحظة إلى رماد، وكأن النار أكلته بلا لهب. تناثر الرماد في الهواء ببساطة صادمة.

- هذا هو مصير كل من يبكي ويُظهر مشاعر الخوف. علينا أن نواجه الموت بشجاعة. لقد تعلّمنا أن من يرى الموت أمامه يجب أن يتسم له.

انطلقت الهتافات من الشعب بقوة صاحبة مشبعة بالحماس والولاء، بدوا متأثرين بكلمات ملكهم، بل مقتنعين تمامًا بهذه القوانين المرعبة المنافية

للعقل والمنطق.

- خذوا الفتاة.

قالها "ويليام" موجَّهًا أمره إلى أحد حراسه عديمي الوجوه. فتقدَّم أحدهم نحوي، وانقبضت معدتي من شدة الرهبة، ثم أمسك بذراعي بقوة، بينما تدخَّل "ويليام" بسخريّة باردة:

- بهدوء... نحن بحاجة إلى ذراعها، كما كنا بحاجة إلى رأسه.

عندها خفف الحارس قبضته عن ذراعي، ثم سار بي بصمتٍ نحو الخيول المهيبة، تلك التي كانت تقف هناك، وكأنها خرجت من كوابيس مظلمة. ترجَّل "ويليام" من على المنصة، وتوقف للحظة يتأمل، ثم قال بتفكير ساخر:

- حسناً، خلال الأيام الماضية رأيت ما يكفي، بل ما مررت به كان كفيلاً بأن يلتهم لسانك الثرثار. لذا، اكتفي بهذا القدر... هناك أمور يجب ألا تراها عيناك.

لم أستوعب كلماته في البداية، التفتُّ نحو الحارس، فارتجف جسدي بالكامل. كان قريباً جدًّا، وكان مرعباً بشكلٍ لا يُصدق، لم يكن يملك وجهًا، بل كان محله فراغ عميق، أشبه ببئرٍ مظلم لا قرار لها، رفع يده الثقيلة ووضعها على رأسي. في اللحظة ذاتها، انجذبت عيناى إلى هاوية وجهه، إلى ذلك السواد السحيق، شعرت بالدوار، واهتز كياني من الداخل.

علمت حينها أنه تلاعب بعقلي، وأن لمستته تلك كانت كافية لإسقاط وعيي. شعرت وكأنني أُسحب داخل تلك الحفرة المظلمة، داخل فراغه اللامتناهي.

ثم... اختفى كل شيء.

الفصل السابع

لا مفر من الجنون



- ماذا لو أُتيح لك أن تستحضري شخصية من شخصيات كتبك إلى هذا الواقع؟ أيُّ شخصية ستختارين؟

عقدتُ حاجبيّ، غارقةً في دوامة التفكير، أتساءل في صمت: مَنْ سأختار؟ هل أستدعي "الجزار"، القاتل الذي كان يفتك بضحاياه بأبشع الطرق؟ أم آكل لحوم البشر؟ أم ذاك الوحش الذي خلقته من جثة متعفنة؟ جميع شخصياتي مختلة، لا تمتُّ للطبيعة البشرية السويّة بِصلة. فلماذا أتمنى أن ألتقي بأيٍّ منهم في عالمي الواقعي؟ حياتي نفسها غارقة في الجنون، ولا طاقة لي بمزيدٍ من الجنون.

- وماذا لو كنتُ أنا؟ هل كنتِ ستختارينني لأخرج من عالمكِ إلى واقعكِ؟

جاء صوته في رأسي كهمسٍ مريبة، فأين أنا؟ فتحتُ عينيَّ ببطء، وإذا
بقشعريرة باردة تسري في عروقي من الداخل. كنتُ مستلقية على ظهري،
وأول ما لفت انتباهي...

كان السقف عاليًا إلى حدٍّ مخيف، تتوسطه فجوة غامضة تملأها زخارف
ورسوم غريبة، بعضها أشبه بالهذيان، وقد ازدحمت تلك الفجوة بأعينٍ
مرسومة تبدو كأنها تنبض بالحياة، تراقبني بصمت مرعب. كانت النقوش تتوزع
على السقف بطريقة عبثية، تتخللها أضواء صغيرة متدلية في هيئة جماجم.

أما الجدران، فكانت سوداء حالكة، إلا أن اللون الأحمر كان يخترق الظلام،
متمثلًا في فراشات حمراء بارزة، حتى حُيِّلَ إليَّ أنها حقيقية، وكأنها فراشات
محنطة معلّقة على الجدران لتحذِّق بي إلى الأبد. شعرت بألم في ظهري، لكن
سرعان ما اجتاحتني الذكريات كعاصفة... ذكريات الأحداث المفزعة،
المتسارعة، التي عصفت بي مؤخرًا.

دخولي في عالم الروايات، ثم خروجي إلى ذاك العالم. نعم، أظن أنه عالم
"ويليام"، لقد عاد! أو ربما لم يرحل قط، بل أنا التي تُهت في باطن الرواية
نفسها. ثم ماذا؟ كانوا على وشك إعدامي مثل باقي المؤلفين، لكن "ويليام"
أوقفهم في اللحظة الأخيرة!

"ويليام"؟ ملك؟ بل اسمه ليس "ويليام" أصلًا! يا لغبائي، بالطبع أنا من
منحته هذا الاسم. كنت مرعوبة، خائفة، مصدومة. لا أذكر حتى ما كان اسمه
الحقيقي! لكن... ما الفارق؟ ذلك الشيطان، كيف لي أن أتخلص منه؟ كيف
أعود إلى بيتي، إلى حياتي القديمة؟

- هل عدنا إلى هذا الحديث الممل مجددًا؟

انقبض قلبي فجأة، نهضت بسرعة، اعتدلت في جلستي، وبدأت أبحث عنه بعينيّ في كل زاوية، لكن الغرفة خالية، لا أحد هنا سواي. ذلك المعتوه، إنه يسكن رأسي، يهمس إليّ حتى وهو بعيد عني! مهلاً...

الآن أرى الغرفة بوضوح، هذه ليست غرفتي التي أعرفها! إنها أغرب غرفة رأيته في حياتي. نزعت المفروش عن جسدي، فإذا بي ما زلت أرتدي ملابسني نفسها، الملطخة بالدماء، دماء صانع الدمى اللعين.

لقد كرهت هذه الرواية، وعندما أعود إلى المنزل، سأحرق هذا الكتاب.

- وقّري جهدك، لقد قتلتَه يا آنسة، وأحدثتِ فوضى لا توصف في عالمنا.

اللعنة... إنه يتحدث إليّ مجددًا!

- أين أنت؟ أين أنت أيها الحقير؟!

صرخت بأعلى صوتي، ودوّى صراخي في أرجاء الغرفة، لكن لم يصلني أي رد. علمت حينها أنه يسعى فقط لاستفزاري، لإثارة غيظي، لا أكثر.

نهضت من على ذلك السرير المرتفع، وكأنني كنت على سطح مبنى شاهق، ثم بدأت أتأمل الغرفة المحيطة بي... الغريبة، المرعبة، والجميلة في آنٍ معًا. كانت غرفة لا يمكن اختزال تفاصيلها بنظرة واحدة. كل زاوية فيها تنطق بالغموض والتعقيد، وكأنها قطعة مقطّعة من كابوس قوطي.

تألّف تصميم الغرفة من طراز كلاسيكي قاتم، مستوحى من أساطير الرعب القديمة. الجدران مكسوة بدهان أسود لامع، يعكس ضوء الشموع الخافتة، وتغطيها نقوش دقيقة وغامضة تحمل طابعًا سحريًا يثير الرعب.

في مركز الغرفة، يربض سرير ضخم ذو إطار خشبي أسود، محفور بعناية فائقة، تغطيه أقمشة مخملية باللون الأحمر الداكن، تضفي عليه هالة درامية

ثقيلة.

الوسائد، بلونها الأسود والأحمر، مزينة بتطريز أنيق يبرز رموزًا خفية، توحى بالسحر أو الطقوس القديمة. أما المصابيح، فكانت ثريات معدنية سوداء تتدلى من السقف، تحمل تصاميم تشبه الخفافيش أو الأشواك، وتبعث ضوءًا خافتًا يزيد من رهبة الأجواء.

الشموع الطويلة وُضعت على حوامل معدنية فاخرة، مزخرفة بنقوش تشبه دَوَّامات الجنون، تلقي بظلال راقصة على الجدران؛ لتزيد من توهُّم الحركة والحياة في الزخارف.

كانت الجماجم موزعة بعناية، بعضها فوق الرفوف، وبعضها جزء من الزينة، تحرس المكان بصمتٍ أبدي. وفي إحدى الزوايا، انتصبت مرآة ضخمة، منحوتة بإتقان على هيئة تابوت، تقف وحيدة دون تسريحة، كنافذة إلى عالم آخر، عالم لا يُشبه هذا العالم.

أما الشرفة، فكانت فسيحة وواسعة، ذات أبواب زجاجية بإطارات معدنية سوداء مزخرفة بدقة تنتمي إلى الطراز القوطي ذاته. كانت تطل على مشهد غامض، يوحى بأجواء ليلية، أو حديقة مظلمة تحيط بها أشجار شاهقة، غير أن الرؤية كانت معتمة بفعل الزجاج المغطى بطبقة ضبابية رقيقة، مما جعلني لا أرى بوضوح، لكنني لمحت خيالات لأشجار ساكنة، شككت بأنها تراقبني بصمت من خلف الحجاب الزجاجي.

أرضية الشرفة كانت من رخام أسود لامع، تعكس الضوء الخافت، ومزودة بحواجز معدنية منحوتة على نفس النمط القوطي. لعلَّ هذا ما لفت نظري أكثر... لكن لم يكن ذلك وحده.

إلى جانب السرير، كانت هناك خزانة ملابس ضخمة. وحين حاولت فتحها، وجدتتها موصدة بإحكام. لم يكن في الغرفة سوى ثلاثة أبواب: باب الحمام، باب الغرفة، وآخر ثالث مجهول. باب الغرفة كان مغلقًا تمامًا، أما باب الحمام فقد انفتح بمجرد لمسِه؛ ليكشف عن تصميم لا يقل غرابة عن الغرفة ذاتها، تفاصيله مشبعة بالسحر والرغبة.

الغرفة كانت شاسعة إلى حدٍّ لا يُمكن معه إدراك تفاصيلها كلها بنظرة واحدة. كل زاوية تنبض بسِرٍّ، وكل قطعة أثاث توحى بحكاية غير مروية. الجو العام ينضح بالفخامة المظلمة، كأنني لست في غرفة، بل في عالمٍ آخر، عالم لا يمتُّ للواقع بِصلة.

لكن أيُّ عالم هذا؟

- عالمي.

عاد صوته مجددًا، يتردد في رأسي كأنفاسٍ ساخرة.

حاولت تجاهله، رغم أن كل خلية في جسدي كانت تشتعل بالتوتر. عندها خطرت لي فكرة، فكرة لطالما راودتني، لكن تنفيذها يبدو مستحيلًا وهو قادر على قراءة أفكارِي!

لم أَعُد أرغب بالهرب، بل بالقتل. يجب أن أقتله، يجب أن أنهي هذا الكابوس. ولكن... كيف؟

أحتاج إلى سلاح، إلى شيء حاد، إلى أداة.

وفجأة، عادت إليَّ صورة مشهد من الذاكرة، كيف تم تخديري؟ نعم... ذلك الكائن، الرجل الذي بلا وجه.

لماذا ما زلت أتساءل؟ من هم هؤلاء؟ كيف يبدوون؟ ولماذا يبدو هذا العالم على هذا النحو الغريب؟

لأن عقلي، حتى هذه اللحظة، لا يزال عاجزًا عن الاستيعاب. كل شيء خارج حدود المنطق، وما زلت مؤمنة، بكل خلية في كياني، أنني أعيش كابوسًا، كابوسًا أزيًا. من المستحيل أن يكون هذا واقعًا.

وفجأة، دوى في أرجاء الغرفة صوت بكاء، نحيب فتاة! انقبض قلبي، كان الصوت واضحًا جدًّا، أقرب مما ينبغي، ينبعث من الزاوية نفسها التي أقف فيها.

تسمّرت في مكاني، في منتصف الغرفة، بعينين جاحظتين، ولسان شلّ الخوف. لم أعد قادرة على الكلام أو السؤال.

صوت الفتاة استمر، بكاؤها كان موجعًا، ينفذ إلى العظام، ومع ذلك لم أستطع رؤيتها.

ثم... انفتح الباب.

استدرتُ بفزع، لأرى وجهًا أعرفه جيدًا، وجه "لؤلؤة"، ذات الابتسامة الباردة التي تلازم ملامحها كظلٍّ قديم.

- مرحبًا بعودتكِ، يا آنسة.

قالتها بهدوء شديد، وكأن لا شيء من كل هذا قد حدث.

كان العالم من حولها وريًا، كما لو كانت تمشي بين الملائكة، غير معنية بما يجري.

كانت تحمل صينية طعام، وعصيرًا وماءً، وضعتها على السرير، ثم أخرجت كيسًا قماشياً ووضعته بجانب الصينية.

- في هذا الكيس ملابس جديدة، يمكنكِ الاستحمام وتبديل ملابسكِ.

صرخت بها، والغضب يغلي دمي:

- أين أنا؟!

أجابتنى، مبتسمةً ابتسامة استغزازية، وكأنها هي التي أنقذتني من ضياعٍ لم تصنعه إلا أيديهم:

- أنتِ في أمان. لقد مررتِ بالكثير خلال الأيام الماضية. حدث خطأ ما، وكنا نبحث عنكِ طويلاً... والحمد لله، وجدناكِ أخيراً.

ضحكت بسخرية مريرة، ثم ضغطت على رأسي من شدّة الألم، كأن جمجمتي تغلي بالصداع، وتكاد تنفجر من وطأة الأسئلة.

- أمان؟! أمان؟! أين هو؟ أين ذلك الشيطان؟!

قالت بصوتها الثابت:

- تقصدين... جلالة الملك؟

- مَلِككم أتم، وليس ملكي! أين هو؟! قل لي، أين يكون الآن؟!

- اهدئي، يا آنسة، أنتِ تعلمين جيداً أنني مجرد خادمة هنا. سيأتي قريباً، لديه اجتماعات. عندما ينتهي، سيحرص على المجيء لرؤيتكِ.

ضحكتُ، لكن ليس كما يضحك الناس، بل ضحكت بضحكة هستيرية، تملأها المرارة والجنون، بينما هي لا تزال تنظر إليّ بتلك الابتسامة المريبة.

كنت على وشك الانهيار، جسدي كله كان يرتعش، لكنني تماسكت. وفي لحظة خاطفة، لمح بصري طرف صينية الطعام، كان عليها فواكه وسكين وشوكة.

خفق قلبي بقوة، إنها فرصة، فرصة مثالية.

لكن يجب أن أكبح أفكارى.

يجب أن أقمع جنونى.

سكْتُ، وانتهيت من الضحك. بينما كانت أعيني دامعة.

لم تكن ضحكتي سوى انعكاسٍ للألم، ضحكة اختنقت من شدّة الأسى.

- حسناً، كما تريدون... سأبقى هنا، لكن أخبريه أن يأتي بسرعة.

أجابتنى بصوتها الرتيب:

- لكِ ذلك. تصبحين على خير.

ثم غادرت، وتركتني وحدي... "تصبحين على خير"؟ أيُّ خير هذا وأنا ما زلت

عالقة في هذا المكان الغريب المريب، الذي لا ينتمي إلى عالم البشر!

اقتربتُ من صينية الطعام، محاولةً تشتيت أفكاري عن خطتي. أردت أن

أتناول شيئاً، لا من رغبة، بل لأمنح جسدي المنهك ما يعينه على الصمود. أكلت

بحسرة، وبصعوبة بالغة ابتلعت ما لا أعرف حتى ما هو. وحين انتهيت، نفذت ما

طلُب مني، دخلت إلى الحمام واستحممت.

واجهت مشقة حقيقية في إزالة الدماء المتبيّسة على جسدي، وكأنها حفرت

نفسها في جلدي، جزءاً لا ينفصل. لكنها زالت أخيراً. ارتديت الملابس التي

وضعتها "لؤلؤة" لي: بنطال جينز أزرق، وقميص أسود بسيط.

بدأت أفكر سريعاً: كيف يمكنني أن آخذ السكين دون أن تلاحظ؟ لا شك أنها

ستتفقد الصينية حين تعود. ثم خطرت لي فكرة: سأترك بعض الطعام وبعض

الفاكهة في الطبق، وعندما تأتي لأخذه، سأدّعي أنني لم أشبع بعد، وأني ما

زلت جائعة؛ فمِنذ أيام لم يدخل جوفي طعام.

فكرة جيدة، خطة قد تبدو بسيطة، لكنها قد تنجح.

استلقيت على السرير بيأس وخمول، أحاول ألا أستسلم للنوم. لذلك

جلست معتدلة، مستعدة، فهذه قد تكون فرصتي الوحيدة، ولا أرغب في أن

تضيع.

جلست لساعات - دون مبالغة - أتقلب بين الوقوف والتجوال في الغرفة كفأر سجين داخل صندوق، وبين الاستلقاء والتحديق في السقف، وبين فحص محتويات الغرفة الغربية التي لم أتأقلم معها حتى الآن.

أنا متأكدة أن وقتًا طويلًا قد مر، من المفترض أن الفجر قد اقترب. لكن حين نظرت من زجاج الشرفة المغطى بالضباب، لم ألمح أي ضوء. الليل ما زال سائدًا، كثيفًا، لا ينقشع.

ولم تأتِ "لؤلؤة" لأخذ الصينية، وهذا في صالحه، أمرٌ مريح في هذه اللحظة.

قررت أن أنفذ خطتي. تناولت السكين بخفة، وخبأته عند خصرتي داخل البنطال، ثم أسدلت القميص عليه بعناية. جلست على حافة السرير، جسدي متيقظ، أعصابي مشدودة، مستعدة للحظة الحاسمة، وإن لم أعلم متى ستحين.

انفتح الباب بعد أن بدأ اليأس يتسلل إلى قلبي، لكن... مهلاً، لم يكن هو.

بل كانت "لؤلؤة" تدخل كعادتها، تجرُّ خلفها ابتسامتها المستفزة الباردة.

- أعتذر عن تأخري، لماذا لا زلتِ مستيقظة؟

سألتني بنبرة عادية، ولم تجد مني جوابًا. لم أكن في مزاج للكلام، لم أكن أصلًا في مزاج لأي شيء. تابعت حديثها دون اكتراث:

- سأخذ الصينية الآن.

- لا، اتركها!

صرخت بانفعال مفاجئ، ثم تداركت الموقف بسرعة، فأضفت:

- أقصد... ما زلت أرغب في تناول الطعام، ما زلت جائعة.

- أتفهمك، يا آنسة، لا بأس. سأحضر لك طعامًا جديدًا بعد دقائق، هذا الطعام قد برد.

- قلتُ لك... اتركيه، لا مانع لديّ أن آكله باردًا.

نظرت إليّ باستغراب، وعيناها مليئتان بالشك. شعرت بأن نواياي بدأت تُكشف، وأن عليّ تغيير الخطة فورًا. وحين لمحّت عيني أن الباب ما زال مفتوحًا، أدركت أن الفرصة المثالية قد جاءت، ربما هذه الخطة ستكون أفضل من سابقتها.

وبلا تردد، وبلا وقت للتفكير، وبحركة خاطفة... أخرجت السكين من خاصرتي وغرستها في بطنها!

اتسعت عيناها من الدهول، وارتجف جسدها الممتلئ، وسالت دماؤها بغزارة. لم أكن خبيرة في الطعن، ولا في القتل، لكنني فعلتها. ارتكبت جريمة، أصبحت قاتلة، وكل ذلك بسببهم.

سقطت على الأرض، تتلوى من الألم، ولا تزال تقاوم النهاية. لم أتأكد إن كانت قد ماتت، كنت في حالة من الصدمة والرعب، أشعر وكأنني غرقت في كابوس حيٍّ لا مهرب منه.

بسرعة، التقطت الشوكة من على الصينية، وركضت نحو الباب المفتوح.

لكن قبل أن أخرج، سمعتها تهمس بصوت متقطع، مرتعش:

- لا... لا تخرجي... ستكونين في خطر!

تجاهلت تحذيرها وخرجت من الغرفة. أغلقت الباب خلفي بهدوء، ثم التفتُ لأرى مشهدًا لم يسبق لعيني أن أبصرته من قبل.

هبت نسائم باردة، تسرّبت إلى عظامي كأنها تُسجت من جليد. كان أمامي
ممر طويل، شبيه مظلم، يخترق العتمة بإنارة خافتة مصدرها فوانيس غريبة
الشكل، معلقة على الجدران.

في الهواء رائحة حجارة عتيقة، تشبه رائحة الرطوبة المختزنة في جدران
قلعة قوطية قديمة، كل شيء كان يوحي بالقدم والرهبة.

سرْتُ بخطى مترددة، ثقيلة، مثقلة بالخوف والفضول. كان الصمت مهيمًا،
لا يُسمع سوى وقع خطواتي، تتردد مثل طرقات خفيفة على نعش مفتوح.

التفتُ أكثر من مرة خلفي وأمامي، شعور غريب كان يلاحقني، يبدو أن شيئًا
يراقبني من خلف الظلام. الممر بدا لا نهاية له، يطول كلما سرت فيه، والزمن
يذوب داخله.

بدأ التعب يتسلل إلى جسدي، وقلبي يضرب صدري يرغب أن يهرب هو
الآخر، حتى وصلت أخيرًا إلى مفترق طرق. لكن قبل أن أخطو خطوة واحدة،
سمعت صوت خطوات تقترب.

دون تفكير، التصقت بالجدار، واختبأت خلف الحافة، أخفي جسدي قدر
المستطاع.

كانت الخطوات تابعة لرجلين... حارسين، يرتديان دروعًا سوداء ثقيلة، أشبه
بتلك التي يلبسها الحراس في الروايات الخيالية، لكن مظهرها كان أكثر كآبة،
وأكثر غرابة، وكأنها صُنعت في جحيمٍ لا نور فيه.

توقفا على بُعد أمتار، وبدأ حديثُ دار بينهما، كنت أسمعه بوضوح:

- هل سمعت ما حدث؟

سأله الأول، بصوت خافت متوتر.

فأجابه الآخر بسخرية:

- مجرد إشاعات، تتردد منذ قرن.

لكن الحارس الأول تتم بنبرة أكثر جدية:

- صدّقني، الأمر حقيقي هذه المرّة، يقال إن جيش الظل بدأ يزحف نحونا في صمت.

رد عليه الآخر بلامبالاة، يبدو أن الكلمات لم تترك في قلبه أثرًا:

- وهل تظن بأنهم قادرون على سحب الحكم الذي استمر لعقود طويلة مع عائلة المؤسس؟

- ومن يدري؟ الجميع في المملكة يعلم أن الملك متهور، طائش، يفتقر إلى الحكمة التي امتلكها والده، وجدّه، بل وحتى شقيقه.

التفت الحارس الآخر يمينًا ويسارًا، وقد ارتسم التوتر على وجهه، ثم جذب صديقه من ذراعه وهمس بنبرة حادة:

- أيها المجنون! هل تريد أن ينتزعوا قلوبنا وبُعَلُوا أجساد أولادنا في ذلك الوعاء الضخم؟ اخفض صوتك، ولا تُشكك في ملكك!

أجابه الآخر بهدوءٍ مُرٍّ:

- أنا لا أشكك به، بل أقرُّ بأنه الأقوى والأكثر شرًّا. الجميع يعلم ذلك، والجميع يخشاه. الكل يعلم أنه لم يرغب يومًا في أن يكون ملكًا، لكنه أصبح كذلك، وجلب الهلاك في ركابه.

- كفى! لقد سئمت من هذيانك. سأذهب إلى البرج قبل أن أكتب بيدي خاتمتي.

ثم غادرا، يسيران في الاتجاه المعاكس، بينما كنت واقفة هناك، أكتم أنفاسي بصعوبة، أرتجف خوفاً، لكن فضولي كان أشد من خوفي.

عمن كانا يتحدثان؟ هل كان المقصود هو "ويليام"؟ وهل المملكة مقبلة على حرب؟ ومن هم هؤلاء أصلاً؟

تابعت طريقي بخطى متسارعة، لا أدري إلى أين أذهب.

حتى وصلت إلى باب مزدوج، لونه أحمر قاتم، تغطيه نقوش غريبة تلامس الخيال.

دون تردد، دفعت الباب بكلتا يديّ. كان ثقيلاً، لكنّه انفتح بصرير مرعب يشبه أنيناً قادماً من أعماق الظُّلّة.

دخلت، لأجد نفسي في ساحة أو قاعة دائرية شاسعة، جدرانها الحجرية ذات لون رمادي كئيب. امتدت أمامي أعمدة حجرية ضخمة ترتفع إلى الأعلى بشكلٍ مذهل، حتى حُيِّلَ إليّ أن لا نهاية لهذا المكان.

على الجدران، كانت الفوانيس معلّقة في كل اتجاه، تُضفي على الفضاء هبةً وجمالاً غريبين، تنبعث منها إنارة هادئة تشبه الضوء المنبعث من حلم كابوسي.

سيرتُ بانبهار تام، نسيت للحظةٍ أنني في حالة هروب.

كل شيء كان يثير في داخلي خليطاً من الدهول والرعب. كانت الأعمدة مزوّدة بفتحات مرصوفة بنظام دقيق، اقتربت منها لأرى ما بداخلها؟

وكانت المفاجأة.

ليست كتباً... بل وجوه!

وجوه حقيقية! بشرية! منتزعة بعناية مريعة!

لم تكن أقنعة، بل وجوه كاملة، سُلِخت من أصحابها وعلّقت هنا كشهادات على الجنون.

كانت الأرفف تمتلئ بها حتى بدا أنها بالمئات، بل الآلاف، بل الملايين، دون مبالغة!

واصلت التجوال بين الأعمدة في صمت مذعور، أتمتم لنفسي:

- أهذه حقًا وجوه بشرية؟ كيف تمكّنوا من انتزاعها بهذه الدقة المريعة؟

كلما تعمّقت في المكان، ازداد جماله، لكن جمالًا مخيفًا، آسرًا حدّ الرعب.

كانت هناك على الجدران أيضًا العديد من اللوحات المعلقة، لوحات مرسومة بأنماط غريبة، بعضها مخيف، وبعضها مقزز، وبعضها أشبه بمتحف نادرة في متحفٍ شيطاني.

وفي زوايا المكان، توزّعت شمعدانات مزخرفة، بديعة الصنع، مرصعة بأحجار داكنة. التقطتُ أحدها، كان يحمل ثلاث شمعات طويلة سوداء، أما الشمعدان نفسه فكان أسود اللون، منقوشًا عليه عيون حمراء تلمع كأنها تراقب.

سِرت بالشمعدان بين الأعمدة، أضيء به طريقي، رغم أن المكان لم يكن مظلمًا تمامًا، لكنه كان بحاجة إلى نورٍ آخر، نورٍ يحمل في طيّاته طمأنينةً لم تكن موجودة في ذلك العالم. كان المشهد مبهّرًا، ساحرًا بطريقة مخيفة، يأسر الحواس ويجمد التفكير.

وفي إحدى الزوايا البعيدة، لمحت فجوة كبيرة في الحائط. كانت تلك الفجوة ينبعث منها ماءٌ صافٍ، يسيل في فم تمثال صغير ذي هيئة شيطانية.

التمثال كان يحمل ملامح مفزعة: قرون تخرج من جانبي رأسه، وعينان جاحظتان، وفمٌ مفتوح يصرخ، يتلع الماء المنحدر من عمق الجدار، يصرخ

عطشًا منذ قرون.

اقتربتُ أكثر من الفجوة والتمثال، رغبةً في معرفة مصدر الماء، إلى أين يذهب؟ ومن أين ينبع؟

لكن، وفي لحظة هدوء مطبق، وبينما كنت أنصت لصوت الماء، قفز قلبي فجأة...

صوت دندنة خفيفة بدأ يتردد في المكان، قادمًا من جهة مجهولة! شعرت بالهلع، وبدأت أتحرك بخطى سريعة. تسللت بين الأعمدة الضخمة، واختبأت خلف أحدها، أراقب المكان بعينين مذعورتين. لكن الصوت كان يزداد وضوحًا، لم يُعد يأتي من جهة واحدة، بل من كل الجهات.

من اليمين، من اليسار، من الأمام، ومن الخلف.

كأن الصوت يطوّقني!

بدأت أتنقل بخفة وارتياء، أختبئ خلف عمود، ثم أهرب إلى آخر، ثم ثالث، دون أن أعلم أين يكون صاحب ذلك اللحن.

لكن فجأة، شممتها، تلك الرائحة!

رائحة أعرفها أكثر من أي شيء آخر، رائحة لا تُشبه سواها، رائحة عطره.

اللجنة... إنه هو.

إنه "ويليام".

- هل تعرفين هذه الموسيقى؟

رَنَّ صوته الحاد في أرجاء القاعة، صدى كلماته ارتطم بالحجارة، واخترق أعماقي، لكنني لم أره.

ثم تابع حديثه، يستمتع بتمزيق ثباتي:

- كان والدك يأخذك كثيرًا إلى هذه المسرحية، قرأت الرواية سبعين مرة، وشاهدت المسرحية أربعين مرة، منذ طفولتك... وحتى في عيد ميلادك السادس والعشرين، أليس كذلك؟

كان يسرد تفاصيل من حياتي لم يعرفها أحد إلا أنا.

نعم، إنه يتحدث عن تلك المسرحية، تلك التي عشقتها منذ الطفولة. انقبض قلبي من جديد، تجمّدت أطرافني؛ إذ أدركت الحقيقة مجددًا، رغم أنني ظننت أنني ألفت صدمتها.

كيف ما زلت أندهش؟ كيف ما زلت أرتجف؟

هو يراقبني... منذ طفولتي، وحتى هذه اللحظة.

ذلك الرجل المقنّع الذي كنت أراه دومًا، في الزوايا، في الظلال، في أحلامي، وفي يقظتي!

لم يكن وهمًا كما ظننت، ولم يكن خيالًا كما أقنعوني.

كان حقيقيًّا.

كان هو.

كان "ويليام"!

في كل خيالاتك وأوهامك وكوابيسك.

كنتِ ترين دومًا ذلك الرجل المرعب المقتنع

لكن، أما أدركتِ الحقيقة؟

لقد كان كليهما فيك.

كان كل شيء من نسجك.

كان من صنع خيالك.

كان انعكاسًا لكتابتك... لا أكثر.

الفصل الثامن

الشبح داخل عقلك



من الذاكرة:

- لا وجود للأشباح، يا أميرتي... لعلَّ الشبح لم يكن سوى وَهْم يسكن عقلك وحده.

أستيقظ من نومي، تطاردني تلك الذكريات دومًا، وخصوصًا حين لا أحد يصدقني؛ لا أبي، ولا أخي، ولا حتى طبيبي النفسي، لا أحد منهم يؤمن بأن هناك شبحًا يلاحقني.

اليوم يومٌ مميز، إنه عيد ميلادي السادس والعشرون. سيكون هذا العام أكثر تميُّزًا؛ لأن والدي قرَّر أن يجعل منه يومًا لا يُنسى. سيُقام حفل توقيع ومناقشة لأعمالي مع قرائي.

أحبُّ في أعياد ميلادي أن ألتقي بأولئك الذين يقرأون لي ويشاركونني شغفي. سأوقِّع على جميع إصداراتي، لا سيَّما الإصدار الأخير الذي يحمل عنوان "في أحضان الوحش".

وبعدها، وكما اعتدنا في عائلتنا، سنذهب سوياً لحضور المسرحية الأقرب إلى قلبي، والأكثر شهرة على مرِّ العقود: "شبح الأوبرا".

ارتديتُ ملابس أنيقة تليق بحفل التوقيع والمناقشة. وصلتني باقة من الزهور، ورسالة تهنئة من صديقي "إيثان". صعدت إلى السيارة متوجَّهةً إلى مكان اللقاء.

ما إن وصلت، حتى انقضى الوقت سريعاً بين أحاديث القراء والهدايا والابتسامات الدافئة. وبينما كنت أوقِّع للزائر الأخير، وقفت فتاة صغيرة في الصف، تنتظر دورها.

- كم عمرك؟

سألتها باستغراب؛ إذ بدا واضحاً أنها لم تتجاوز العاشرة من عمرها، وروايتي لا تناسب الأطفال إطلاقاً.

لكن الفتاة لم تُجب، بل كانت شاردةً، تنظر إلى الأفق البعيد.

- هل أنتِ وحدكِ هنا؟

سألتها ثانيةً، لكنها لم تَرُد، واكتفت بالصمت والنظر إلى جهة أخرى.

التفتُ إلى حيث كانت تُحدِّق، لم يكن هناك أحد.

- لا أظن أن الرواية تناسبكِ، لكن على أي حال، لمن ترغيبين أن أوقِّعها؟

كان اليوم عيد ميلادي، وكان قلبي مفعماً بالفرح؛ لأن عائلتي اجتمعت فيه، ولم أرغب أن يُفسد أيُّ غريب هذا اليوم. لذلك قررت أن أوقِّع لها.

فقلت بصوتٍ مرتجف:

- باسمِه هو...

- مَنْ؟ ما اسمه؟

سألْتُها، ظلًّا مني أن الذي قصَدْتُهُ ربما يكون شقيقها أو والدها، أو لعلَّ أحدًا ما قد أرسلها إلى هنا. لكنَّ إجابتها كانت مختلفة تمامًا... التفتت يمينًا ويسارًا بنظرات مرتابة، ثم اقتربت مني، وبصوت خافت:

- باسمِ الشيخ، إنه هنا.

لم أشعر بالخوف، فقد اعتدت مثل هذه المواقف من قبل، لكنها مع ذلك أثارت في نفسي شيئًا من الغرابة والريبة، وربما القلق. عادةً ما تأتيني تعليقات غريبة من المراهقين، أو من كبار السن المهووسين بأعمالي وشخصياتي. لكن أن تأتي من طفلة لم تتجاوز العاشرة؟! كانت تلك سابقةً أولى.

ورغم هذا، تجاهلتُ الأمر، ووقَّعت لها الإهداء باسم "الشيخ"، فكتبت:

"إلى الشيخ: أتمنى لك كوايبس ممتعة".

ثم قلت لها بسخريةٍ خفيفة:

- تفصِّلِي... ولا تنسي أن ترسلي قبلاتي إلى الشيخ.

أخذت الطفلة الكتاب دون أن تنطق بكلمة، ثم مضت مبتعدة. تابعتها بعينيَّ، آملَةً أن أراها تسير برُفقة أحد من البالغين أو من أفراد عائلتها، لكنها سارت وحدها، حتى تلاشى ظلُّها واختفت عن ناظري.

انتهى حفل التوقيع، وحلَّ المساء. عدت إلى المنزل لأبْدُل ملابسي استعدادًا لحضور المسرحية والاحتفال بعيد ميلادي. ارتديت فستانًا أحمر طويلاً، وانتعلت

حذاءً بكعبٍ عالٍ أسود ذي حواف حمراء. صَفَّفت شعري بشكلٍ مجعَّد وكثيف،
دون أن أضع الكثير من مساحيق التجميل، اكتفيت فقط بأحمر شفاه داكن،
باللون الأحمر القاتم.

ارتديتُ معطفاً من الفرو الأسود، قالت أُمِّي إنه كان لها عندما كانت في
مثل عمري. لكنني لم أفهم، هل كانت تعني أنه يخصها هي، أم كانت تقصد
أُمِّي "سارة"؟

ازداد ارتباكي حين خرجتُ إلى والدي، فرأيت في عينيه نظراتٍ غريبة،
كانت مزيجًا من الفرح، والحزن، والدهشة.

قال لي حين رأني:

- إنكِ تُشبهين أُمكِ كثيرًا.

كنت أستغرب دائمًا لماذا يتحدث أبي أحيانًا عن أُمِّي بصيغة الماضي، وكأنها
لم تُعد موجودة، بينما هي تعيش معنا. الآن فقط بدأت أفهم...

توجَّهنا إلى أكبر المسارح في المدينة، إلى دار الأوبرا التي تُقام فيها أشهر
العروض والمسرحيات العالمية.

دخلنا من البوابة الكبيرة، وجلسنا في مقاعدنا. وبينما أجواء المكان تغمُرنا،
شعرْتُ وكأنني دخلتُ أعماق روايةٍ ساحرة.

كل شيء كان غارقًا في الجمال القوطي الداكن: الديكور، أزياء الجمهور،
الأضواء، والموسيقى، كل تفصيلةٍ كانت تنطق بسحرٍ خاص.

بدأ العرض، وارتفعت الحماسة في القاعة. لم أكن وحدي مَنْ تحمَّس،
فمعظم عشاق الفن قد شاهدوا هذه المسرحية عشرات المرات، بل إنني بتُّ
أحفظ حواراتها عن ظهر قلب.

كانت المسرحية هي "شبح الأوبرا" (Phantom of the Opera)، وتدور قصتها حول "كريستين دابيه"، مغنية أوبرا شابة تبهر الجميع في أول ظهور لها خلال حفل تقاعد المديرين القدامى في دار الأوبرا.

يسمع غناءها صديق طفولتها "راؤول"، فيتذكر حبّه القديم لها. وفي الوقت ذاته، تنتشر الشائعات حول وجود شبح يسكن دار الأوبرا في باريس، يعلن عن نفسه من خلال أفعالٍ عدائيةٍ ورسائلٍ مهدّدةٍ يرسلها إلى المديرين.

وبعد مضيّ بعض الوقت، تُقرر دار الأوبرا تقديم عرضٍ موسيقي بعنوان "فاوست"، وتُسند الدور الرئيسي إلى "البريما دونا كارلوتا"، رغم معارضة الشبح الصارمة.

وخلال العرض، تفقد "كارلوتا" صوتها فجأة، وتتدلى الثريا الكبرى من السقف، منهارةً فوق رؤوس الحضور في مشهدٍ مرعب، إيذانًا بأن الشبح لا يمزح...

اختطف الشبح "كريستين" واقتادها إلى مسكنه الكائن في أقبية دار الأوبرا، وهناك عرّفها على نفسه باسمه الحقيقي: "إريك". كان ينوي احتجازها في منزله لبضعة أيام، آملًا أن تُبادلته مشاعر الحب.

لكن "كريستين" قلبت موازين خطته، حين نزعت القناع عن وجهه، الأمر الذي أربع كليهما معًا؛ إذ رأت وجهًا بلا أنف ولا شفاه، يضمّ عينيْن غائرتين في جمجمةٍ كأنها تحللت منذ قرون، تغطيها بقايا لحم أصفر ميت.

حينها قرر "إريك" أن يبقّيها معه إلى الأبد، خشية أن تهرب ولا تعود. لكن بعد مرور أسبوعين، طلبت منه "كريستين" أن يُطلق سراحها، فوافق بشرطٍ واحد: أن ترتدي خاتمه وتظل وفيّةً له.

بدأ عرض المسرحية بشكلٍ طبيعي، واستمر قرابة ساعة. لكن، قبيل ظهور شخصية الشيخ المقنّع، انطفأت الأنوار فجأة... وظهر هو!

في البداية، ظننا أن ذلك جزء من العرض، غير أن حالة الاضطراب بين الجمهور والعاملين أثارت شكوكنا.

لكنهم تداركوا الموقف بسرعة، فعادت الكهرباء مجددًا إلى القاعة. وحين عاد الضوء، كان من المفترض أن يظهر الشيخ ليؤدي دوره بالغناء، وقد ظهر، لكنه بدا مختلفًا تمامًا.

للمرة الأولى، كان يرتدي قناعًا ذهبيًا كاملاً، وهذا غريب؛ فـ"شيخ الأوبرا" معروفٌ بقناعه الأبيض الذي يغطي نصف وجهه فحسب.

أما القناع الذهبي، فقد كان مخيفًا، ذا ملامح ملساء قاسية ومجهولة. رأيتُ الدهشة مرسومة على وجوه طاقم التمثيل، وكأنهم لم يتعرفوا على مَنْ أمامهم، وفعلاً، لم يكن هو.

علت الموسيقى، وبدأت الممثلة في الغناء، بينما ظل هو صامتًا، يكتفي بالمشي على المسرح بخطى غريبة متعرجة، كما لو أنه يطوف داخل كابوس. بدأ الهمس يسري بين الحضور وأفراد الطاقم: "ما به؟ لماذا لا يتحدث؟ لماذا لا يغني؟".

ثم، فجأة وقف في منتصف المسرح، ونظر نحوي مباشرة. أنا متأكدة رغم أن عدد الحضور كان يتجاوز الألف، إلا أن نظرتَه كانت موجّهة إليّ وحدي.

أنا أعرف هذا الشخص، أنا أعرف هذا الشيخ!

بدأت أنفاسي تضيق شيئًا فشيئًا، ثم خيمَ الظلام من جديد!

تعالّت أصوات الجمهور بالاستياء، وبدأ المسؤولون يعتذرون عمّا حدث.
أما أنا، فقد شعرت بالاختناق، وأخبرت والدي أنني سأذهب إلى دورة المياه.
ركضت خارجةً، أحاول أن ألتقط أنفاسي، أزيح المقاعد وأتجاوز الحشود،
بعدها رأيته!

كان يقف في منتصف الصفوف، ساكنًا تمامًا، ينظر إليّ.
وبعدها... اختفى، وكأنه لم يكن قط!
عادت الأضواء بعد قليل، وانتهت المسرحية، وعُدنا إلى المنزل.
لكنني لا أعلم، لماذا تحدث هذه الأمور معي وحدي؟
لماذا، في كل مرة أراه فيها، يخبرني الجميع أنه مجرد وهم؟
يعاملونني كأنني مجنونة، لكنّه كان حقيقيًّا، حقيقيًّا أكثر مما أكون أنا.

"الحاضر"

بينما كان يواصل الدندنة، صَفَّقَ بيديه، وما إن فعل ذلك حتى أضاءت الوجوه المعلّقة على الأعمدة! أضاءت على نحو غريب، فغمر المكان وهجٌ ساحر وجمال مفاجئ. شردت للحظاتٍ في الأفق المسحور، ثم فجأة، بدأ يغني تلك الأغنية ذاتها من "شبح الأوبرا"! ومع كل نغمة، كان صوته يقترب أكثر فأكثر من كل الاتجاهات. كنت أركض بخفة بين عمودٍ وآخر، وهو خلفي. أعلم جيدًا أنه يعرف مكاني، لكنني ما زلت أستمرُّ في الإنكار.

- أثناء نومي، أنشد لي، جاءني في الأحلام.

ذلك الصوت الذي يناديني.

ويتلفّظ باسمي همسًا.

أُثْرائني أحلم من جديد؟

الآن، أوقن أنني أجد شبح الأوبرا هنا.

مستقرًّا في أعماق ذهني.

أواصل السير على أطراف أصابعي، بخفّة.

أتنقّل بين عمودٍ وآخر.

في حين يتعقّبني بخطى ثقيلة.

كأن الموت نفسه يمشي خلفي!

غنّ لي مجددًا:

- دع ثنائيتنا العجيبة تتردّد في الفضاء.

سطوتك عليّ تزداد.

تكبر في داخلي شيئاً فشيئاً.

وإن ابتعدت للحظة.

لتلقي نظرة سريعة.

يظلُّ شبح الأوبرا هناك.

عالقاً في عقلي.

قلبي يخفق بعنف.

وجسدي يرتجف.

يقترّب ذلك الغريب مني.

لا أراه، لكنني أسمع صوته.

بينما هو يراني!

أما أولئك الذين رأوا وجهك.

فقد ارتدُّوا مذعورين.

وأنا... أنا القناع الذي ترتديه.

أنا الذي يسمعونه.

أحاول أن أكتُم أنفاسي، أُسرِع خطواتي أكثر، أشعر بأنني تُهت في هذا
المكان ولم أَعُد أعرف كيف أخرج؟

روحي روحك، وصوتي صوتك.

في واحد مجتمِع.

شبح الكتابة هنا هناك

داخل عقلك وعقلي

أصبح يتلاعب بالكلمات ويغيّرُها كما يشاء لكي تناسب جنونه!

في كل خيالاتك

كنت تعرفين دائماً

ذلك الرجل الغامض

هل كان كلاهما مزيف! أم مِن صنعك؟

وفي هذه المتاهة

حيث يكون الليل أعمى

شبح الكتابة هناك وهنا

داخل عقلك..

اقترب أكثر مني، أستطيع أن أشتّم رائحة عطره، لكنني لا أراه، حتى عندما

التفت خلفي لا أراه!

اكتبي يا ملاك الكتابة الخاص بي!

اكتبي!

اكتبي من أجلي!

لقد أحضرتك.

إلى مقر عرش الكتابة الحلوة.

إلى هذه المملكة حيث يجب على الجميع تكريم الكتابة والمؤلفين.

لقد أحضرتك إلى هنا.

لغرض واحد، وواحد وحده.

منذ اللحظة التي قرأت فيها كلماتك لأول مرة.

كنت بحاجة إليك معي لخدمتي، والكتابة.
من أجل مملكتي.

انتهى من الغناء، بينما كنت واقفة خلف أحد الأعمدة، قلبي يرتجف، أختبئ
في صمت قاتل. وفجأة، شعرت بشيءٍ يمسك قدميَّ. خفق قلبي بقوة،
فخفضت رأسي ببطء لأنظر إلى الأسفل... وإذا بي أرى جسداً بلا أطراف،
مجرد جذع ورأس، يزحف بصعوبة فوق قدميَّ، ينازع الموت!

صرخت بأعلى صوتٍ لديَّ، وانطلقت أركض من دون أن ألتفت، خطواتي
تتسارع، لكن صوته كان يقترب أكثر فأكثر. ركضت بأقصى ما أملك من قوة،
بين الأعمدة الطويلة المزينة بوجوهٍ معلقة، حوّلت المكان إلى متاهةٍ مرعبة.
كان تارةً يدندن، وتارةً يضحك، وأخرى يناديني باسمي: "ماريان".

سقط الشمعدان من يدي، ووصلت إلى زاويةٍ قاتمةٍ لا أعرفها. لم أدرِ من
أين خرج هذا الطريق! كنت ألهث في محاولةٍ لالتقاط أنفاسي التي تفرّقت
في خضمّ هذه المطاردة، وقلبي لا يزال ينبض بعنف جنوني. لم أعُد أسمع
صوته... ثرى، هل تاه عني؟

- من المستحيل أن أضيعك من يدي.

جاء صوته من خلف أذني مباشرة.

صرخت بفزع، وما إن هممت بالفرار حتى أمسك بي!

- أخيراً، عدت إليّ... من الغريب أنك ما زلتِ على قيد الحياة حتى الآن! آه،
نسيت، لا أحد يستطيع قتلك سواي!

قبض عليّ بيديه، تلك القبضة التي لم أشعر بها منذ زمن، وبدأ يسحبني بينما
أقاوم وأصرخ، وهو كعادته يستمتع.

لكنني تذكرت الشوكة التي التقطتها من صينية الطعام. بسرعة، سحبتها من جيبي، واستحضرت في لحظةٍ مشهد صالة الطعام حين علّمني كيف أكون حاسمة وسريعة في القتل، علّمني كيف أقتله! نعم، لقد قتلتُ رجل الدمى، و قتلتُ "لؤلؤة"، وها هو دوره الآن.

وبحركة خاطفة، غرست الشوكة في عنقه!

ساد صمت ثقيل، ويداه تنسحبان عن جسدي كأنما فُكَّ السحر. أفلتني، وحركاته مشوشة، كأن عقله لم يستوعب ما حدث. وضع يده على رقبته النازفة، والدماء تتدفق منها بغزارة، وارتعش جسده.

أما أنا، فخطوات خطوات مترددة إلى الخلف، جسدي كله يرتجف أكثر منه. كان قلبي يخفق بعنف، وخلايا عقلي مصدومة، لا تكاد تصدّق. لقد فعلتها، لقد قتلت ذلك الشيطان. سقط جسده على الأرض بعد عراك مع الألم، سقط ميتًا، مات "ويليام"!

عاد المكان كما كان، تمامًا كما دخلته أول مرة، سكونٌ مخيف يخيم عليه، لا يُسمع فيه سوى صوت الصمت الثقيل، ولا يُرى فيه سوى تلك الوجوه المعلّقة التي تراقبني مثل شهود عيان على جريمتي، جريمة قتلي لملكهم.

لم أفكر كيف سأهرب، ولا كيف سأخرج من هذا المكان، ولا حتى بما سيكون عقابي إن ألقوا القبض عليّ. كلُّ ما استحوذ على تفكيري في تلك اللحظة هو شيءٌ واحد فقط: أريد أن أرى وجهه!

نعم... الفضول، ذاك الذي ينتصر دائمًا، ذلك الشخص الذي دمّر حياتي، واختطفني منذ أربعة أشهر؟ أم خمسة؟ أو ربما عامٍ كامل؟ لم أعُد أذكر؟ لم أعُد أعي أيّ زمن نحن فيه، ولا في أي وقت نعيش. طوال تلك المدة لم أر وجهه، ولو لمرة واحدة على الأقل، عليّ أن أشبع فضولي الآن.

اقتربت من جسده الممدّد، بينما كان الخوف يلتهمني والتعرق لا يكفُّ عن التساقط من جبيني. جسده كان غارقاً في بركة من الدماء، ولم أَعُدْ قادرة على التنفس من شدة الرعب. لكن، لماذا أنا خائفة؟ إنه ميت! أجل، ميت. ورغم ذلك، يبدو مرعباً حتى في موته!

جثوث على ركبتيّ وسط الدماء، مددتُ يدي المرتجفة، التي كانت بالكاد تطيعني، نحو وجهه، نحو القناع. أمسكتُ به أخيراً، أنفاسي تتلاشى، وقلبي يبدو سقط في معدتي. أأسحبه؟ نعم، سأكشف وجهه، وإن كنت لا أدري ما الذي سأجنيه من ذلك؟ ربما كان من الأفضل الهرب بدلاً من إضاعة الوقت في فضولٍ قاتل.

لكن الفضول... لطالما كان المنتصر، وكان "ويليام" محقاً حين ناداني بملكة الفضول.

اسحبيه بسرعة ولينتهِ كل شيء!

سحبته، وهنا وقعت الصدمة.

اتسعت حدقتا عينيّ، توقف قلبي عن النبض للحظة، وارتجف جسدي بقوة، ثم تراجعَت إلى الخلف صارخةً بهلعٍ مما رأيت!

كان الوجه مجرد هيكل عظمي متعفن، كأن الزمن قد مضى عليه مئات السنين! ملامحه مشوهة، فاسدة، لا حياة فيها. شهقتُ شهقة متقطعة، ألهث، وعياني معلقَتان على ذلك الجسد المتهالك.

وفجأةً، ومن خلفي، جاء صوتٌ مألوف:

- مفاجأة!!!

التفتُ برعشة، وإذا بي أرى "ويليام" واقفاً خلفي، حيّاً يُرزق، بجسده الكامل، وقناعه، وملابسه الأنيقة!

كنت جالسة على الأرض، غير قادرة على استيعاب ما يحدث؟ أنظر تارةً إلى الجثة، وتارةً إلى "ويليام" الواقف أمامي بكامل صحته! كيف حدث هذا؟! هل كنتُ أحلم؟ هل هذا كابوس؟

ضحكُ ساخرًا، وقال باستهزاء:

- ما بالكِ "ماريان"؟ هل رأيتِ شبحًا تَوًّا؟

نهضتُ واقفة على قدميّ، وجسدي يرتجف بالكامل، وسقطتُ دمة من عينيّ، ثم تمتمتُ بيأس:

- لا، هذا مستحيل، كل شيء هنا غير حقيقي!

اقترب مني بخطى ثابتة:

- بل كل شيء هنا حقيقي، بل حقيقي أكثر منك. لكن يجب أن تنظري إليه بعين الحقيقة، لا بعين الإنكار. أنتِ يا "ماريان" كاتبة، تملكين خيالًا واسعًا، وعلى عقل الكاتب أن يصدّق ما يكتبه، أليس كذلك؟

كانت يداي ترتعشان بشكلٍ لا إرادي، ومغطاتين بالدماء. اقترب "ويليام" أكثر، وأمسك بيديّ، وما زال يبتسم بسخرية قائلاً:

- لا أفهم... لماذا كل هذا الخوف؟ يُقال إن القاتل يرتجف في جريمته الأولى فقط، ثم يعتاد على الأمر. وأنتِ، حتى الآن، قد قتلتِ ثلاثة، فلماذا ما زلتِ ترتجفين هكذا؟

سحبتُ يديّ من قبضته بسرعة، وقلت بصوتٍ مرتجف:

- أعني... وحوش! لقد قتلتُ وحوشًا فقط! أخبرني من أنتم؟ وما أنتم بحق الجحيم؟

اقترب أكثر، فتراجعت إلى الخلف أتعثر بخطاي، حتى وصل إلى أذني
وهمس بنبرة خافتة:

- ستعرفين قريبًا، لكن أولًا عليك أن تعودى إلى عملك. لقد انتهت إجازتك،
هيا لتُعِد إلى الكتابة.

ما إن أنهى كلماته، حتى جذبني من يدي بعنف، وما زلت أُصرُّ على
المقاومة. شعرت كأن ذراعى سٌقتل من موضعها، كما اعتدتُ مع كل مرة،
لكنني تمسكت بعنادي، أصرخ وأطالبه بأن يتركني.

وحين ملَّ من مقاومتي، التفت إليَّ بنظرة حانقة، ثم جذبني نحوه بقوة
أشد، حتى سمعت طقطقة عظامي تتألم تحت قبضته، ثم قال بصوت غاضب:
- أترغبين في معرفة لماذا أطلقْتُ سراح والدتك؟

نظرت إليه بعينين تقدحان بالدموع والغضب، ورددت عليه بسؤال خائق،
صوتي مملوء بالألم:

- أريد أن أعرف لماذا دمرت حياة أُمي؟ لماذا قتلَها وقتلت شقيقتي؟ لقد
دمرت كل شيء، منذ تلك السنوات، وحتى الآن!
ضحك بسخرية باردة.

- لم أقتل أحدًا، الجنون هو مَنْ قتلها.

ثم اقترب أكثر وهمس بخبث:

- والآن، سأخبركِ مَنْ تكون والدتك الحقيقية... فهل أنتِ مستعدة لتحمل
الحقيقة؟

نطقها بلؤمٍ خبيث، بينما كان قلبي ينبض بعنف جنوني. كررت في داخلي،
كأنني أحتمي من كلماته:

- لن أصدّق... لن أصدّق ما يقوله هذا الشيطان!
إنه يحاول فقط أن يُخفي جرائمه البشعة خلف ستار الأكاذيب.

الفصل التاسع

صفقة تبادل مع الشيطان



- أبي، لماذا يتعيّن علينا أن نخفي الماضي عن شقيقتي "ماريانا"؟ أما تخشى أن يأتي يوم تكتشف فيه الحقيقة كاملة؟

سأل "موريس" والده بيأس؛ إذ كان الوحيد الذي يحمل عبء ذلك الماضي الكالح وذكرياته السوداء. صرخ والده كعادته بعصبية هائلة:

- كانوا في رأسي، طوال الوقت في رأسي! لم أحتمل همساتهم التي لم تفارق عقلي، تلك الهمسات قتلتني، والجنون التهمني!

ثم أردف بصوتٍ منكسر:

- كانت "سارة" تردّد هذه الكلمات منذ عودتها إلى المنزل. لم تكن والدتك على ما يرام، لم تكن طبيعية لقد تخلّت عن عقلها هناك، في ذلك المكان

المجهول، وعادت برأسي فارغ.

والآن، ليس أمامنا سوى أن نحاول نسيان كل شيء. لقد سُلبت مني ابنتي ذات يوم، ولن أسمح بأن تُسلب مني الأخرى، لن أدع الجنون يلتهمها كما التهم "سارة"... لن أدع الموت يخطفها.

واصل "ويليام" سحبي من معصمي عبر الدهاليز الحجرية الغربية حتى بلغنا ممراً آخر. هناك، توقف فجأة حين لمح شخصاً قادماً نحونا. كان رجلاً في منتصف الثلاثينيات تقريباً، طويل القامة، ذا بنية قوية ومتناسقة، حنطياً البشرة، عيناه تلمعان كبريق الزجاج بلون أشبه بومضات البرق، نظراته غريبة تثير القلق.

كان شعره الأسود يصل إلى كتفيه، ومجعد قليلاً، ويرتدي ملابس أنيقة توحى بأنه من نبلاء العصور الوسطى. ملامحه الحادة والجامدة عكست مزيجاً من الجدّة والغضب الدائم، وعلى خصره كان يتدلّى سيف ضخم غريب الشكل تزيّنه نقوش دقيقة.

اقترب الرجل حتى وقف أمامنا، وحدّق بي بنظرات غامضة تتلاعب فيها أسئلة لا حصر لها، ومع ذلك، لم أعُد أستطيع، بغباء، أن أطلب النجدة؛ فقد أدركتُ أن كل من هنا هم أتباعه وأعوانه.

انحنى الشاب أمام "ويليام" باحترام، وقال بصوت عميق تسرّب إلى أعماقي برداً غريباً، ولسببٍ لا أفهمه شعرت من صوته وهيئته بأنه على قرابة من "ويليام"، رغم أنني لا أعرف حتى ملامح وجه "ويليام" بشكلٍ دقيق لأقارن بينهما:

- جلالة الملك، ثمة أمرٌ عاجل يستدعي وجودك في قاعة الاجتماعات.

قالها بلهجة صارمة وهو يتجاهل النظر إليّ.

رفع "ويليام" يده وسأل بفتور:

- الآن؟

أجابه الشاب بثبات:

- نعم؛ لأن الملك السابق هناك.

ضحك "ويليام" بسخرية:

- وماذا عساي أن أفعل له؟ هل نقيم له احتفالاً؟

انعكست على وجه الشاب علامات الضيق، لكن "ويليام" لم يُعره اهتمامًا،

بل واصل حديثه بلامبالاة:

- تولّ أنت كل شيء، فأنت نائبي ومساعدى ومستشارى، أليس كذلك؟ أنا

لست متفرغًا لهذا الآن.

ثم تجاهل الشاب كليًا، رغم نظراته الغاضبة التي بدت وكأنها تقول: "أيُّ

انشغال يمكن أن يكون أهمّ من هذا؟ خصوصًا مع فتاة تافهة كهذه؟".

لكن "ويليام" واصل السير وهو يجُرُّني خلفه، بينما لزمْتُ الصمت تمامًا،

وعقلي يعجُّ بعشرات الأسئلة حول ما يجري من حولي.

أخيرًا وصلنا إلى الغرفة التي قُتلت فيها "لؤلؤة". كانت الغرفة قد نُظِّفت

بعناية، دفعني بقسوة إلى الداخل وهو يقول:

- حسنًا يا آنسة، أترغبين في معرفة الحقيقة البائسة، أليس كذلك؟

الترمْتُ الصمت وأنا ألَهت في محاولةٍ لالتقاط أنفاسى، فيما اتجه هو نحو

الخزانة وفتحها. أخرج منها صندوقًا أسود، فتحه ليكشف عن أسطوانة حديدية

نحيلة ذات لون أسود، تشبه تلك الأسطوانات القديمة التي كانوا يستخدمونها

لحفظ الرسائل الورقية.

فتح الأسطوانة بعناية، وسحب منها لفافة ورقية.

تقدّم نحوي وهو يفتح الرسالة التي كانت مختومة بختم من الشمع الأحمر، وكانت الورقة تبدو عتيقة، بلونها الأصفر المائل إلى الذبول، قادمة من زمنٍ غابر. فتحها ثم ألصقها بوجهي قسرًا.

حاولت جاهدًا أن أقرأ ما كُتب فيها، لكن الحروف بدت مشوشة ومتداخلة، ولم يلفت انتباهي سوى اسم "سارة" أسفل الورقة، يليه لقبها وتوقيعها.

سألته بتلعثم وارتباك:

- ما هذه؟ أهى خدعة جديدة من الأعيك؟

أبعدَ الورقة عن وجهي، وراح يقرأها بصوت مسموع بينما يدور حولي كذئب يطوّق فريسته:

- هذه... صفقة تبادل أبرمت بين الضحية، الكاتبة "سارة"، وبين الشيطان ذاته. صفقة تطلب فيها العفو عن حياتها، وعن الجرائم التي اقترفتها بلا رحمة في حق الشخصيات التي قتلها بدمٍ بارد في رواياتها.

لقد وصلت إلى نقطة لم تُعدّ تحتل فيها قسوة ما صنعت يداها، فطُرح أمامها استثناء، وهذا الاستثناء لا يُمنح لأي كاتب إلا بشروط محددة.

و"سارة"... كانت قادرة على تحقيق تلك الشروط. وهكذا حصلت على فرصة النجاة والعودة إلى حياتها الطبيعية.

توقف للحظة، ثم أكمل وهو يضحك ضحكة ساخرة:

- والأمر الأهم: أن هذا الطلب لم يأتِ من الخاطف أو الشيطان، بل جاء من الضحية نفسها. "سارة" هي من طلبت النجاة، لكن لكل شيء ثمن، وهذا الثمن!!

سكت قليلاً، ثم مال برأسه نحوي ليزيد من استفزازي، وأردف بحماس مظلم:

- وهذا الثمن هو... التضحية بابنتها، الهروب والنجاة كانا مشروطين بتقديم الابنة للشيطان عوضاً عنها، وهذه الابنة هي "ماريانا"، التي سيُقدَّر لها يومًا ما أن تصبح كاتبة روايات رعب شهيرة تمامًا كوالدتها.

لقد أدركت "سارة" ذلك مبكرًا حين لاحظت ولع ابنتها، شقيقتك "ماريانا"، بهذا العالم، فعقدت الصفقة، ودوّنت اسمها في عقد التبادل.

لكن... ماذا حدث بعد ذلك؟

خرجت والدتك ذات يوم وقد باتت عاجزة عن التمييز بين الحقيقة والخيال، لكنها رغم ذلك أصرت على خداعي. أتدريين كيف فعلت ذلك؟

لم أنبس ببنت شفة، كان جسدي كله يرتعش، ودموعي تنهمر بصمتٍ من عيني، فيما هو مضى يتحدث بصوته البارد:

- لقد قررت أن تخفي "ماريانا" عني في غمرة جنونها، وربما قررت أن تسبقني وتسلب روحها قبل أن أفعل أنا. لقد أخذت شقيقتك "ماريانا" ودفتتها حية.

دفتتها وهي لا تزال تتنفس!

لكن الأمر لم يكن ليعني لي الكثير، فتاة ماتت وبقيت أخرى. ما كان يشغلني يقينٌ واحد: أن لعنة الكتابة، تلك الموهبة المظلمة، ستنقل إليك حتمًا في نهاية المطاف.

كنت أراقبك بصمت وأنتِ تتقمصين شخصية شقيقتك الميتة دون أن تدركي، لم يخبرك أحد بالحقيقة: لا والدك، ولا شقيقك، ولا حتى زوجة والدك التي تظنينها والدتك.

لم ينقذك أحد يا "ماريان"، لم يحاول أحد أن ينتشلك من الهاوية. عائلتك طمسوا هويتك، ومسخوا روحك إلى صورة شخص آخر شخص ميت.
كان واضحًا أنهم جميعًا اختاروا أن يعيشوا لذكريات "ماريانا" أكثر مما أرادوا أن يعيشوا من أجلك.

- توقّف... توقّف... توقّف!!!

صرخت بكل قوتي، أطبق يديّ على أذنيّ كأني أحاول أن أسحق الكلمات داخلي.

مستحيل... مستحيل أن توجد أم تبغ ابنتها لشخصٍ ما لتنقذ حياتها!
لكن... لا، لا بد أنها فعلت ذلك وهي ليست في وعيها، لا بد أنها كانت تحت سطوة هذا الشيطان.

أكيد، أكيد لم تحتمل العذاب ولا الجنون، أي إنسان يُدفع إلى حافة الموت قد يفعل أي شيء، أي شيء لينجو، حتى لو كان الثمن هو التضحية بأولاده!
ضحك بجنون، وقال بصوتٍ متهمك:

- أنتِ تُبررين لها...؟

اكتفيت بالصمت، ذلك الصمت الذي يصمُّ الآذان وبمزق القلب. لم أَعُد أسمع شيئًا على الإطلاق، لا صوته، ولا ضجيج العالم من حولي. وحده طنين الذكريات القاتمة كان يملأ رأسي، يغلق أذنيّ، ويخنق عقلي وروحي معًا.

لم أعرف يومًا مَنْ هي أُمي الحقيقية، ولا أظن أنني أشعر تجاهها بشيء يُذكر، ومع ذلك لا بد أنني أشعر بالصدمة، الصدمة نفسها التي اجتاحتني حين أدركت أن أبي لم يخبرني بشيء قط، وأنه اكتفى بأن يراني مجنونة ومريضة نفسيًا طوال حياتي!

لقد سلب مني اسمي، وهويتي، وذكرياتي. سرق مني كل ما كنت عليه:
الأشياء التي أحبها، والأشياء التي أكرهها، أفكاري، أحلامي، أمنياتي، واستبدلها
بشخصٍ آخر.

استبدلها بشخصية شقيقتي.

على مدى كل تلك السنوات، طمسوا ملامحي الداخلية، شخصيتي، روحي،
مسخوها إلى شيء لا يمتُّ إليَّ بِصلة.

طوال الوقت كانوا يلومونني، يسألونني لماذا أصبحتُ كاتبة! نسوا أنني لم
أولد بهذه الموهبة، بل زُرعت داخلي قسرًا. أعطوني عنوةً اهتمامات "ماريانا"،
وهوايات "ماريانا"، وروح "ماريانا"، وأخذوا مني بلا رحمة كل شيء كان
يخصني أنا.

كل شيء يخص "ماريان".

قال، بنبرة لا تخلو من البرود واللامبالاة:

- لا بأس... لن أقسو عليك اليوم. يبدو أنك محطّمة تمامًا، وأنا لا أحب أن
أراك ضعيفة. لديّ عمل يجب أن أقوم به الآن، لكنني سأعود غدًا، عليك أن
تستعدي للكتابة. انتهت الإجازة رسميًا.

قال كلماته الأخيرة، ثم غادر، تاركًا خلفه الفوضى التي زرعتها في أعماقي،
وفي حياتي، وفي صميم عائلتي.

غادر بعدما مزق كل شيء، وهو لا يكفُّ عن اتهام أمي وأبي بأنهما أصل كل
الخراب.

شعرتُ بأن الغرفة تدور بي، وأن عاصفة من الصداع العنيف تجتاح رأسي
بلا رحمة.

حقيقةً كهذه، كان ينبغي أن أكتشفها وأنا في منزلي، كان يجب أن أسمعها من أبي، من عائلتي؛ لكي أصرخ في وجوههم، أحطم كل زجاج المنزل، وأبكي حتى أفقد الوعي، ثم أغلق باب غرفتي على نفسي.

لا أن أعرفها هنا في هذا المكان من هذا الشيطان.

لكن هل هو حقًا السبب؟

أم أن أمي هي من قتلت شقيقتي وباعت روعي للشيطان؟

أيهما المجرم الحقيقي؟ وأين أنا في هذا الجحيم؟

أبني هو من يجب أن ألوم؟ ذاك الذي، بعد كل ما اقترفه، اتهمني بالجنون؟ لم يستطع حماية أمي واتهمها هي الأخرى بالجنون، ولم يستطع حمايتي، ولا حماية شقيقتي؟

أم أن كل شيء كان مقدَّرًا لي أن أعيشه، بلا سبب، بلا ذنب؟

أم أنني، في أعماق مخيلتي، أنا من صنعت هذا العالم؟

أنا من صنعت هذا الشيطان؟

لعلَّ كل شيء وليد خيالي المريض، أو ربما... وربما... يجب أن أضع حدًا لهذا كله.

لربما ينبغي لي أن أفجّر رأسي الآن، أن أطلق رصاصة في جمجمتي، فتتناثر الدماء والمخ في كل زاوية من هذه الغرفة، وتتبعثر معها هذه العوالم وهذه الشخصيات، ولربما يتبعثر معهم أيضًا "ويليام". لكن من أين لي سلاح؟

استلقيتُ على السرير البارد بهدوء، لقد فرغت طاقتي تمامًا، لم أعد قادرة على المقاومة وليحدث ما يشاء بعد ذلك.

أريد فقط أن أنام، أريد أن أرتاح ولو مرة واحدة.

أريد أن أشعر بأنني "ماريان" لا "ماريانا"، لعلَّ "ماريان" كانت لتكون أقوى مني.

أغلقْتُ عينيَّ، لا أدري كيف نِمت؟ والدموع تغرق وجنتيَّ والسرير والغرفة كلها.

لن أرى كابوسًا هذه الليلة، اكتفيْتُ من الكوابيس.

بل، على الأرجح، أنا لا أحيا سوى في كابوسٍ طويلٍ لا نهاية له.

دموعي تأبى أن تتوقف لكنها ستتوقف، في النهاية ستنضب كما تنضب كل الأشياء.

ذاك الشيطان يأبى أن يموت وأنا، أنا أيضًا أرفض أن أموت.

لا بد أن يموت أحدا، لا بد أن يموت أحدا ليضع حدًّا لهذا الجحيم.

كنت مستيقظة، لكنني مغمضة العينين.

أسمع أصواتًا غريبة تتسلل إلى أذنيَّ من أرجاء المكان، لكنني تجاهلتها. لم أُعد أعبأ بشيء، اكتفيْتُ من الغرائب، اكتفيْتُ حتى الاختناق.

لكن الصوت ازداد حِدَّة، كان صوت آلة كاتبة، أحدهم يكتب! الصوت كان مزعجًا غريبًا، لطالما أحببتُ صوت الآلة الكاتبة، لكنني الآن أكرهه.

ثم جاء صوتُ شخص يتنفس بصعوبة، يلهث، يحتضر، ونبضات قلبه تدوي في أذني، لكنه رغم ذلك، ما زال يكتب.

ثم فجأة، بدأ يكتب بجنون، يصرخ، ويبكي.

وضعتُ يديَّ على أذنيَّ، احتضنتُ نفسي، تقوَّست كحلزونة تحاول أن تختبئ داخل قوقعتها، لكنني لا أملك قوقعة، لا أملك ملاذًا.

وفي النهاية، تلاشت الأصوات، وغرقْتُ في نومٍ حزينٍ منكسر.

فتحتُ عينيَّ، شعرتُ بأن كل عظمة في جسدي قد تآكلت، كنتُ كمن نام
دهراً، وأنا لم أتم منذ زمن لا أستطيع إدراكه، لا أدرك الوقت، ولا الزمن، ولا
حتى المكان.

لكنني كنت أعلم أنني نمت طويلاً.

اعتدلتُ في جلستي، لا شيء جديد.

ما زلتُ حبيسة هذه الغرفة القوطية الغريبة.

وما زال الكابوس مستمراً.

كنت أسمع وقع خطوات ثقيلة تقترب من الباب، خطوات مدروسة تُحدث
صدى خافتاً يكسر سكون الغرفة الباردة.

سمعت صوت قفل الباب وهو يُفتح، ثم تحرَّك المقبض ببطء، وانفتح الباب
أخيراً... دخل "ويليام".

كان يحمل صينية طعام، ويبدو أن خادمته التي كان يعتمد عليها قد لقيت
حرفها، بالطبع؛ لأنني أنا من قتلتها، ولسْتُ آسفة على ذلك.

كان، كعادته، يرتدي قناعاً أحمر تتداخل فيه نقوش ذهبية دقيقة، وملابس لا
تشبه ملابس البشر، لا تشبه ما اعتدْتُ أن أراه منه عندما كنا في القصر الأول،
حين كانت للحياة ملامح أخرى أقل جحيمًا.

تقدَّم بصمت، وضع صينية الطعام على الطاولة، وهو يشير بيديه بتهكم،
وقال:

- لا شك، لا سكاكين، ستأكلين بيديكِ. لا شيء حاد لأميرتنا الغاضبة، أو
القاتلة!

لم أمنحه أي ردّة فعل، لم أرفع رأسي، لم أنطق بحرف. كنتُ ألتزم الصمت، بصمت جسد ذابل وروح خاوية.

راقبني للحظة، ثم سار ببطء حتى وصل إلى باب الشرفة. وضع يده على المقبض، لكنه توقّف، وألقى عليّ نظرة طويلة، كما لو كان يحاول أن ينتشلني من الغيبوبة النفسية التي غرقتُ فيها.

أعرفه، أعرفه جيّدًا، في كل مرة يغرس في صدري صدمة جديدة، يشعر بالملل حين يراني خاملة، لا يتحمّل موتي الداخلي. هو لا يريدني هادمة، إنه يريد لعبة حيّة، صرخة مقاومة، فتاتًا يتلذذ بتحطيمه مرارًا وتكرارًا.

إنه يتسلّى بي، وأنا أعرف ذلك.

لا بأس، سأتسلّى معه كما يشاء.

ليس لأنني أريد العودة إلى المنزل، لم يعد المنزل يعينني.

بل لأنني، يومًا ما، سأجد الطريقة، سأقتله.

- أترغبين في معرفة أين أنتِ؟ ومن أكون أنا؟ ومن نكون نحن؟

قال كلماته تلك بصوتٍ خافت، لكنه نجح، كما توقعْتُ، في جذبني وإخراجي من شرودي. رفعتُ بصري إليه، لم أمنحه أي جواب، لكنّه قرأ الإجابة في عينيّ.

لم أستطع، كعادتي، كبّح فضولي.

مدّ يده نحو قفل باب الشرفة، فتحه ببطء، ثم دفع الباب الزجاجي المزدوج.

هبّت رياح باردة جافة تحمل في طياتها شيئًا غريبًا لا يمكن وصفه.

تطايرت خصلات شعري الذابل، لم أشعر بلمسة هواء كهذه منذ زمنٍ بعيد.

لكن المنظر أمامي، كان أبعد ما يكون عن الواقع.

لم أستوعب بعدُ أنني في مكان لا ينتمي إلى هذا العالم.
نهضتُ عن السرير ببطء ذابل، سِرْتُ نحوهما، نحو الشرفة أنا و"ويليام"،
كأنني مسلوبة الإرادة، كأنني مُنَوِّمة مغناطيسيًّا.
سبقته إلى الخارج، وكأن وجوده قد تلاشى من إدراكي، بعينين متسعيتين،
وفمٍ مفتوح، وقلبٍ ينبض بجنون تحت وطأة ما رأيته!
كنتُ أقف على شرفة غامضة تمتدُّ من قلعة حجرية قديمة.
تعلو الشرفة نقوش لمخلوقات متوحشة، منحوتة بملامح شرسة، وعيون
جوفاء تُحدِّق ببات نحو العدم، نحو الظلام الأبدي.
أما حوافُّ الشرفة، فكانت مصنوعة من معدن أسود غريب الملمس، بارد
تحت يديٍّ رغم أنفاس الرياح العاتية التي اجتازته، تحمل في جريانها همساتٍ
خفيّة.
كان المنظر أمامي خارقًا، مرؤّغًا.
امتدَّ البحر الأسود إلى الأفق، مياهه لم تكن مجرد داكنة، بل بدت كأنها
تمتصُّ الضوء. كانت تتلَوَّى بحركة بطيئة ثقيلة، مثل جسد هائل لكائنٍ حيٍّ
يزحف في صمتٍ أبدي.
تصاعدت من سطحه أبخرة خفيفة تتلاشى في الهواء، حاملة معها رائحة لا
تشبه أي شيء عرّفته البشرية.
وما وراء البحر...
كانت الجبال تنتصب كحراسٍ قدامى، صامتين. جبال سوداء، قِمَمها مسننة
ومشوّهة، بدت وكأن يدًا غير بشرية قد نحتتها بطريقة مشوّهة ومُقلِّقة.

لم تكن هناك حياة على سفوحها، لا شجر، لا طير، فقط ظلال تتحرّك رغم غياب أي مصدر مرئي للحركة!

القمر في السماء ليس أبيضَ ولا فضيًّا، بل بلون غريب لا يمكن تحديده؛ مزيج من الأخضر المسموم والأحمر المتعقّن، يبدو كعين هائلة تراقب العالم بصمت ساخر، تحيط به هالة من الضباب الداكن.

السماء ليست سوداء ولا زرقاء، بل مشتعلة بوميض بنفسجي ينبض كقلب مريض، يتخلله برق بلا صوت، يرسم أشكالًا غامضة للحظات قبل أن تختفي. في هذه السماء الغريبة تُخلق طيور ليست طيورًا، أجسامها نحيلة بأجنحة ممزقة، وأعينها تلمع بوميض داخلي كأنها مشاعل صغيرة. أصواتها ليست تغريدًا، بل صرخات بعيدة تشبه نحيب أرواح ضائعة!

وقف "وبليام" بجواري على حافة الشرفة، فيما كنتُ أنا كمن يتأرجح بين الوعي واللاوعي، بين يقظة جسد وخدر روح. نطقْتُ أخيرًا بصوت واهن مرتجف، تعثّرت كلماتي على شفّتي:

- يا إلهي... ما هذا المكان؟ أين أنا؟

مدّ يده نحوي، وعيناه تلمعان ببريق غريب، ثم أجاب بصوت عميق:

- مرحبًا بك في مملكة "الخوف والرعب"، في "مملكة الخوف" لا تشرق الشمس إلا لتلقي بظلالٍ أعمق. هنا لا يحكم الملوك، ولا تسود للزعماء، بل الرعب وحده هو السيّد المطلق.

كل طريق في "مملكة الخوف" يقود إلى المجهول، وكل باب يُفتح قد لا يُغلق أبدًا.

حتى الصمت هنا له صوت، صوت خطوات كائن لا يُرى لكنه يراك.

في هذه الأرض، لا تموت الأحلام، بل تتحوّل إلى كوابيس تنتظر لحظة يقظتها.

أنتِ لا تدخلين "مملكة الخوف"، بل "مملكة الخوف" هي التي تدخل إلى روحك. الجدران هنا تهمس، الأرض تتنفس، والظلال تراقب بصبر لا يعرف النهاية.

في "مملكة الرعب"، حتى القمر يرتجف خوفاً من أن يضيء بالكامل. لا شيء في هذه المملكة كما يبدو، حتى نفسك قد تصبح غريبة عنك. اهربي إن استطعتِ، لكن تذكّري: "مملكة الخوف" لا تنسى من عبر أبوابها. في "مملكة الخوف"، لا توجد أسوأ الكوابيس؛ لأن الواقع ذاته أكثر رعباً منها.

الموت هنا ليس مهرباً، بل مجرّد بابٍ آخر في متاهة لا تنتهي.

صمتٌ للحظة أبحث عن صوتي، ثم همستُ:

- ومن تكون أنتِ؟

- أنا، أنا ملك "مملكة الخوف"، وسيد أراضيها الثماني.

صانع هذا العالم، الراوي الأبدي للحكايات الملعونة، المتحكم في مصائرنا. أنا الملك الذي يكتب بالحبر المسموم، أنا الذي يبني من الخوف منازل، ومن الرعب ممالك، ومن العنف جيشاً، ومن الجنون أوطاناً.

أنا الملك الخامس لعرش الخوف "ديموس آريس داميان إيريبوس".

استرسل ساخرًا.

- أعلم أن اسمي معقد بالنسبة لك؛ لذلك يمكنكِ مناداتي بـ "ويليام"، بل يمكنني تغييره من أجلكِ إن أردتِ ذلك.

أشحتُ بنظري عنه، لم أرغب في النظر إلى عينيه أكثر، عدتُ بعيني إلى
المنظر المرعب الذي يمتد أمامي، ذلك المشهد الشاهق الذي لا ينتمي إلى
عالم الأحياء.

همستُ:

- هل نحن... داخل كتاب؟

ضحك ضحكة خافتة:

- ستحتاجين إلى وقتٍ طويل كي تفهمي.

هذا العالم يجسّد كل كتب الرعب، نحن من اخترعنا أدب الرعب.

سكت لحظة، اقترب أكثر، ثم مال بهمسة عند أذني:

- احذري أن تتحدثي مع أحد هنا، حتى الطيور هنا تتحدث. تجاهليها، لا
تصدّقي شيئًا.

والآن لِنعد إلى الداخل، وإن بقيت هادئة ولم تتصرفي بوحشية أو بغباء،
سأفتح الباب لاحقًا وأصحبك في جولة عبر القلعة. أنا متأكد أن فضولك
يلتهمك، وأنتِ ترغبين في معرفة المزيد.

استدرتُ ببطء مبتعدةً، وقلت ببرود متكلف:

- لا أريد.

كانت كذبة، بالطبع كنتُ أرغب، بل كنتُ مشتتة فضولًا لأن أرى وأفهم هذا
العالم الغريب الذي سُجنْتُ فيه، لكنني جلست على السرير دون أن أظهر
شيئًا.

كنت أفكر في "سارة"، هل يُعقل أنها فقدت عقلها لأنها، هي أيضًا، دخلت
إلى هذا المكان؟

قطع أفكاري صوته الذي أتى فجأة حاسمًا:

- بعد تناول الطعام، عليك أن تكتبي.

صُدمتُ من كلماته، ولا أعلم لماذا شعرتُ بالصدمة!

ألم يكن هذا هو سبب وجودي هنا؟ ألم يكن هذا ما أحضرني لأجله؟

لم أستطع الرد. نظرتُ إلى صينية الطعام أمامي، وبدأتُ أتناول الطعام

بصمت، بحركة آلية، وعقلي يغرق في الأسئلة:

ما الذي سأفعله في الأيام القادمة؟

ما الذي سيحدث أكثر؟

كيف يمكنني أن أحافظ على حياتي؟

وإن هربت، هل سأهرب دون عقلي؟ هل سأعود إلى والدي كما عادت

زوجته إليه مجنونة؟

أم أنني...

أم أنني، أرغب في البقاء هنا؟

من أين بدأ الرعب؟ وما هو الخوف؟

ألم تتساءل يومًا: كيف وُلد أدب الرعب؟ ومن الذي صنعه؟ من ذاك الذي
تجراً على أن يخلق عوالم مخيفة، مريضة، شريرة، عنيفة، قاسية، غريبة
ومرعبة؟

مَن الذي أشعل شرارة العنف والرعب والجنون، وأطلق تلك الأهوال التي
تسرق شيئاً من روح الإنسان؟

لطالما سُئِلْتُ من قِبَل القُرَّاء: من أين تأتيكَ الأفكار؟ ومن أين ينبع الإلهام؟

وكانت الإجابة واحدة لا تتغير: الإلهام يولد من مخاوفي ومن كوابيسي.

الآن أدرك، كنتُ في الماضي أخشى أن يلتهم عقلي.

كنتُ أكتب كي لا يفترسني الشيطان. أما اليوم، فأكتب كي لا أصاب

بالجنون!

"ماريان"

الفصل العاشر

جنون الكتابة من جديد



ها أنا هنا مجددًا!

سمعتُ صوت الآلة يناديني مرة أخرى، حين أخرجها "ويليام" من أمامي
ووضعها فوق تلك التسريحة العتيقة قائلاً:

- لا شك أنها قد اشتاقت إليك، وأنت كذلك اشتقت إليها، أليس كذلك؟
سيكون هذا المكان مؤقتًا ريثما أتمكن من إصلاح الفوضى التي تسببت بها،
صدّقيني، سيعجبك المكان الجديد أيضًا هنا.

نظرت إليه بامتنعاض، وقلتُ بغضب:

- لن يعجبني أي مكان تكون أنت فيه.

أجاب بتهكمه المعتاد:

- بسيطة، اعتبريني غير موجود، لكن عليك أن تكتبي الآن. وقبل ذلك، هناك قوانين جديدة، أو لنقل، عقوبات جديدة.

عاد الخوف ينهش قلبي؛ إذ أحضر كرسيًا خشبيًا ووضعه أمام التسريحة، مقابل الآلة الكاتبة، ثم واصل حديثه:

- حسنا، العقوبة الأولى ستظل كما هي: المطاردة؛ لأنها، في الحقيقة، عقابي المفضل. أما العقوبة الثانية، التي كانت ستمثل في قطع إصبعك، فقد ألغيتها بعد أن أدركت أنني بحاجة إلى أصابعك. لكن هناك أمر جديد، سيكون ممتعًا للغاية، ولم يحظَ أحد قبلك بهذا الشرف. هل يمكنك أن تخمني ما هو؟

كان يسألني بحماسٍ مريض، بينما كنتُ ألتقط أنفاسي بصعوبة وألوذ بالصمت. تابع بحماس:

- أوه... لقد أصبحت مملة في الآونة الأخيرة، لكن لا بأس، ستخرجين قريبًا من هذه الدوامة الكثيفة، لا سيما مع هذا العقاب. في المرة الثانية التي لا تعجبني فيها قصتك السخيفة، لن أكون أنا من يطارذك، بل ستطارذك إحدى شخصياتك التي صنعتها بيدك داخل إحدى رواياتك.

ارتجف قلبي، وانقبضت معدتي حتى شعرت بالغثيان. شخصياتي أنا؟!

لا شك أنها ستقضي عليّ في أول ثلاث دقائق؛ فجميع شخصياتي ليست إلا وحوشًا مسعورة، وبشرًا مخيفين، مرضى نفسيين، مختلين عقليًا. كيف لي أن أنجو منهم؟!

إنه مختلٌ حقيقي، ويواصل تعقيد الأمور عليّ أكثر فأكثر، لن أسمح له بذلك أبدًا!

- أنا أيضًا، لديّ حقوق بصفتي مؤلفة.

قلتُ تلك الكلمات فجأة بعد صمتٍ طويل، فتفاجأ "ويليام" بها، وسألني:

- يبدو أن القط أعاد إليك لسانك أخيرًا، لكن ما الذي تقصدينه بكلامك؟
أجبت بهدوء:

- أقصد أنه حين أنجح في كتابة ثلاث قصص متتالية، يحقُّ لي حينها أن أطلب منك أي شيء، حتى لو كان ذلك الشيء عقابًا لك.

صمت لثوانٍ معدودة، ثم أطلق ضحكة عالية مدوّية:

- هل ترغبين في معاقبتي؟! أنتِ حقًا مجنونة، لكن لا بأس، أنا موافق.
يمكنك أن تطلبي أي شيء، حتى لو طلبتِ يدي!

قالها ضاحكًا وهو يضع الشمعدان بجانب الآلة الكاتبة، ومعه ساعة صغيرة ذات مؤقّت.

لكن لا، لن أسمح له هذه المرة بأن يستغلّني، لن أسمح له بتعذيبي. وفي الحقيقة، لم يَعد الأمر يَفرق معي. الآن عليّ أن أعرف، عليّ أن أكشف حقيقة هذا الرجل، وهذا المكان.

عليّ أن أكتشف سرّ "سارة"، وشفقتها مع هذا الشيطان.

لا بدّ لي أن أسايره في جنونه، بل أغرقه في جنونٍ أشدّ حتى أتمكّن منه...
قاطع أفكاري:

- كلُّ شيء جاهز الآن يا أميرة، أعلم أن مشروبك المفضل - القهوة - غير موجود، فأبناء شعبي لا يعرفون هذا الشيء جميعهم، لكنني سأحاول أن أحضره من أجلك هنا.

نهضت من على السرير، وتقدّمت نحو الكرسي والآلة الكاتبة.

لم يكن هناك فرق بين هذه اللحظة ولحظة إعدامي فوق منصة الموت.

جلستُ على الكرسي محاولَةً أن أنسى، أن أمحو من ذهني كل ما حدث لي، كي أصقّي عقلي وأفكاري.

أحاول أن أستدعي أفكارًا جديدة، قصصًا أشدَّ مرضًا؛ كي أرضي عقل الشيطان المريض الجالس أمامي.

قال فجأة:

- لم أصب بالمرض يومًا في حياتي، هل تعلمين ذلك؟ لذا لا تُطلقني عليّ لقب "المريض".

لم أدرِ إن كان يسخر أم كان جادًا وهو لا يدرك معنى هذا المصطلح. وفي كلتا الحالتين... لم أكثرث.

أشار "ويليام" لي بيده ليعلن عن بدء الوقت، وقف المؤشر على الساعة الثانية عشرة تمامًا في منتصف الليل، إنه وقت الكتابة، إنه وقت الموت مرة أخرى.

انتهيت من الكتابة.

تنهد وهو يُقلب صفحات القصة بين يديه، ثم قال بنبرة هادئة:

- جيّد، لم تفقدي موهبتك، لكن ما هو "البودكاست"؟!

سألني بجدية جعلتني أضحك بحسرة. هل يُفترض بي أن أشرح له القصص، أم المصطلحات أيضًا؟ كانت القصة عن بودكاست رعب.

نظر إليّ بحدة من خلف قناعه المريب، ثم وضع الأوراق جانبًا، وقال:

- ما الذي يشير ضحكك؟ لكن، من الجيّد أنك تضحكين أخيرًا؛ لأنك ستبكين بعد قليل. اركضي.

نظرت إليه ببرود، وأجبت:

- هذا يعني أن القصة لم تعجبك؟ أم لأن ضحكتي أثارت غضبك وقررت معاقبتي؟

- في الحقيقة، الأمران معًا. أعترف أن الفكرة رائعة، لكنها لم تخيفني؛ لذا سننقذ أول عقاب: المطاردة.

رفعتُ حاجبي بلامبالاة، مما أثار دهشته، ثم قلت:

- وماذا لو لم أفعل ما تريد؟

نظر إليّ بنظرات ممتلئة بالغضب، وتساءل:

- ماذا تعنين؟

أجبتُه بنبرة ثابتة، يملأها الإصرار:

- أعني أنني لن أركض، ولن أهرب إلى أي مكان. لن أفعل أي شيء، لقد اكتفيت وتعبت. وهذه المرّة، أنا جادّة إن كنتَ ترغب في قتلي، فافعل، أعترف أنني أخشى الموت، وسأصرخ وأبكي، لكنني لن أتراجع. هذه المرّة، سأختار الموت بإرادتي.

قلت كلماتي تلك بكل جدية، مدركةً تمامًا أنه عاجز عن قتلي، وإن قرر ذلك وفعل، فلن أعبأ. لقد بلغت درجة من الاستسلام لم أظن يومًا أنني سأصل إليها.

رغم أنني، قبل كتابة هذه القصة، كنت قد أقسمت أنني سأنجو وسأحاول النجاة وأسايره في جنونه، لكنني الآن لا أعتقد أنني قادرة على ذلك، لا أعتقد أنني قادرة حتى على الركض.

كل ما تمنيتُه في تلك اللحظة أن يعفُ عني هذه المرّة، فلم أَعُدْ أحتمل الركض مجددًا، ولا الهرب إلى أماكن أخرى.

أردت أن أغضبه، أردت أن أتحدّاه، أن أظهر له أنني قويّة، لكن كان يجب أن أدرك أنه سيجعلني أندم على ذلك أشدّ الندم.

كنتُ أتظاهر بالشجاعة، لكن قلبي كان يرقص رعبًا في صدري، وروحي ترتجف هلعًا، خاصّة حين لم ينطق بكلمة واحدة، بل ظل صامتًا لثوانٍ معدودة، كانت كفيلة بأن تزرع الموت في داخلي.

كان يُحدّق إليّ بعينه بينما كنتُ أتعمد تجاهل النظر نحوه، إلى أن قطع الصمت طرقات خفيفة على باب الغرفة:

- جلالة الملك...

ضرب "ويليام" بيده بعنف على التسريحة العتيقة بجواري، ارتجفتُ من مكاني، وقفزتُ خوفًا من شدة المفاجأة. ثم قال بصوت هادئ على غير المتوقع:

- قادم.

لم يَنيس "ويليام" ببنت شفة بعدها، بل اتجه نحو الباب وخرج دون أن يلتفت، مغلقًا الباب خلفه.

تنفّستُ الصُّعداء، وشعرْتُ براحة لم أشعر بها منذ زمن، وكأنني انتصرتُ هذه المرة في معركة الصمود والقوة، غير أنني في قرارة نفسي كنتُ أجهل ما الذي قد يدور في ذهن "ويليام" الآن...

ما الخطة التي سيحيكها ليدفعني مجددًا إلى الكتابة؟

كيف سيجبرني على الانصياع لأوامره من جديد؟

كنتُ أعلم يقينًا أن ما حدث ليس إلا هدوءًا مؤقتًا يسبق عاصفة لا يمكن التنبؤ بعواقبها.

"ويليام"

أعترف بأنها أيقظت داخلي غضبًا لم أشعر بمثله منذ زمن بعيد. لا أذكر متى كانت آخر مرّة استبدّ بي هذا الكم الهائل من الغضب. خرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفي، لأجد "ألكساندر" واقفًا أمامي؛ صديقي المخلص، حارسي الشخصي، ورفيقي في كل شروري ومكائدي. كان ينحني باحترام، ثم يقف مجددًا قائلاً:

- أعتذر، جلالة الملك، لكن والدك موجود الآن في القصر، ويرغب في لقاءك.

سألته بضيق وتذمّر:

- الآن؟

- نعم، وهو مصرّ على ذلك، يا مولاي.

- متى سينتهي أمر هذا العجوز؟

ابتسم "ألكساندر" بخبث، ثم أجاب:

- حين تنهيه أنت، يا جلالة الملك.

سرنا معًا عبر الرواق الحجري، نعبر ممرات القلعة المظلمة، حتى وصلنا إلى البوابة المزروجة المؤدية إلى قاعة الاجتماعات. وقبل أن أتركه وأدخل، التفتُ نحوه وقد بدا على وجهه تردد واضح، كأنه يرغب في قول شيء طالما أثار فضوله نحوي:

- ما الأمر؟ تحدث.

تردد قليلًا، ثم قال:

- في الحقيقة، تلك الفتاة، أعني الكاتبة، الجميع بدأ يتهامس وينشر الشائعات عمّا جرى. كيف استطاعت عبور البوابات؟ وكيف دخلت إلى عوالم الروايات وقتلت شخصيات رئيسية؟ والأهم من ذلك، كيف وصلت إلى "مملكة الرعب" دون أن تكون أنت من جلبها؟

ابتسمتُ ابتسامة باردة، وقلت بثقة:

- ليس بالضرورة أن تكون لعنة، ربما تكون نعمة. لن أسمح بأن تُستخدم ضدنا، بل سأحوّلها إلى سلاح لصالحنا.

رفع حاجبيه وسأل بفضول:

- ألهذا السبب لم تقتلها حتى الآن؟

أجبتُه بنبرة حاسمة:

- بالتأكيد، "ماريان" ستفتح لنا أبوابًا جديدة، صدّقني.

سكتَ للحظة، بينما استدرتُ متجهًا نحو القاعة، لكن صوته استوقفني حين قال:

- هل هذا... لأنها ابنة "سارة"؟

توقفتُ في مكاني، شلّتُ قدمي للحظة. لم ألفتُ إليه، بل قلت بحدة متجمدة:

- لا تكرر هذه الكلمات مرة أخرى يا "ألكساندر".

انحنى معتمدًا:

- أعتذر، جلالة الملك.

تابعتُ سيرتي نحو القاعة، وفي داخلي عاصفة لا تهدأ، بينما همستُ لنفسِي:

- اللعنة على "سارة"، لقد سرقتِ مني أئمن شيء في حياتي.

الفصل الحادي عشر

لعبة الحب



2021م

من الذاكرة:

كان اليوم موعد إطلاق وتدشين رواية صديقي "إيثان" الجديدة بعنوان "لعبة الحب". وكما أخبرتكم سابقًا، فإن "إيثان" يكتب في أدب الرومانسية، وهو نوع من الأدب لم يكن يستهويني يومًا، ببساطة لأنه لا يوافق ذوقي الشخصي.

في كل مرة يُصدر عملًا جديدًا، أكون أول من يحصل على نسخة موقعة منه بتوقيع مميز، وفي كل مرة أردد عليه الكذبة ذاتها:

- سأقرأها فورًا وأعطيك رأيي، أنا متحمسة للغاية.

وبالطبع، أكذب بحماس، وهو يدرك تمامًا أنني أكذب، لكننا معًا نتجاهل الأمر وكأنه لم يُقل.

هذه المرّة، أقام "إيثان" حفل تدشين روايته في مطعم والدته الفاخر، وكان ذلك في منتصف السنة. حضر عدد كبير من أصدقائه وأقاربه، وكان الاحتفال - كعادته - راقياً يليق بحياة "إيثان" الاجتماعية المترفة.

أما ثيم الحفل، فكان كلاسيكياً غريباً. ارتديت بلوزة صدرية خضراء، مع شورت جلدي باللون نفسه، يتناسب مع أجواء المناسبة، ومعطفاً أخضر بدرجة أغمق قليلاً. سرّحت شعري بموجات كلاسيكية، ووضعت قناعاً للعيون فقط.

كما كان متوقعاً دومًا، ما إن دخلتُ إلى المكان حتى التفتت الأنظار جميعها نحوي بإعجاب بالغ. كنت أعشق ذلك الشعور حدّ الهوس، أعشق أن أكون محطّ الأنظار وكأنني مركز الكون ألفت انتباه الجميع بجمالي الذي لا يُضاهى، وأناقتي المفرطة، وكأنني خلقت لأكون صورة للكمال.

لطالما أخبرتني والدتي بأنني لو لم أكن كاتبة، لكنتُ عارضة أزياء، أو حتى ملكة جمال.

استقبلني "إيثان"، كعادته، بابتسامته المشرقة وبهجته الطفولية. لكنني، ولأكون صادقة، لم أحب يومًا ذلك المجتمع الذي يدور حوله، حياة الأغنياء حياة باردة، مملة حدّ الاختناق، وأنا واحدة منهم، للأسف ومع ذلك، اخترت أن أعيش بالطريقة التي أريدها، رغم اعتراضات والدي الدائمة على أسلوبِي واختياراتِي.

في تلك الليلة، جلست أعزف على البيانو بعشوائية مع أصدقائنا، بينما كان "إيثان"، كعادته منذ سنوات الدراسة، يصرُّ عليّ بأن أغنّي، مُصرّاً أن صوتي جميل، لكنني لم أصدِّقه يومًا.

انتهت الليلة وأردت، كما أفعل دائماً، أن أتجاهل توديع "إيثان"؛ فقد شرب كثيراً، وعندما يشرب يبدأ بالثرثرة الفارغة، ويعترف لي بذلك الحب البائس الذي لا أبادله ولا أمنحه أي فرصة.

عدتُ إلى المنزل متأخرة، كان البيت غارقاً في الظلام. لكن قلبي كاد يتوقف حينما رأيت والدي جالساً وحده ينتظرني في صمت ثقيل.

ضغطتُ على زر الإضاءة، وقلت بارتباك:

- لقد أفرعنتني يا أبي، ما الذي تفعله مستيقظاً في مثل هذه الساعة؟

نهض من مقعده ببطء، كانت حركاته وهيئته ونظراته المشتعلة بالغضب تنبئ بأن عاصفة من الشجار قادمة لا محالة.

تقدّم نحوي حتى وقف أمامي مباشرة، ثم رفع هاتفه وألصقه بوجهي. نظرتُ إلى الشاشة فوقع بصري على الخبر والصور المرفقة:

"كاتبة روايات الرعب الشهيرة، ابنة رجل الأعمال المعروف، تظهر في صور وهي تدخن السجائر، رغم أنها لطالما خدعت قراءها وزعمت أنها لا تدخن وأن التدخين مضرٌّ بالصحة!".

تنهدتُ بضيق وملل، ألعن في داخلي الصحفي المهووس الذي لا يكف عن ملاحقتي، وألعن القراء الذين يتوقعون مني أن أكون مثالاً للكمال:

- وماذا في ذلك؟! أبي... اسمعني جيداً، أنا لستُ طفلة بعد الآن.

- ولماذا لم تخبريني بأنك تدخين أيضاً؟ لماذا ينبغي لي أن أعرف كل ما يتعلق بك من خلال وسائل الإعلام فقط، وأنت تعيشين معي تحت سقف واحد؟!

صرخ في وجهي بغضبٍ جعلني أعتقد أن أُمي ستستيقظ الآن، كما هي العادة، على وَقْع شجارنا الدائم. لكنني رددتُ عليه ببرود قاتل:

- أبي، لا مزاج لي الآن للخوض في نقاشات عقيمة كهذه. ثم لا داعي للقلق، لقد بدأتُ بالفعل بالبحث عن منزل جديد، سأشتري بيتًا وأرحل، سأترك لكم هذا المنزل بأكمله، لعلَّك ترتاح أخيرًا! فأنا أعلم جيدًا أنك لست قلقًا عليّ، بل تخشى فقط على سُمعتك.

تفوهتُ بكلماتي بنبرة جامدة، ثم تجاهلتُ صراخه المتواصل، وتذمُّره وشتائمته التي اعتدت عليها. أسرعْتُ بالصعود إلى غرفتي، وأغلقت الباب خلفي بعنف.

ألقيت بحقيقتي على الأرض بلا اكتراث، لكنني سرعان ما تجمدت في مكاني، وارتعش جسدي وانقبض قلبي حين وقعت عيناى على شيء موضوع فوق سريري!

كانت هناك وردة سوداء، ورسالة صغيرة، وعلبة زجاجية تحتوي على فراشة جميلة حبيسة بداخلها. جلستُ على طرف السرير ويداى ترتعشان، التقطت الأشياء ببطء، نظرت إليها بتوجس، ثم فتحتُ الرسالة. كانت مكتوبة بخط اليد، وكان خطه مألوفًا، إنه خط ذلك الشيخ الذي يسكن رأسي.

وكانت الكلمات:

"سنلعب لعبة الحب قريبًا يا ماريان!"

تسارعت أنفاسي. هو يراقبني، يعرف حتى اسم رواية "إيثان"؟ من يكون هذا الكائن؟ إنه ليس مجرد شيخ في رأسي كما يزعم والدي، وكما يدَّعي طبيبي النفسي وأصدقائي! إنه حقيقي موجود!

لكن من هو؟ وكيف يستطيع إيصال تلك الأشياء إلى غرفتي، رغم أن المنزل
يعجُّ بالخدم وأمي وأبي وأخي وزوجته وأطفاله؟!

من المستحيل أن يتجاوز كل هذه العيون، بل من المستحيل أصلاً أن يتسلَّق
إلى غرفتي؛ فهي تقع في الطابق الرابع من المنزل!

لكن السؤال الذي يلتهمني من الداخل: لماذا يصرُّ على مناداتي
بـ"ماريان"؟!

"الحاضر"

"مملكة الرعب"

أجول في أرجاء الغرفة ذهابًا وإيابًا منذ ساعات منذ خرج "ويليام"، بعدما رفضتُ تنفيذ العقاب والركض كما أمرني. شعرت حينها بأنني قد انتصرت، غير أن شعورًا بالندم أخذ يتسلل إلى أعماقي تدريجيًا، وكأنني سأدفع ثمنًا باهظًا مقابل هذه الجراءة.

ولم يمضِ وقت طويل حتى جاء رد "ويليام" سريعًا. انفتح باب الغرفة فجأة، فاستولى عليّ الفزع، واستدرت بلهفة. لكن الداخل لم يكن "ويليام"، بل كان شابًا في العقد الثالث من عمره، ذا شعر أسود طويل يلمع تحت الضوء، وبشرة شاحبة حدّ البياض، ذلك الشحوب الذي لا يليق إلا بمصاصي الدماء. كانت ملامحه حادة واضحة، ووجهه ينطق بالشر الخالص، تعلوه ابتسامة جانبية باردة، وعيناه السوداوان عميقتان كسواد الليل. أما لباسه الأسود الأنيق، فكان يمنحه مظهرًا مثل حارس من طبقة نبيلة، أو أمير من عصور قديمة.

قال بصوته الأجنس المبحوح:

- أعتذر على دخولي المفاجئ، لكن جلالة الملك أمرني بأن أحضركِ إليه، "ماريانا"، تفصّلي بمرافقتي.

في الحقيقة، لم أشعر بالراحة تجاهه مطلقًا؛ وجهه لم يكن مريحًا، بل أعتقد أنه لا يوجد أحد في هذا العالم يملك هالة تبعث على الطمأنينة حقًا. تراجعْتُ خطوة إلى الخلف، فلاحظ ذلك على الفور، وأدرك أنني خائفة، ثم تنهد قائلاً بابتسامته الجانبية المريبة:

- حسنًا، أتفهّم شعورك. اسمي "ألكساندر"، وأنا الحارس الشخصي لـ"ويليام". لا أظن أن أحدًا يعرف هذا الاسم المستعار سواك؛ لذا أخبرني به

بنفسه.

حينها أيقنت أن "ويليام" هو من أرسله بالفعل. حزمت أمري وسرت معه، بخطى مثقلة ومضطربة، وكان قلبي يخفق بتوتر لا أعرف له سببًا واضحًا. ما الذي يريده "ويليام" الآن؟ ولماذا لم يأت بنفسه؟

سرنا عبر رواق طويل ومظلم، تتخلله رائحة الحجر والنار، حتى بلغنا بابًا مزدوجًا ضخمًا يشبه بقية الأبواب في هذا المكان الغريب. فتح "الكساندر" الباب ودخل، ثم أشار إليّ بالدخول.

دخلت فوجدت نفسي في مكان أقرب إلى قاعة ضخمة، أو مسرح كلاسيكي قديم. كان الفضاء دائريًا فسيحًا، تتوسطه منصة مرتفعة مستديرة، وُضع عليها شيء ما مغطى بقماش أسود قاتم، وكأنه يخفي مفاجأة مرعبة من نوع آخر، وكان الأمر كذلك بالفعل!

في القاعة، كان "ويليام" واقفًا، يرتدي قناعًا أبيض مرصعًا ببعض النجوم السوداء، وبجواره نحو عشرة أشخاص فقط، أدركت لاحقًا أنهم أصدقاؤه المقربون. لم أتمعّن في ملامحهم أو أوصافهم جيدًا؛ إذ كنت أرتجف من شدة التوتر والخوف، بدا واضحًا أنه يخطط لإقامة حفلة تنمّر صغيرة على شرفي.

ما لفت نظري حقًا، هو وجود فتاة واحدة بينهم. كانت الشابة الوحيدة في المجموعة، ذات ملامح مميزة، سمراء البشرة، بملامح حادة، ترتدي ملابس غريبة كغرابة الجميع هناك، وتسرح شعرها في ضفيرة واحدة عشوائية. ومع ذلك، كان في هيئتها ما يدل على القوة، مقاتلة، وقاتلة أيضًا.

وقف "ويليام" عند دخولي، وضع كأس النبيذ جانبًا، ثم تقدم نحوي قائلاً:

-أعزّفكم على كاتبتنا المثابرة، التي هزمت أبشع الشخصيات في عالم الروايات وقتلتهم، هل تعلمون أنها قتلت "صانع الدمى"؟ ذلك المعتوه الذي

يهابه الجميع، قتلته بكل بساطة! لا بأس، هل تعلمين لماذا اجتمعنا اليوم؟

لم أُجِبْه، والتزمتُ الصمت، فيما أكمل حديثه وهو يدور حولي ببطء:

- هل تعلمين ما هو تاريخ اليوم في عالمكم يا "ماريانا"؟

سألته بتلعثم وارتباك:

- "ويليام"... ما الأمر؟

أمال رأسه ورد ساخرًا:

- اليوم هو الرابع عشر من فبراير، إنه يوم تافه بالنسبة لنا، بل هو أكثر تفاهة

في عالمكم، لكنكم تحتفلون به وتسمُّونه "عيد الحب".

انطلقت ضحكات أصدقائه الساخرة تملأ المكان، ثم قال ساخرًا وهو يقترب

مني أكثر:

- ألا تودّين ذلك؟ أن نحتفل بعيد الحب؟

قالها بنبرة خبيثة وهو يقترب، حتى همس في أذني:

- أنا وأنت.

انقبض قلبي رعبًا، وجفَّ حلقي على نحو مؤلم. كنت أعلم أن "ويليام" على

وشك ارتكاب أمر مروّع، لكنني لم أكن أعرف ماهيته. كان انتظار العذاب أشد

قسوة من العذاب ذاته.

تراجع إلى الوراء بخطوات بطيئة متعمّدة، يملأها التهكُّم، ثم أشار بيده قائلاً:

- أولًا، أعتذر... هذا العام لن أحتفل معكِ، لكن في العام المقبل سنحتفل

معًا. أما هذا العام فسيحتفل معكِ شخصٌ آخر، شخص طالما تمَنَّى أن يكون

بقربك.

أشار إلى رجاله الذين تقدّموا نحو الشيء العملاق القابع في منتصف القاعة، أمسكوا بالغطاء الثقيل ورفعوه، ليكشفوا عن قفصٍ أسودٍ ضخم، في داخله كان هناك شخص مقيد بالسلاسل، جسده يرتجف من الهلع، والخوف يكسو ملامحه. كان جسده مغطى بالكدمات والجروح والدماء، وكانت ملامحه الغارقة في الألم والرعب تنطق باليأس.

لكن... مهلاً!

شهقتُ شهقة حادة وانبسطت حدقتا عينيّ في دهولٍ مطبق. أحسستُ بثقلٍ رهيبٍ يجثم فوق ساقيّ الواهنتين، بالكاد كنت قادرة على الوقوف. أطبقْتُ جفنيّ بقوة، ثم فتحتهما وأعدت الكرّة مرارًا، أحاول أن أقنع نفسي بأن ما أراه ليس إلا كابوسًا آخر... لكن المشهد ظل ثابتًا أمامي كجدارٍ لا يتزحزح.

قشعريرة زاحفة تسلّلت تحت جلدي، فأيقظتُ كل عصبٍ نائم. هناك داخل القفص، كان هو... كان صديقي "إيثان"!

كان مُنهكًا، مُحطّمًا، شبح إنسان بالكاد يستطيع رفع رأسه. لكن حين فتح عينيه بصعوبة ورآني، تبدّلت ملامحه في لحظة خاطفة: صدمة... ارتباك... إنكار، فرحة خافتة، ثم حزنٌ أسود قاتم، كلّها امتزجت في وجهه في آنٍ واحد. همس بتلعثم، وصوته مبحوح كأن الهواء ذاته يخلّده:

- ما... "ماريانا"...؟

لم أتمالك نفسي، فصرختُ من أعماق قلبي ودموعي تتساقط بلا وعي:

- "إيثان"!!

اندفعتُ نحوه راکضة، وقد تسلّلت إليّ قوة جنونية من فرط الرعب واليأس، لكن رجال "ويليام" أمسكوا بي بقوة وكأنهم يتلذّدون بإطفاء أي أمل في داخلي. كنت أقاومهم بجنون، أصرخ وأتوسّل بأعلى صوتي:

- "ويليام"، أرجوك، أرجوك، لا تفعل هذا! دعه وشأنه! أرجوك.

لم يُعر توسلاتي أي اهتمام، تقدّم نحو القفص ببطءٍ مميت، عاقداً يديه خلف ظهره كمن يتحكم بخيوط مسرحية عبثية. وقف أمام القفص، وبدأ يطرق عليه بأنامله ليصدر صوتاً معدنيّاً مزعجاً اخترق أوصالي المرتجفة. ثم التفت نحوي بتهكمه المعهود، وقال بصوته الساخر البارد:

- "لعبة الحب"، أليس هذا عنوان روايتك الأخيرة؟

كانت كلماته سكاكين تغوص في قلبي.

قالها، ثم أشار بيده إلى أحد أصدقائه، فأسرع الأخير بإحضار رواية "لعبة الحب" التي كتبها "إيثان"، وناولها لـ "ويليام" بانصياع كامل. أمسك "ويليام" بالكتاب بلا اكتراث، فتحه على صفحة عشوائية، وبدأ يقرأ بصوتٍ ساخر بارد وهو يسخر من الحياة التي نعيشها حيث لا يرونها شيئاً:

"عزيزتي، عندما نكون معاً، ونفعل الأشياء التي نحبها، كلما كنتِ بقربي أشعر وكأنني في الجنة، لا أريد أن أبتعد عنكِ يا فتاة، فقط أريدكِ أن تعلمي، لا أريد أن أبتعد عنكِ يا فتاة. حبيبتي، أنتِ الوحيدة التي أحتاج إليها هذه الليلة. حبيبتي، أحتاج إلى حصنكِ بقوة، الآن أريد فقط أن أموت بين ذراعيكِ".

أغلق "ويليام" الكتاب بنفور، ثم ألقاه جانباً بلامبالاة جعلت قلبي ينبض، وقال باحتقارٍ بارد:

- يا لها من خسارة عظيمة للحبر والورق!

ارتفعت ضحكات أصدقائه صاحبةً، مليئة بالسخرية والازدراء، تمرّق جدران القاعة وتنهش روعي. بينما كنتُ أرمق "إيثان" بعينين غارقتين بالدموع، أحسستُ بأن نيران الغضب بدأت تتأجج في أعماقي شيئاً فشيئاً، حتى كادت أن تلتهمني.

تابع "ويليام" بتهكم لا يخلو من خبث مظلم:

- حسناً يا سيد الرومانسي، اليوم سنحقق حلمك، ستموت بين ذراعي الفتاة التي تحبها.

صرختُ من أعماق روحي، صرخةً كانت أقرب إلى نحيب مَجُوع:

- "ويليام"!!

ارتدَّ صدى صوتي بين جدران القاعة الحجرية، فالتفت الجميع إليّ دفعة واحدة، بينما كانت أيدي الحراس تُقيدني بقوة تمنعني حتى من السقوط. استدار "ويليام" ببطء نحوي، عيناه تلتمعان بظلال من الجنون وهو يقول ببرود:

- ولماذا تحاولين تعكير صفو مزاجي يا "ماريانا"؟

توسّلتُ إليه بصوت مختنق، متهدّج، تتخلله شهقات ممزوجة بالخوف واليأس:

- أرجوك، سأفعل أي شيء تريده، أقسم لك. أنا آسفة، أعتذر لأنني لم أنفذ العقاب الذي أمرتني به، لكن أرجوك، أرجوك، اتركه. هذا لا يليق بك. هذا مخالف لقوانينك. هو ليس كاتب روايات رعب، فلماذا تحضره إلى هنا؟ لماذا...؟

كانت كلماتي تتساقط منهارة كأنها أنفاسي الأخيرة، وقلبي يتمزّق وأنا أرى المصير المروّع يقترب من "إيثان" كظلال موت لا مفر منها.

قهقه "ويليام" ضاحكاً، تدفقت من بين شفثيه نبرة الغطرسة كنيع لا ينضب، ثم قال بصوته وكان أشبه بصدى شيطاني:

- يبدو أنك لا تدركين الحقيقة بعدُ، أنا هنا القانون ذاته. بوسعي أن أصنع القوانين، أن أمحوها، أن أبدّلها كما يحلو لي. لا شيء يعوق إرادتي، لا أريد إضاعة المزيد من الوقت في "لعبة الحُب" الجميع بانتظار العرض.

ثم التفت نحو "إيثان"، حدّق فيه كصياد يتأمل فريسته العاجزة، وقال بنبرة لزجة:

- اسمعني جيدًا يا "إيثان"، لديك فرصة للنجاة. أمامك ثلاثة قلوب بشرية، ولكي أجعل الأمر أكثر متعة، إنها قلوب لفتيات، لطالما أحببت اللعب بقلوب الفتيات، أليس كذلك؟

ارتفعت ضحكات الحضور بسخف مقزّر، أصداؤها ترتطم بجدران القاعة كصدى قبيح. نظرتُ في فزع نحو الطاولة أمام "إيثان"، وهناك رأيتهُم، ثلاثة قلوب بشرية حقيقية، دامية، ما تزال طازجة تنبض بظلال الحياة التي سُلبت قسرًا. شعرتُ بموجة غثيان عنيفة تتصاعد من معدتي، أيُّ شعور يمكن أن يغمر "إيثان" الآن؟ كان جسده يرتجف حدّ الانهيار، عيناه زائغتان، ملامحه تائهة بين الخوف والرعب والذهول. بدا كغريب ضائع جُرّد من إنسانيته وألقي وسط وحوش لا تنتمي للعالم.

أكمل "ويليام" ببرودٍ مميت وهو يلوّح بيده:

- هيا... كُلّ. إن نجحت في اللعبة سأفي بوعدِي، سأطلق سراحك لتحتفل بعيد الحُب مع "ماريانا".

ترددت صرخات التشجيع والهتافات من حوله، وحناجرهم المخمورة بالجنون راحت تهتف كجوقة شياطين:

- كُلّ... كُلّ... هيا التهمها الآن! هيا!

كنتُ أصرخ بأعلى صوتي، أترجى "ويليام" أن يتوقف، أن يُنهي هذا الجنون، لكنني كنت أعلم في قرارة قلبي أنه لن يُصغي، كان قد تجاوز كل حدود البشر منذ زمن.

تسلل الجنون إلى عقل "إيثان" رويدًا رويدًا، وبدأت دموعه تتساقط بحرقه كطفلٍ تائه في جحيم لا يرحم. أطلق الحارس سراح يديه المرتجفتين، فمدهما ببطء نحو الطاولة، صوب تلك القلوب المشؤومة. كان المكان يغلي بالصراخ والضحكات والتهليل الوحشي، أطبق أصابعه المرتعشة على أول قلب رفعه بثاقل نحو فمه. كان جسده كله ينتفض، وجهه مشوّه بالرعب والاشمئزاز، ثم أخيرًا - وفي لحظة انكسار تام - غرز أسنانه في اللحم البشري، قضة صغيرة، قاسية المذاق، خشنة الملمس، كان يمضغ وهو يبكي كمن يمضغ الموت نفسه.

لكن لم يحتمل، سقط القلب من يده المرتجفة، وانهار أرضًا يتقيأ كل ما في جوفه، جسده يرتعش بعنف لا يوصف.

ارتفعت ضحكات "ويليام" كالصاعقة، تبعها ضحكات هستيرية من أصدقائه:

- كل رومانسي حساس يا رفاق، يبدو أنه نباتي!

أوشكتُ أن أختنق بدموعي، كنت أصرخ وأتوسل بلا جدوى، دموعي تنهمر بلا توقف، وكلماتي تتكسر بين شهقات الوجع.

وأخيرًا بعد حفلة العذاب النفسي، رفع "ويليام" القفص الحديدي إلى أعلى، وكأن الأمر كله كان مجرد مسرحية عبثية أُسدل ستارها. كان "إيثان" مستلقيًا على الأرض، جسده الهزيل يرتعش بلا حول ولا قوة، عيناه تسبحان في دھول المرتجفين. لم يكن يدري أهو في حلم أم كابوس، أم لعلّه تمنى لو أن الموت قد سبقه إلى هذا المصير.

تراخت قبضة الحراس عني، تحررْتُ كمن يستعيد أنفاسه بعد الغرق،
هرعْتُ بجنون نحو "إيثان"، ألقىْتُ نفسي أرضًا إلى جواره، أسندْتُ رأسه
المرتجف إلى جِري ودموعي لا تتوقف:

- "إيثان"... هل أنت بخير؟ أجِبي!

كان يلهث، أنفاسه متقطعة كمن جرى في دروب الموت، لكنه رفع رأسه
بطء واعتدل في جلسته قليلًا. كانت عيناه تغرقان بالدموع وهو يُحدِّق بي
وكأنني معجزة بين يديه:

- "ماريانا"...! أنتِ، أنتِ على قيد الحياة؟

أومأْتُ برأسي مرارًا، وقلت وأنا أبتلع شهقاتي:

- نعم، نعم، أنا حيَّة، أنا هنا.

اغرورقت عيناه بالدموع، وهمس بنبرة منكسرة ممزوجة بالدهشة:

- الجميع كان يبحث عنكِ، لم نتوقف عن الأمل. كنا نعلم أنكِ ما زلتِ على

قيد الحياة، "ماريانا"، مَنْ هؤلاء؟ من هؤلاء الشياطين؟

لم أجد الكلمات، اكتفيت بأن أمسكْتُ بيده المرتجفة، وفي داخلي كنت
أعلم، أن ما مررنا به لم يكن سوى بداية الجحيم.

- لا وقت للشرح، يجب أن أُخرجكِ من هنا الآن، وبعدها سند...

لم أكمل كلماتي. تجمَّدت الحروف في حلقي حين تغيَّرت ملامح "إيثان"
فجأة، على نحوٍ جعل الدم يتجمَّد في عروقي. اتَّسعت عيناه حدَّ الذهول،
وارتعش جسده بعنف، شحب وجهه حتى صار رماديًّا كالأموات. وفجأة... قذف
الدم من فمه، تناثرت قطراته الساخنة على وجهي وهو لا يزال جالسًا أمامي.

كنتُ مشدوّهة، عاجزة عن الحركة، حين رفعت عينيّ ببطء ورأيت "ويليام"، رأيتَه وهو يُخرج قلب "إيثان" بيده العارية، من ظهره، ببرود وحشي لا يمتُّ للبشرِ بِصلة، تمامًا كما فعل مع ذلك الرجل فوق منصة الإعدام. لكن هذه المرّة، كانت الطعنة تَسكن صدري أنا.

سقط "إيثان" أرضًا، جسده الفاني يتهاوى بثقل موته، وعيانه لا تزالان مفتوحتين، تتساءلان بصمت موجع: "ماذا فعلتُ في حياتي لأموت بهذه الطريقة؟!".

وربما... كانت الإجابة ببساطة: لأنه أحبّ كاتبة روايات رعب سيئة الحظ. ارتجف كل جزء في جسدي، كل خلية، كل عصب. وكان "ويليام" ما يزال واقفًا هناك، يُقلب قلب "إيثان" بين يديه كما لو كان شيئًا لا قيمة له، ثم قال بسخريّة سوداء:

- قلب الرجل المُحب... قلبٌ لا فائدة منه.

كانت نظرتَه تعبث بجسدي كخنجر صدئ، أراد أن يلتهم قلب "إيثان" أمامي. لكن الفتاة الوحيدة بين أصدقائه تدخلت، قالت بسخريّة لاذعة وقد علت شفيتها ابتسامة باردة:

- تمهّل، يا جلالة الملك، أخشى أن تُصاب بعدوى الرومانسية.

ارتفعت الضحكات مجددًا، هستيرية، مسعورة، كسكاكين تغوص في أذني وروحي. أما أنا، فقد أعمى الظلام عينيّ، شعرت وكأن الأرض تدور بي في دوّامة لا رحمة فيها، نبضات قلبي تسارعت حدّ الانفجار، والهواء صار ثقيلًا لا يُطاق، لم أعُد أسمع سوى صدى ضحكاتهم، كأن الدنيا حولي تذوب في لهيب لا يُرى.

تصاعدت النار من صدري إلى جمجمتي، وضاحت أنفاسي، أو ربما تلاشت تمامًا، ثم انفجرت من داخلي صرخة مروّعة، كانت أقوى صرخة أطلقها منذ وطلتُ قدماي هذا الجحيم، صرخة فقدٍ وانكسارٍ وألم لا يُوصف.

وانهارت دموعي، لا تتوقف، لا تهدأ، بينما نظري معلقٌ بجسد "إيثان" الغارق في دمائه. صديقي، من كان رفيقي لأكثر من عشر سنوات، لماذا؟ لماذا عليه أن يموت بسببي؟

شهقت، ثم صرخت بصوت مهتز، مخنوق، يرتجف كنبض ميت:

- "ويليام"، سأجعلك تندم على هذا، أقسم أنني سأجعلك تندم.

رمقني من خلف قناعه بنظرة باردة، لا تحمل أدنى أثر للندم أو الاكتراث، ثم تقدم نحوي بسرعة خاطفة، أمسك بذراعي بقوة، وسحبني معه بعنف. كنت أرفض، أقاوم، أتعثر وأسقط، ثم أنهض مجددًا وهو يجُرُّني كدمية خاوية.

رأيت خنجرًا صغيرًا على الأرض، التقطته في لمح البصر، ورفعت يدي لأغرسه في رقبته. كنت أعلم أنه لا يموت، لكن أردت فقط أن أشفي ناري، أردت أن أصرخ في وجه الظلم، لكن يدًا خاطفة أمسكت بي. التفُتُّ، فكانت هي الفتاة صديقتي، أمسكت بذراعي بوحشية حتى شعرت بأن مفصلي سينخلع، أفلتُ الخنجر رغماً عني.

همستُ بصوت خافت ينضح بالسخرية:

- القتل هنا ممنوع، الفتيات الجميلات مثلكِ لا ينبغي لهن أن يقتلن أحدًا.

وانفجرت الضحكات مجددًا، لا أعلم ما المضحك، ولا كيف يضحكون! كل شيء في داخلي كان ينهار: كره، حقد، دموع، ألم، كل ذلك يتصارع في صدري بلا نهاية.

لم يتركني "ويليام" طويلاً، وحين شعر بالملل من مقاومتي، رفعني فوق كتفه كأنني لاشيء، كدمية قماشية بلا روح. كنت أصرخ، أضرب ظهره بكل ما أوتيت من قوة، لكنه لم يكن يتحرك. كان كجبل من الحديد، لا يشعر، لا يهتز. رفعت رأسي في اللحظة الأخيرة، نظرت إلى جثة "إيثان" للمرة الأخيرة. كان ممدداً وسط دمائه، غارقاً في صمته الأبدي.

رددت في أعماقي فقط:

- أنا آسفة، أنا آسفة، أنا آسفة.

لكن لا شيء كان قادراً على محو الدم.

الفصل الثاني عشر

"ماريان"



كنت أشعر بوجودها في رأسي، في أعماق روحي، وفي زوايا مخيلتي. كانت تطلُّ عليَّ في أحلامي كأنها أنا، رغم أنها لا تشبهني، بل حتى أنا لم أَعُدْ أشبه نفسي.

- مات "إيثان"... "ويليام" هو مَنْ قتله.

ظللت أردد هذه العبارة في داخلي، تكررًا لا ينقطع، خلال الثواني التي كان فيها "ويليام" يحملني على كتفه كجسدٍ متهالك. كنت قد استنفدت كل قواي في الصراخ، والنواح، والبكاء. كان كل ما فيَّ قد انهار.

تخيلتُ والديه، كيف سيواصلان البحث عنه؟ كيف سيحتملان غيابه وهو غارق في غياهب المجهول تمامًا مثلي؟

أمه لن تحتل اختفاءه، فهي ليست امرأة قوية كانت متعلقة به إلى حدٍّ مؤلم، ترى فيه العالم بأسره، إلى درجة أنها لم تفكر يومًا في تزويجه، خشية أن يُنتزع منها.

لن تحتل ألم الانتظار، انتظار من اختفى فجأة، دون وداع، دون أثر. تبددت أفكاره حين شعرت بجسدي يُلقى على الأرض. نهضت بهدوء، بينما انسكب شعري على وجهي، ودموعي لا تزال تنساب بلا توقف. عقلي يرفض تصديق ما حدث، يرفض الإذعان للحقيقة.

رفعت رأسي بصعوبة، كانت رؤيتي مشوشة من كثرة البكاء، لكنها ما لبثت أن اتضحت. أعادني إلى الغرفة، انتهى من "حفلة"، تلك التي استمتع بها مع أصدقائه وكأنهم في كرنفال جريمة.

كان لا يزال واقفًا إلى جانبي، ثم انحنى، وأمسك بذراعي بقوة، وأجلسني على الكرسي عنة.

نظرت إليه ونار الحقد تشتعل في عيني، والغضب يخنق صدري حتى كدت أختنق:

- لماذا فعلت ذلك؟ لماذا قتلته؟

سألته بصوت مرتعش، وجسد يرتجف، ودم "إيثان" ما زال ملطخًا وجهي ويدي...

رد بتعالٍ منتصر:

- ولماذا تظنين؟ لأنك تجرأتِ على تحدّيّ! لأنك ظننتِ نفسك ذكية شجاعة، كم مرّة يجب أن أذكرك بأدوارنا؟ أنا الخاطف، وأنت المخطوفة؛ لذا عليك أن تصغي وتنقّذي كل ما أمرك به.

ثم نظر إليّ نظرة طويلة، وأضاف بنبرة مملوءة بالوعيد:
- وإن كنتِ ترغيبين باللعب أكثر، فما زالت القائمة طويلة. والدك، شقيقك،
زوجته، أطفاله.

ثم سكت للحظات، واقترب من أذني، وهمس بصوتٍ بارد كالموت:
- ووالدتكِ الثانية، قد تخسرينها أيضًا، وصديقاتكِ السخيفات إن لم تتوقفي،
فمصيرهن لن يختلف.

- إِيَّاكَ أن تلمسهم، إِيَّاكَ أن تؤذي أيَّ شخص أحبُّه. "ويليام"، إنك شيطان،
شيطان متوحش بكل ما تحمله الكلمة من معنًى.

قلت ذلك وأنا أحاول جاهدةً كتمان دموعي، لكنها كانت تتفجّر من عينيّ كما
لو أنها تستجيب لوطأة القهر، لا لنداء الكبرياء.

ضحك "ويليام" بسخرية وهو يصقّق بيديه، ثم راح يدور حولي كصيّاد يطوف
حول فريسته المرتجفة:

- شيطان؟! على الأقل أنا واضح وصريح في شيطانيّتي! حسّنًا، فلنر الآن...
الكاتبة المثالية الناجحة "ماريانا"، تلك التي أدمنتِ ادّعاء الطهر والنقاء أمام
العالم، كيف كانت تُخفي خلف صورتها المزيفة حقيقةً لا يجرؤ أحد على
مواجهتها. ملاك؟ بل مجرّد قناع شاحب لماضٍ أسود ونوايا مظلمة.

من أين أبدأ؟ لنبدأ من الأسهل، من الأقلّ صدمة.

قالها بضحكة لئيمة، ثم اقترب ووضع يده على صدره مقلدًا صوت قلب
ينبض بالخداع:

- كنتِ تدّعين أن التدخين مضرٌّ بالصحة والقلب، وأنكِ لن تلمسي سيجارة
في حياتك. لكنكِ كنتِ تدخين خلسة منذ خمس سنوات، وتكذبين على قرّائك

كما لو أن الكذب فضيلة.

وماذا أيضًا؟ آه، نعم... كنتِ تزعمين أنكِ تهتمين بالجمعيات الخيرية، وأنتِ تنذرين وقتك للفقراء والمحتاجين، بينما الحقيقة أنكِ لم تفعلي أيَّ شيء من هذا قَط.

صوته ازداد حدة وهو يقترب أكثر، ينزع عني أقنعةً لم أدرك أنها ما زالت ملتصقة بوجهي:

- وقلتِ إنكِ ترفضين فكرة الوشم، وأن جسدك طاهرٌ من أي علامة، بينما تخفين وشمًا في ظهرك. لكن ما هو أخطر من كل هذا؟ ابتسامتك المزيفة التي تهدينها لمعجبيك، كلماتك المنمقة التي ترشيتها في وجوههم كأنكِ تحبينهم وتجلينهم، والحقيقة؟ أنكِ تسخرين منهم في كل جلسة مع صديقاتك.

تذكرين تلك التي علقتِ على ملابسها ووصفتها بالمسكينة؟ وذلك الشاب الذي قلتِ إن رائحته كريهة كالموت؟ كنتِ تتظاهرين بالحب، وأنتِ في الحقيقة تملئين قلبك احتقارًا لكل من حولك.

توقفَ لحظة، ثم اقترب أكثر حتى كدت أشعر بأنفاسه تقطر سُمًا:

- وماذا عن تلك الحادثة القديمة؟ الفتاة التي دفعيتها من أعلى السلالم في المدرسة، فقط لتُشعرها بأنها أدنى منك، وبفضل والدك الثري، سُوي الأمر بالمال واشتريتِ صمت الجميع.

"ماريانا"؟ لا... أنتِ لستِ "ماريانا"، تلك التي يراها الجميع ويحبونها كذبة. أنتِ "ماريان"، الفتاة السيكوباتية التي لم تدرك يومًا حقيقتها؛ لأنها ببساطة عاشت طوال حياتها في إنكار.

كانت عاصفة من الصدمة والاكتئاب والحزن تجتاح روحي، وتعصف بقلبي ورأسي في آنٍ واحد، بينما هو يمضي في سرد أسرار حياتي، تلك الأسرار التي

لم يعلم بها حتى قريني. لكنه، "ويليام"، كان يعرفها!

قبضت على كفي بشدة حتى شعرت بأظافري تنغرس في جلدي، سألت بصوت متلعثم يغلفه الأسى:

- كيف؟ كيف عرفت كل هذا؟

فأجاب بهدوء، وقد حَفَّت انفعاله:

- كيف لك أن تطرحي مثل هذه الأسئلة السخيفة؟ أما زلتِ تجهلين؟ أما أدركتِ بعدُ أنني كنت ظلكِ الملاصق؟ كنت قريبًا إلى حدٍّ لا يُحتمل، دون أن أشعركُ بوجودي. راقبتكِ طيلة سنوات حياتك، أعرف ما تحبين وما تكرهين، أميزك عن "ماريان"، رغم أن "ماريان" لم تكن يومًا موجودة، لكنها كانت الصورة التي أردتِ أن تكوني عليها.

- ما الذي تعنيه بذلك؟

- أنتِ لا تعيشين حياتكِ، بل تحيين في أحلام "ماريانا"، تسكنين وهُم شخصيتها لأنكِ تظنين أنكِ هي. كانت "ماريانا" تحلم بأن تصبح كاتبة ناجحة، إنسانة واعية، مثقفة، متواضعة، مسالمة، مُحبة، شغوفة، وطيبة القلب.

سألته بصوتٍ متهالك، والدموع لا تزال تنساب على وجهي الذابل:

- وماذا عن أحلام "ماريان"؟

- في بعض الأساطير يُقال إن التوائم حين تُولَد، يحمل أحدها جوهر الخير، والآخر يحمل الشر. من المستحيل أن يجتمعا على الخير، كما لا يمكن أن يكونا معًا في درب الظلام. كانت "ماريانا" هي الخير... وأنتِ، يا "ماريان"، كنتِ الجانب المظلم.

لكن ما حدث، حطّم التوازن. ظلت روحكِ تمزقها الشائبة، يتنازعها النور والظلام. كنتِ تائهة طوال حياتكِ، لا تعرفين من تكونين، ولا ماذا تريدن، ولا حتى أي وجه هو وجهك الحقيقي. في بعض الأحيان يظهر جزء من ذاتكِ الحقيقية "ماريان" كما هي، ثم في لحظات أخرى تتقمصين شقيقتكِ الميتة "ماريانا".

مثلاً: أحلامكِ وأمنياتكِ كـ"ماريان" كانت أن تصبحي مغنية مشهورة، كنتِ تلهثين خلف الأضواء، تحبين أن تكوني محطّ أنظار الجميع، تحبين حبّ الآخرين لكِ، ثم تحتقرينهم في داخلكِ. تسعين لأن يتودد إليك الناس، لكنكِ في المقابل، تفعلين ما لا يليق بشخصية أدبية في مجتمعٍ محافظ: تُدخين، تشربين النبيذ، تضعين الوشوم، تلهثين خلف الشهرة، تملأكِ الفوضى، وتلاحقكِ الفضائح في الإعلام، تلك ليست حياة كاتبة كُتّب... بل حياة ممزّقة، ضائعة. لكنكِ لم تختاري ذلك، بل فرضته على نفسك حين قرر والدكِ إعطاءكِ قناع "ماريانا".

قاطعته بصوت مرتجف تملأه المرارة:

- أنت تحاول فقط أن تزرع الشك في داخلي؛ لتجعلني أشبهك، وحشّاً مثلك!
لكن ما فعلته أنا لا يُقارن بما تفعله أنت!

ضحك بسخرية باردة:

- لا، لستُ أحاول أن أفسدكِ. أنا فقط أعزّيك أمام نفسك، أريك حقيقتكِ التي تتجاهلينها بإصرار. توقفي عن الهروب، عن لعب دور "ماريانا". عودي إلى ذاتكِ، إلى "ماريان" الحقيقية، تَخَلّي عن تلك المثالية الزائفة، فهي لا تليق بكِ.
ثم نهض، واتجه نحو باب الغرفة بخطوات هادئة. تَنهَّد وهو يفتح الباب، وقبل أن يرحل، التفت إليّ وقال:

- الحقيقة يا "ماريان" ليست دائماً ما نرغب بسماعها، لكنها الشيء الوحيد الذي ينجينا من الجنون.

انتهت الليلة التي حملت شيئاً من الجمال في ظاهرها، لكنني أعلم جيداً أنها كانت ليلة قاسية على "ماريانا"، بينما بدت سهلةً على "ماريان"... فهي، في نهاية المطاف، لم تكن تعباً بإيثان، ولم تهتم بأمره قط. لطالما سخرت منه ومن حبه لها، وكأن مشاعره لم تعن لها شيئاً.

ثم استرسل "ويليام" وهو يستعد للرحيل:

- إذًا، طابت ليلتك يا "ماريان". سأراك غداً، فاستعدي لجولة جديدة من الكتابة.

غادر الغرفة وأغلق الباب خلفه. بقيت وحدي أبكي في صمت، وروحي مثقلة، منكسرة، لا أعلم حتى على ماذا أبكي؟ أبكي على "إيثان"؟ أم على نفسي؟ أم على تلك الحقيقة التي لطالما أنكرتها؟

أكان "ويليام" على حق؟ لعل ما أعانيه الآن من ألمٍ هو ثمثٌ لعلاقتي السيئة بالذين أحبوني، بمن حاولوا الاقتراب من روحي الممزقة.

أأنا أبكي على "ماريانا"؟ أم على "ماريان"؟

ربما، فقط ربما، لم يكن "ويليام" من دمّر حياتي، بل كانت حياتي مدمّرة منذ لحظة ميلادي. وربما عليّ أن أسمح لدموعي أن تسيل للمرّة الأخيرة.

مع أنني، في كل مرة، أقول إنها ستكون الأخيرة، ومع ذلك أفشل دائماً.

جلست على الأرض، وانكمشت على نفسي، احتضن ذاتي المرهقة، أتمنى لو أن دموعي تُغرقني وتُنهى هذا العبء إلى الأبد.

وربما، فقط ربما، سئمْتُ من الضعف.

ربما آن الأوان...

لأقصى "ماريانا" من حياتي إلى الأبد.

وأكون "ماريان"، كما أنا، دون أقنعة.

"ديموس"

"الضعف لا وجود له في قاموس أبناء شعبنا".

قالها أخي "فوبوس" بنبرة حازمة، وهو يواصل سرد تفاصيل الأزمات والمشكلات المتصاعدة في أرجاء المملكة. كعادته، يتحدث وكأن الأمر لا يعنيه، وكأن التاج لا يعني سوى مَنْ وُضِعَ على رأسه، لا مَنْ يحترق تحته.

منذ اللحظة الأولى التي نُصِّبَتْ فيها ملكًا، منذ أن أجلسوني على هذا العرش البارد، وأنا أشعر بالغربة. لم تكن هذه الحياة يومًا ما أردتها، لا أحب أن أُقَيَّدَ بمقعدٍ لا يتحرَّك، ولا بوجوه لا تتبدَّل.

نزعت القناع عن وجهي، تنفَّست بعمق، ثم فتحت شرفة غرفتي التي تُطل على بحر الأموات، باحثًا عن نسمة تُطفئ شيئًا من نيران رأسي.

- "ديموس"، هل كنت تصغي إلى ما أقوله؟

سأل "فوبوس" بعدما شعر بانقطاعي عن حديثه.

أجبت ببرود وأنا أستقر على مقعد الشرفة واضعًا ساقًا فوق ساق:

- نعم، سمعتك... لكن لا رغبة لي في الحديث.

اقترب وجلس إلى جوارِي، تطلَّع إليَّ بعبوس وقال:

- وماذا تعني بذلك؟ أنت بصدد استخدام سلاح الصمت العقابي الآن؟ أم أن

هناك ما هو أعمق؟

ضحكت بسخرية قائلاً:

- يعجبني حسك الفكاهي النادر.

ردَّ "فوبوس" بنبرة جادة وقد نفذ صبره:

- "ديموس"، أرجوك ركّز معي، بعد غدٍ سيُعقد الاجتماع السابع لمجلس
"المتنبئين"، ويجب أن تكون حاضرًا. لقد سئمت من لعب دورك والقيام
بمهامك، أنت الملك ولست أنا، حتى والدنا بدأ يشعر بالغضب.

أجبت باستهزاء، بينما أشعلت سيجارتي ببطء:

- ومن يهتم بغضب ذلك العجوز؟

ثم تابعت، وقد لاحظت علامات الاستياء ترسم على وجه "فوبوس"، فهو
يكنُّ لوالدي احترامًا لا أشاركه إياه:

- وماذا عن اللورد "فينسيون"؟

قال بهدوء:

- إنه في الخارج، مستعد للحديث معك الآن.

رفعت حاجبي بتعجب:

- في هذه الساعة المتأخرة؟

رد بنبرة لائمة:

- ومتى كان لديك وقت على أي حال؟ لا أفهمك يا "ديموس"، تمضي وقتك
كله مع تلك الفتاة الغريبة، مع أن هذه الوظيفة كان ينبغي أن تتوقف عنها منذ
عامين. لم تُعد بحاجة إلى كاتب بشري، ومع ذلك تصرُّ على الاستمرار، وكأنه
أمر شخصي لا يفهمه سواك!

رمقته بنظرة باردة، ثم نفث دخان سيجارتي في وجهه بلا اكتراث،
"فوبوس" أكثر من عرفته صبرًا وثباتًا، برودته تقتلني دون أن ينس بكلمة.

- اهتم بشؤونك الخاصة، يا "فوبوس"، ولا تتدخل فيما لا يعنيك.

قال "فوبوس" بنبرة جادة وقد انعكست الجدية على ملامحه:

- لكنني أريدك أن تكون ملكًا حقيقيًا، يا "ديموس". لقد بذلنا المستحيل، أنا وأنت ووالدنا، لنصل إلى ما نحن عليه الآن.

أومأت برأسي قائلاً بتناقل:

- نعم، لا أنكر ذلك. لكن، لم يكن من المفترض أن أكون الملك، الخطة الأصلية كانت أن تجلس أنت على العرش، غير أن ذلك العجوز الخائف من ظلاله، المرتعد من الأساطير والخرافات والأحلام التي لا معنى لها، هو مَنْ غَيَّر كل شيء. إنه يخشى على نفسه أكثر مما يخاف على المملكة.

ردَّ "فوبوس" بنبرة متماسكة، كأنه يودُّ إخماد نيران هذا الحوار:

- اسمع، "ديموس"، ليس هذا وقت المشاحنات. سأُخبر اللورد "فينسيون" بأن يدخل الآن.

صرخت بانزعاج، وقد ضاق صدري من مقاطعته:

- يا إلهي! لِمَ تقاطعني؟ ولماذا تغيّر الموضوع فجأة؟!

لكن "فوبوس" لم يُعرنِي اهتمامًا، وانصرف بخطوات ثابتة، وكأن غضبي لا يعنيه. غاب للحظات، ثم عاد بصحبة رجل مسنٍّ، ضخم الجسد، شاحب الوجه، كان يلهث كما لو كان قد هرول للتو، لكن سيمنته الواضحة كانت تُعيقه عن الحركة، وكان تنفُّسه ثقيلًا متقطِّعًا.

انحنى أمامي بصعوبة، ثم قال بصوتٍ مرتجف وهو لا يزال مُنحنيًا:

- شرفٌ عظيم لي، يا جلالة الملك "ديموس"، أن أُمنح فرصة اللقاء بك في هذا الوقت المتأخر، رغم انشغالك الشديد.

أطلق "فوبوس" ضحكة خفيفة، لكنها كانت مشبعة بالسخرية. استشاط غضبي، وسألته بحدّة:

- ما المضحك في الأمر؟

أجاب دون أن ينظر إليَّ:

- لا شيء...

كتمت غضبي بصعوبة، ثم التفتُّ إلى ذلك الرجل البدين الذي ما يزال منحنيًا أمامي، وقلت له بنبرة هادئة:

- حسنا... تكلم.

أجاب بصوت مخنوق، متعب من وطأة الانحناء الطويل:

- حاضر، يا جلالة الملك. في الحقيقة...

لكن "فوبوس" قاطعه دون أن يتلقَّظ بكلمة، مكتفيًا بالإشارة نحوي بصمت. كان يتحدث إليَّ عبر أفكارنا المشتركة، كما اعتدنا دائمًا؛ إذ لا أحد غيرنا يستطيع التواصل بهذه الطريقة. همس في رأسي بأن عليَّ أن أمره بالوقوف، فتذكَّرت أن من قوانين القصر أن يظلَّ الشخص منحنيًا أمام الملك حتى يأذن له بالاعتدال.

نعم، أعلم أن جدِّي ووالدي حكموا هذه المملكة لسنوات طويلة، لكنني لم أكن يومًا قريبًا من العرش، ولم أتعلم قواعده جيدًا، على عكس "فوبوس" الذي نشأ في قلب البلاط، وتشرب تفاصيله. ومع ذلك، وجدت الأمر مسليًا، فقد كانت هذه إحدى هواياتي المفضلة: اللعب بالناس والتحكم فيهم.

قلت له وأنا أراقب وجهه المحمرَّ، وقد بدأت الدماء تصعد إلى رأسه بعد دقيقة كاملة من الانحناء:

- قف باعتدال، أيها اللورد.

اعتدل الرجل بصعوبة، وقد غمر الاحمرار وجهه، وبدأ وكأنه يلهث من عناء بسيط، ثم قال بامتنان:

- شكرًا يا جلالة الملك. حسنًا، ما أردتُ قوله هو أن الحرائق لا تزال تلتهم أراضينا، ولم يَعدْ هناك أي طعام متبقٍّ... لا شيء.

قال ذلك بنبرة يائسة، حزينة. صمْتُ للحظة، ثم ضحكت ساخرًا:

- أخشى أن مجرم التهام الطعام يقف أمامي الآن!

قطَّب الرجل حاجبيه في دهشة، وقد صُدم من كلماتي، ثم التفت إلى "فوبوس". كان غاضبًا، فبادرت سريعًا بنبرة متخففة:

- حسنًا، إنها مزحة، تجاهلوا الأمر، دعونا نعود إلى ما هو مهم. إذًا، أنتم لا تعلمون سبب اندلاع هذه الحرائق؟

ردَّ بتردد:

- أظنُّ... أظنُّ أنهم الصيادون، يا مولاي.

فجأة، بدا الغضب على وجه "فوبوس"، وقال بحدَّة:

- هذا مستحيل! لا يحقُّ لك، أيها اللورد، أن تتَّهم رجالي بهذا الشكل دون أي دليل واضح!

كان واضحًا أن غضب "فوبوس" ليس بالأمر المعتاد، لكنه يشتعل سريعًا في ثلاث حالات فقط: حين يُمس أحد رجاله من "مملكة الكوابيس"، حين يُذكر والدنا العجوز أو والدتنا بسوء، أو حين يمسُّني أنا بكلمة.

- الأمير "فوبوس" على حق، من المستحيل أن يكون الصيادون مسؤولين عن إحراق ثلاثة جبال كاملة في يوم واحد. هذا الفعل يفوق قدرتهم، ويتجاوز إمكانياتهم المحدودة.

رد اللورد البدين وقد بدا عليه التوتر أكثر:

- أعتذر سمو الأمير، وأعتذر لكم يا جلالة الملك، لكنني فقط أنقل ما يُشاع هنا وهناك. أما عن رأيي الشخصي، فلديّ تصور مختلف.

قلت له باهتمام، رغم تظاهري بالامبالاة:

- تكلم، ما هو رأيك؟

نظر إليّ بخوف أكبر، ثم مسح جبينه المتصبّب عرقًا وهمس:

- أظن أن ما قاله "المتنبئون" بدأ يتحقق، يا مولاي. كان هناك طفل صغير يعمل في إحدى المزارع، قال إنه رأى النيران تنبعث من السماء. لكن السماء لم تكن صافية، بل كانت ملبّدة بالسحب، حالكة السواد. وعندما أضاء البرق للحظة، زعم الطفل أنه لم ير السماء... بل رأى وحشًا عملاقًا يظهر من بين الغيوم، كما لو أنه جاء من أراضٍ مجهولة، نائية، لا يعرفها أحد.

نظرت إلى "فوبوس"، وقد كانت ملامحه جادّة ومركّزة، مأخوذًا بما يقوله اللورد، يتعامل مع القصة كما لو أنها رسالة نذير. أما أنا، فلم أكن أكثرث كثيرًا. نحن جميعًا في هذا العالم وحوش، وكل ركن من مملكتنا هو جزء من وحشٍ أكبر.

لكنّ الفرق الوحيد الذي أعرفه جيدًا: أن هناك وحوشًا يمكننا إخضاعها والسيطرة عليها، وهناك وحوش متمردة لا تخضع لأي سلطان.

الجميع هنا - أبي، أقصد العجوز، وأخي، بل وحتى الشعب بأسره - ينتظرون مني أن أعيد التوازن، أن أخضع ما انفلت، وأعيد توحيد القوى المنفلتة، وأفرض السيطرة.

أما أنا، فكل ما يشغلني حقًا هو:

ماذا ستكتب لي "ماريان" غدًا؟

في أرضٍ تلُفُّها الظلال من كل صوب، لا يُسمع فيها سوى أنين الهمسات
وصراخ الأرواح المرتجفة، كوابيسُ تتناسل من بعضها بلا نهاية، تذرع المكان
حيئةً وزهاً. يُقال إن مَنْ تطأ قدمه أرض "مملكة الكوابيس"، فلن يعود منها
أبدًا؛ فهي المملكة الأشد قسوة، والأكثر رعبًا، والأغرب طابعًا بين سائر
الممالك.

"مملكة الكوابيس" ليست كسائر الأراضي، فشعبها لا هُوية له، بل هو متبدل
متحول، يعكس اضطراب الأحلام وتلُّون الرؤى، أو لعلَّها في الحقيقة أرض بلا
شعب، ليس فيها سوى ظلال باهتة، وظلام كثيف، وكوابيس قد نسيها الزمن،
ووحوش هائمة لا تعترف بالعقل، تخضع فقط لسلطان الجيش الكابوسي.

لا أحد، كائنًا من كان، يستطيع الصمود في "أرض الكوابيس" لأكثر من
دقيقة واحدة؛ فبعدها يُبتلع العقل وتُفكَّك الروح. لا يمكن لأي قوة أو مَلِك أو
مخلوق أن يحكمها أو يروض وحشها، سوى رجل واحد فقط... هو ملكها،
أميرها، وسيدها المطلق:

"فوبوس".

الفصل الثالث عشر

مملكة الكوابيس



"فوبوس"

"مملكة الكوابيس"

هي أرض سوداء، دُفنت في أعماق عالم "مملكة الرعب"، وكانت أصعب البقاع التي تَمَكَّن أبناء "إيريبوس" من توحيدها والسيطرة عليها. في هذه المملكة الغامضة، تتحوَّل الأحلام إلى كوابيس متجسدة، وتذوب حدود الواقع، فلا شيء فيها ثابت أو مألوف. كل ما فيها يبدو وكأنه مقتطع من أبشع الكوابيس التي تخيلتها العقول البشرية، تلك التي صاغها أدباء الرعب، أو عاشتها شخصيات خيالية؛ لُتبعث من جديد كعالم دائم التغيُّر، يسجن الداخلين في دوامة لا تنتهي من الرعب والجنون.

سماء المملكة قاتمة لا تعرف النور، يغلفها لون أرجواني داكن، تخترقه سُحب سوداء ملتوية، تتحرّك كما لو كانت كائنات حيّة تراقب مَنْ تحتها في صمت ثقيل.

أما القمر، فهو كيان غريب، ضخم ومشوّه، ينزف ضوءًا أحمر كأثّه جرح مفتوح في السماء، وأحيانًا يتحوّل إلى عيني متوحشة تُحدّق في كل من يجرؤ على السير تحتها.

الأشجار في هذه الأرض ميتة، لكنّ بعضها يتحرك ببطء مريب، كما لو كانت تحاول الإمساك بالمارّين، فيما تحمل جذوعها وجوهًا مشوّهة تصرخ في صمت أبدي. الأرض مغطّاة بضباب كثيف يهمس بأصوات لا تُفهم، وأحيانًا ينقشع ليكشف عن ممرات ضيقة تؤدي إلى أماكن أكثر ظلمةً وهولًا.

الجبال هناك منحنية بانكسارٍ غريب، توحى وكأنها تنحني على بعضها البعض، ويُسمع منها عويلٌ مستمر لا يُعرف مصدره.

تسكن المملكة كائنات وُلدت من أكثر المخاوف البشرية عمقًا، ومن كوابيس الشخصيات وأفكار المؤلفين في أدب الرعب. أشباح مشوّهة، ومسوخ تائهة بأجساد غير مكتملة، تتلوّى بحركات لا تخضع لقوانين الطبيعة. ومن بين هذه الكائنات ما يُعرف بـ"الحالمين الضائعين"، وهم أولئك الذين دخلوا المملكة عبر كوابيسهم، ففقدوا هُوياتهم، وتحولوا إلى كيانات مروّعة تعيد تمثيل كوابيسها مرارًا وتكرارًا، دون مفرّ.

وفي قلب هذه المملكة الملعونة، يسكن سيد الكوابيس نفسه، ملك هذه الأرض: الأمير "فوبوس".

"فوبوس" كيان لا شكل له؛ إذ يتجسد بما يخشاه كل من يقابله. إنه المتحكم المطلق في المملكة، يراقب الداخلين، ويحوّل أحلامهم إلى كوابيس حيّة

تفترسهم. ورغم أنَّ الكثيرين يعتبرون "ديموس" أقوى منه، فإن "فوبوس" يتفوق عليه بالحكمة والدهاء؛ إذ لا يندفع ولا يتسرع، بل ينسج رعبه بصبرٍ قاتل. وحده من استطاع إخضاع هذه المملكة الهائجة، وتوحيد فوضاها.

تتميّز "مملكة الكوايبس" بتغيُّرها المستمر، فهي لا تُحصر في شكلٍ أو حدود؛ لذلك الخروج من "مملكة الكوايبس" يُعدُّ أمرًا شبه مستحيل، فهي ليست مكانًا يُزار وتُغادره كما يشاء المرء، بل أرضٌ لُعنَت بجذب كل من تكررت كوايبسه، وكلما ازداد خوف الإنسان، ازداد احتمال وقوعه في قبضتها. والطريقة الوحيدة للنجاة، تكمن في مواجهة الكابوس الأعظم الذي يسكن أعماق كل شخص، لكن القلائل فقط تمكنوا من تحقيق ذلك، أما الآخرون... فقد ابتلعتهم المملكة، وأصبحوا جزءًا منها إلى الأبد.

في أعماق تلك المملكة، وتحديدًا في قصر يُدعى: "قصر الكابوس"، دخل الأمير "فوبوس".

ذلك القصر العتيق، الخالي من الحياة، لا خدم فيه ولا عمّال، لا أصوات فيه سوى صدى خطوات الأمير ورجاله. لم يجرؤ أحد على البقاء فيه، فهو مكان لا يحتمله سوى "فوبوس" نفسه، وقلّة من أتباعه المخلصين.

بُني القصر من حجارة سوداء قاتمة، يقال إنها استُخرجت من بقايا كوايبس "صانع العالم الأول"، ويُعتقد أنه أقدم ما تم تشييده في هذا الوجود الكابوسي.

دخل "فوبوس" إلى قاعته الخاصة، وجلس على عرشه الحجري، ينتظر مجيء رجل يُعرف بـ "المتلصّص"، وهو جاسوس يعمل في الخفاء.

دخل المتلصص القاعة بصمت، وانحنى احترامًا أمام الأمير، ثم وقف باستقامة، وقال بنبرة جادة:

- سموّ الأمير، كل شيء حقيقي، لقد تم التأكيد.

- هل أنت متأكد؟

قالها الأمير "فوبوس" بنبرة حادّة:

- نعم، لقد أبلغني بعضهم أن جيش الظل قد بدأ في الزحف بالفعل.
ساد الصمت لثوانٍ، قبل أن يلوّح الأمير بيده، مشيرًا إلى الرجل الواقف أمامه:

- حسّنًا، لا بأس... غادر الآن، ولا تنسَ تنفيذ المهام الأخرى.

انحنى المتلصص مغادرًا، تاركًا الأمير غارقًا في قلقه.

فرغم ما يُشاع عن "فوبوس" وشقيقه "ديموس" من أنهما لا يعرفان الخوف، ولا يختبران القلق أو التوتر أو أي شعور بشري، فإن الواقع كان مغايرًا تمامًا.

"فوبوس"، بخلاف شقيقه، كان يملك قلبًا مثقلًا بالمشاعر، بينما وُلد "ديموس" خاليًا منها، كأنما حُلق من حجر لا ينبض.

عاد الأمير إلى حجرته الخاصة لينال قسطًا من الراحة، وإن كانت الراحة بالنسبة لأبناء "مملكة الخوف" والرعب لا تشبه النوم أو الأحلام كما يعرفها البشر؛ إذ لا ينامون، ولا يحلمون، ولا يغفون.

تسللت إلى ذهنه ذكرى الأميرة "ديفا"، زوجته التي غادرت منذ أشهر إلى عائلتها بعد أن تصاعد التوتر بينهما.

كان "فوبوس" يحب "ديفا"، وهي بدورها كانت تبادله المشاعر ذاتها، لكن بعد الزواج، انهار كل شيء فجأة.

اختار "فوبوس" السُّلطة والولاء لعائلته المالكة، وفصّل عرشه على قلبها، ولم يشعر قط بالطمأنينة منذ ذلك الحين؛ إذ ظلَّ عقله مثقلًا بالهموم.

وكان من بين ما شغل ذهنه بقوة، تلك "الكاتبة" الغامضة التي يحتجزها شقيقه "ديموس".

ظل يحاول جاهدًا أن يستحضر من ذاكرته القديمة أين رآها من قبل؟ أو مَنْ تُشبه؟ ولماذا، من بين جميع المؤلفين، استطاعت العبور عبر البوابات المحرّمة، التي لا يستطيع اختراقها حتى أبناء "مملكة الخوف" أنفسهم؟

لقد سبق وأن أرسل أحد متلصصيه للتحقيق، متخفيًا في هيئة طائر غريب، شبيه بالغراب الأسود؛ كي يتقصى حقيقة "ماريانا"، ويعرف لماذا يتمسك بها "ديموس" بشدة حتى الآن...

الفصل الرابع عشر

قصص جديدة



أنهضُ بثقلٍ وألم، وكأن جسدي قد تهشَّم من الداخل، عيناى تؤلمانى بشدَّة، كأنَّهما على وشك السقوط من مكانهما بسبب بكائى المرير ليلة الأمس... أو لعلها لم تكن البارحة؟ هل مضت ليالٍ أخرى؟ لم أَعُد أُميِّز بين الليل والنهار، ولا بين اليوم والأمس.

فى هذا المكان، لا وجود للضوء، لا أذكر أنني رأيت الشمس يومًا، ولا أنني شعرت بحرارة النهار تداعب وجهى.

متى كانت آخر مرة رأيت فيها الشمس؟ هل كانت قبل أن يختطفنى ذلك الشيطان؟

يعتصر قلبي الألم كلما تذكّرت أن "إيثان" مات بسببي، دون أن يقترب أي ذنب.

مات، رغم أنه لم يكن كاتبًا في أدب الرعب، لم يكن ينتمي إلى هذا الجنون، ذنبه الوحيد أنه أحبّني، وهذا وحده كان كافيًا لقتله.

أعتدل في جلستي بصعوبة، أشعر بأن أطرافي منفصلة عن بعضها، كأنها لا تنتمي إليّ.

أنا الآن على السرير، لكنني متأكدة أنني نمْتُ على الأرض، لا شك أن ذلك الشيطان نقلني أثناء نومي.

حسنًا، يا "ويليام"، أعدك... سأجعلك تندم على كل ما فعلته، على كل ما ظننته انتصارًا. حتى وإن كنت تسمع أفكاري الآن، لا يهْمُنِي، دَعْهَا تصل إليك.

إذا كنت تريدني أن أكون "ماريان"... فسأكونها.

لمحت وهجًا أحمر ينعكس على كتفي، ظننته للوهلة الأولى من ملابسي، لكن لا، لم يكن كذلك.

كان شعري! خفق قلبي بقوة، وارتعشت يداي، مددتُ يديّ المرتجفتين إلى شعري لأؤكد، لقد أصبح لونه أحمر، أو أقرب إلى لون البرتقال المُنَقَّد!

مستحيل! كان شعري أسود قاتمًا، كيف تغيّر لونه بينما كنت نائمة؟

قفزت عن السرير، وركضت متعثرة نحو طاولة الزينة، حدّقت في المرأة، ولم يكن وهمًا، شعري قد تغيّر حقًا، أصبح أحمر بالكامل!

لكن لماذا؟ كيف؟ ومن الذي فعل هذا بي؟

وقبل أن أفيق تمامًا من صدمتي، انفتح الباب بهدوء، ودخلت منه امرأة ترتدي فستانًا قطنيًا أسود طويلًا، تتخلله أكمام من الدانتيل الأبيض بتصميم

قديم وكلاسيكي.

كانت تمشط شعرها المضفر إلى الخلف، وقد انسدت عليه خصلات بيضاء متناثرة بشكلٍ منسقٍ ومثالي، زاد من أناقتها الغريبة.

وجهها جميل، لكنه كان يوحى في الوقت ذاته بشرٍّ دفين، ومكرٍ لا يُستهان به. كانت تحمل صينية طعام وهي تبتسم، ابتسامة زائفة تتصنع البراءة.

علمتُ على الفور أنها ليست "لؤلؤة"، بل امرأة أخرى... امرأة أقوى.

بنيتها الجسدية تدل على أنها لن تكون ضحية سهلة، ولن تسمح لي بقتلها بشوكة طعام كما فعلتُ سابقًا.

قالت بنبرة ملساء:

- مرحبًا، آنسة "ماريانا".

صرخت بها بغضب مكبوت:

- اسمي "ماريان"!

ردّت ببرود وهي تضع الصينية على الطاولة:

- حسّنًا، "ماريان"... كما تريد.

اقتربتُ منها بسرعة، وسألتها بعصبية مفرطة:

- من الذي تجرأ على صيغ شعري؟! وكيف تجرأت على ذلك أصلًا؟!

حدّقت بي المرأة بدهشة مصطنعة، ثم رمقت شعري بنظرة سريعة،

وابتسمت ببرود:

- لا أعلم عمّا تتحدثين؟ لكن لون شعرك جميل.

في لحظة غضب عارمة، رفعتُ صينية الطعام إلى الأعلى، ثم قذفتها بقوة، فتكسّرت الأطباق وتناثر الطعام في أرجاء الغرفة، مخلّقًا فوضى عارمة.

نظرتُ إليها بنظرة حادة مليئة بالحقد:

- اذهبي وأخبري مَلِكك اللعين أن يأتي إلى هنا!

ظلت واقفة مكانها ببرود، لم يطرف لها جفن، وقالت بنبرة هادئة لكنها حازمة:

- لا ينبغي لك أن تتحدثي عن جلالة الملك بهذه الطريقة، يا آنسة. أفهم أنك لستِ مَنّا، لكنك الآن أصبحتِ واحدة مَنّا، ولهذا عليك أن تتحدثي عنه بكياسة واحترام.

أطلقتُ ضحكة ساخرة، مدوية، بينما بقيت هي على حالها، مبتسمة، كأن شيئًا لم يحدث.

- عليك أنتِ أن تحترميهِ... أما أنا، فلن أفعل، بل أخبريه بهذا بنفسك.

وقبل أن تنيس بكلمة أخرى، دَوَّى صوت عميق في أرجاء الغرفة:

- لا حاجة بأن تُخبريني... أنا هنا.

استدرت فجأة، فإذا بـ"ويليام" يدخل عبر الباب بخطى واثقة.

كان يرتدي قناعًا أحمر اللون، يُشبهه في ملامحه وجه هيكل عظمي، يزيدُه رهبة وغموضًا.

وما إن رآته الخادمة، حتى انحنت له بابتسامة تنمُّ عن سعادة واحترام، ثم اعتدلت ونظرت إليّ بنظرة صارمة، وقالت بجدية:

- عليك أيضًا أن تنحني لجلالة الملك!

أجبتها بسخرية حانقة:

- في أحلامكِ البعيدة، أنتِ وملككِ الحقير.

- وما دخل مَلِكها في الأمر حتى توجهين له الشتائم؟

ثم تابع حديثه وهو يجول بنظره على الطعام المتناثر والزجاج المحطم:

- لقد فعلتِها مجددًا... هل يجب أن أطلب منك تنظيف المكان؟ لا، بل بما أن

الأميرة "ماريان" قد عادت، سأكون كريمًا وأعفو عنكِ هذه المرّة.

التفت إلى الخادمة وقال:

- اذهبي، يا "ميلاني"، وبلّغي الخدم بأن يُنظفوا هذه الفوضى. يبدو أن أميرتنا

الغاضبة قد أعلنت إضرابها عن الطعام.

- حاضر يا جلالة الملك، أستاذك.

خرجت المرأة التي تدعى "ميلاني"، وفور خروجها سألت "ويليام" بغضب:

- من قام بصيغ شعري؟ أريد إجابة الآن.

ضحك بسخرية كعاداته:

- لا أحد يكثرث، يا صاحبة السموّ. تخيّلني فقط أن نوقف أعمال المملكة

بأكملها لمجرّد صيغ شعرك؟ أيُّ منطق هذا؟

- لكن من المنطقيّ أن تقوم بذلك؛ لأنك إنسان تافه وسخيف.

أضاف:

- أولًا، أنا لستُ إنسانًا. وثانيًا، دعيني أوضح لك شيئًا. في "مملكة الخوف"،

الفتيات الجميلات أمثالك، عندما يبكين بحرقه، يتغيّر لون شعورهنّ. بل إن

هناك حالات كثيرة يتبدّل فيها اللون حسب الظروف والمشاعر، وبما أنّكِ

بكيتِ طيلة الليل، وأدركتِ حينها أنّكِ لستِ "ماريانا"، فقد بدأ التغيير. كانت

إحدى أمنيات "ماريان" أن يصبح شعرها أحمر كلون دميتها المفصّلة، تلك التي

حلمت بأن تكون مغنية مشهورة، لكن شعر "ماريانا" كان أسود، تمامًا كلون دميتها.

- هراء! أظنُّ أنني سأصدِّق مثل هذه الخرافات؟

- لم أطلب منك التصديق، ولا أجبرك عليه، لكن هذا ما يحدث هنا، لا أحد لديه الوقت أو الرغبة في صبغ شعرك فجأة، وإذا أردتِ التحقق من الأمر، فابكي بشدة مرة أخرى، ونامي، وعندما تستيقظين، ستجدين لون شعرك قد تغيَّر من تلقاء نفسه.

قاطعت حديثه فجأة، وقلت بحزم:

- أريد أن أكتب!

ضاقت عيناه من خلف القناع، وقد بدا عليه الدهول، وصمت لحظات قبل أن يجيب بدهشة:

- ماذا قلت؟

- أظنُّ أنك سمعتني بوضوح، أنا مستعدة للكتابة.

كنت أعُدُّ نفسي للنجاح في كتابة قصة واحدة على الأقل، فلن أطلب منه ما أريده قبل أن أستحقَّه، أعرف أنه سينقُذ طلبي لاحقًا، لكن لا بدَّ أن أحقق شيئًا أولًا.

- يبدو أنَّك دخلتِ في نوبة اكتئاب جديدة، كالمعتاد. ربما علينا استدعاء الطبيب مجددًا. لكن لا بأس، ما دمتِ مصرَّة على الكتابة، فلنكتب إدًّا.

جلسْتُ أمام آلة الكتابة، أخذت نَفْسًا عميقًا، وبدأت في الكتابة...

انتهى...

قال "ويليام" وهو يطوي أوراق القصة ويضعها جانبًا:

- قصة مميزة... الجميل فيها أنها توحى بأنك بدأتِ تستعيدين ذاكرتك، وتذكرين مَنْ كنتِ حقًا. حلمكِ القديم كـ"ماريان". أهلاً بعودتكِ، "ماريان".

حيث كتبت قصة رعب عن مغنية تواجه مشاكل في الفشل وعدم قدرتها على الغناء؛ لذلك تستعين بأمور أخرى مرعبة ومظلمة.

لم أعُد أمتلك تلك المشاعر التي كانت تملأني سابقًا... الخوف، القلق، ترقب النتيجة، كُلُّها تبددت، أصبحت جامدة، بلا انفعالات. ما أريده الآن، وببساطة، هو أن تعجبه القصة؛ لأن خلف هذه القصة طلبًا، طلبًا مهمًا لا بد أن يُنفَّذ.

قال بنبرة هادئة:

- إنها جيدة إلى حدٍّ ما، وبما أنها أعادتكِ إلى حقيقتكِ، سأقبل بها.

زفرْتُ بارتياح، وكأن ثقلًا انزاح عن صدري. ثم وضع الأوراق جانبًا، وسألني مباشرة:

- ما هو طلبك الآن؟

أجبتُه دون تردد:

- أريدك أن تعيد جثَّة "إيثان" إلى المكان الذي أخذتها منه.

تغيَّر وجهه خلف القناع. ضاقت عيناه، وبدت عليه علامات الامتعاض، كأنما لم يتوقَّع هذا الطلب. لكنه لم ينفجر غضبًا، بل كبح انفعاله بصمت.

تابعتُ الحديث بصوت خافت متوسِّل:

- أرجوك افعل ذلك، أرجوك يا "ديموس"، أعد جثته إلى عائلته. لقد قتلته، وهذا وحده يكفي.

- "ديموس"؟!

ردد الكلمة بدهشة، متوقفاً عندها، كما لو أنني ناديته باسمٍ غريب عليه. تأملني ببرود، ثم راح يُقلب بعض الأوراق بصمت، قبل أن يقول:

- لم يعجبني ذلك.

سألته باستغراب:

- لم يعجبك ماذا؟

- لم يعجبني أنك ناديتني "ديموس".

- أليس هذا اسمك الحقيقي؟

- بلى، هو اسمي، لكنني أفضل أن تناديني بـ "ويليام". أنت وحدك يجب أن تناديني هكذا.

تنهدت بعمق، محاولةً مجاراته ومسايرته على أمل أن يحقق طلبي:

- حسناً، "ويليام"... كما تريد.

اقترب مني بخطوات بطيئة، رفع يده ومَرَّرَ أصابعه بين خصلات شعري. كنتُ أتهدأ لأن يسحبني منها بعنف، كما اعتاد أن يفعل سابقاً. كنت مستعدة للألم، توقعته، لكنّه لم يفعل.

قال وهو ينظر إليّ:

- بما أن لون شعرك الأحمر يروق لي، سأطلب منهم أن يعيدوا جثته إلى المكان الذي أخذه منه. هل أنت مرتاحة الآن؟... وبهذه المناسبة، ابدئي بكتابة القصة الثانية.

اغرورقت عيناى بالدموع، شعرْتُ براحه حزينة، مزيجٍ من الأسى والامتنان.
لا أعلم كيف ستستقبل عائلته الجثة، لكن على الأقل، سيشعرون بشيء من
السلام. حتى وإن كان ميئًا، على الأقل سيعود إليهم.

همسْتُ في داخلي:

- أنا آسفة، آسفة جدًّا.

سقطت دمعة صامته على الآلة الكاتبة أمامي، نظرْتُ إليها وهمسْتُ
لنفسي:

- يجب أن تكون هذه آخر دمعة أذرفها... لن أكون "ماريانا" الضعيفة بعد
الآن، أنا الآن "ماريان".



الفصل الخامس عشر

قلعة الخوف



- ما هي العلكة؟

سأل كعاداته بجهلٍ مطلق، فضحكُ ساخرة بيأس. كيف لي أن أشرح له ما هي العلكة؟ بعد أن كتبت له قصة رعب غريبة عنها.

- حسناً، سأسمح لك بالضحك الآن... لأنك خلال دقائق، ستبدئين بالركض.

- هل ستعاقبني لأنني ضحكت؟ أم لأن القصة لم تعجبك؟

- القصة غريبة وسخيفة، ولهذا لم تعجبني.

- برأيك سخيفة، لكن برأيي لا.

قلت ذلك ببرودٍ، ومن دون مبالاة. تقدم نحوي، وكعاداته تجاهلْتُ النظر إليه، فأمسك بيدي وسحبني نحو باب الغرفة. فتح الباب، وخرجنا معًا إلى الممر الطويل.

- هذا المكان يختلف كثيرًا عن منزلنا السابق، بل يفوقه بمراحل.

- تقصد منزلك، لا منزلي.

قلت بحدّة.

- لا يهم. المهم الآن أن تحاولي النجاة، فهذه القلعة أشبه بمدينة كاملة، تعجُّ بالمفاجآت. والأهم من ذلك، اختبئي جيدًا. أعلم أن فضولك سيقودك إلى التهلكة، أيتها الملكة المتوّجة بالفضول. اركضي الآن... وأتمنى لك مطاردة ممتعة. وخذي هذه.

أمسك بمعصمي وألبسني ساعته الرقمية، ثم قال:

- كالعادة، لديك عشر دقائق فقط للنجاة.

نظرتُ إليه بتحدٍّ كبير، صحيح أن الخوف يعتمل في داخلي، لكنه لم يكن كما في المرة الأولى.

رفع يده، وبدأ بإغلاق أصابعه الخمسة، إصبعًا تلو الآخر، من دون أن ينطق بكلمة. ومع كل إصبع يُغلقها، كنتُ أراجع خطوة إلى الخلف، حتى أغلق آخر إصبع. عندها ابتسمت، وركضت على الفور.

رغبتُ في استفزازه، أردتُ أن أشعره بأنه لم يَعد مخيفًا كما كان، وأنَّ خوفي منه قد تلاشى. غير أن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، أن هذا المكان بذاته يبعث على الخوف، ولم يَعد هو وحده مصدر الرعب.

سرتُ عبر الممرِّ المظلم، وكان الضوء المنبعث من عصيّ النيران المثبتة على الجدران الحجرية يلقي بظلال مرتجفة تُضفي رهبةً على المكان. اللوحات المعلقة بدت غريبة ومقلقة، وبعض المجسمات المنتصبة على الجوانب كانت مرعبة كأنها تراقبني. من كل زاوية كانت تنبعث روائح شتى، ليست كريهة تمامًا، لكنها غريبة على نحو لا يُطمئن.

تابعتُ السير بعشوائية، لا أعلم إلى أين، لكنني كنت أعلم أنني لا أريد أن أبدو ضعيفة، حتى لو كنت أضيع وسط هذا الرعب المتربص في كل ركن.

لمحت سلّمًا حلزونيًّا عملاقًا يتلوّى عند نهاية زاوية الممر، فاتجهت نحوه ببطء. ألقيت نظرة إلى الأسفل، أتساءل في نفسي إلى أين قد يقودني هذا السلّم؟ بدأت أخطو عليه بحذر، درجةً تلو الأخرى، محاولةً كتم أنفاسي، هل ما زال ذلك الشيطان يتبعني؟ لا أعلم، ولكن من المؤكد أنه يعرف هذا المكان جيدًا، بل يعرف كل زاوية وكل شبر منه.

واصلت النزول، لكنّ السلالم بدت كأنها لا تنتهي، تزداد ظلمة ورهبة مع كل خطوة. وأخيرًا وصلت إلى باحة داخلية غريبة، توهي بكل ما هو غير مألوف ومقلق. في وسط الباحة انتصبت نافورة هائلة، يتصاعد منها دخان كثيف يختلط بسائل أحمر داكن، لم أكن أعلم إن كان دمًا أم شيئًا آخر. أحاط بالمكان نباتات غريبة لا تشبه شيئًا رأيته من قبل، بعضها يحمل أزهارًا، وبعضها يثمر ثمارًا لا أدري أهى فواكه أم كائنات متخفية.

تقدّمت بخطى حذرة، حريصة ألا أدوس على شيء قد يُصدر صوتًا يفضحني. لفت انتباهي باب حديدي أسود، كان مغلقًا، تغطيه زهور سوداء بكثافة مريبة... زهور متشابكة بأغصانها الداكنة المليئة بالأشواك، حتى الأغصان كانت سوداء، والأشواك كذلك.

اقتربت أكثر، حدّقت في تلك الزهور... شعرت بشيء يجتاحني: هذه الزهور ليست غريبة عني! إنها ذاتها التي كانت تُرسل إليّ في غرفتي طوال حياتي. الزهور السوداء إذًا هي من هنا! لا شك أن "ويليام" هو من كان يرسلها لي.

مددت يدي نحوها، أغصانها ملتفة خلف الباب، وفضولي ينهشني لأعرف ما يكمن خلفه. لكن وقبل أن ألمسها، دوى صوت مرّوع في المكان:

- ممنوع لمس الزهور!

سحبت يدي فورًا، والتفتُ خلفي... لم يكن هناك أحد! فجأة، شعرت بشيء يسير فوق قدمي. نظرت إلى الأسفل، وسقط قلبي من مكانه... كانت عناكب سوداء ذات مظهر مربع تزحف فوق جسدي! لم تكن عناكب عادية، كان مظهرها مخيفًا ومقزّرًا، وكأنها خرجت من كابوس!

صرخت بكل ما أوتيّ من قوة، أقفز وأهزّ جسدي بعنف، أحاول التخلّص منها، حتى سمعت صوت "ويليام" يضحك ببرود قائلاً:

- وجدّك.

ركضت هاربة دون أن ألتفت، وإذا بي أفاجأ بأنني في متاهة! المكان لم يكن مجرد حديقة، بل حديقة مشكّلة على هيئة متاهات... حدائق مربعة، مقسّمة بطريقة عبثية تُربك كل من يحاول الهرب.

كانت الأشكال متشابهة، غير أن ما بداخلها يختلف اختلافاً غريباً. تناثرت نباتات غريبة على الجدران التي لم تكن سوى مزيج من الأغصان المتشابكة، والأشواك الحادة، والزهور السوداء، وبعض الجماجم الصغيرة المتناثرة هنا وهناك. كنت أسير متفوقة على نفسي، أحتضن ذراعيّ بذعري الطفولي؛ فأنا أكره الحشرات، وأخافها حدّ الارتعاش.

تابعت السير وسط هذا الجنون، حتى بلغني صوت غريب، آتٍ من منعطف مظلم لا يبدو مألوفاً. ارتجف قلبي، وتراجعت خطوة إلى الوراء، لكن الخوف تضاعف حين رأيت ظلاً لم يكن لـ"ويليام" على الإطلاق... لا، لم يكن هو... كان شيئاً آخر، شيئاً لا اسم له!

التصقت بأحد الجدران الحية في تلك الحديقة الملعونة، أختبئ بين الأشواك والنباتات المتسلقة، أتنفس بصعوبة، أغمض عينيّ، وأضع كفيّ المرتجفتين على فمي، خشية أن يندفع صراخي لو داست العناكب جسدي مجدداً.

وفجأة، اجتاحت أنفي رائحة غريبة، كانت قوية، نافذة، مألوفة على نحو مربب. ليست كريهة، بل إنها... نعم! إنها رائحة "علكة" بنكهة الفراولة والنعناع!

فتحت عينيّ، وليتني لم أفعل! شهقت شهقة حادة، واتسعت حدقتا عينيّ؛ إذ اجتاح الخوف كياني بالكامل لما رأيته، غير مصدّقة! انطلقت صرخة مرعوبة من صدري بينما قفزت إلى الخلف، فتعلّق شعري بالأشواك اللعينة، حاولت تحريره، لكنني لم أشعر بالألم؛ إذ كان الذعر يسيطر عليّ بالكامل. كان يقف أمامي... "سيدّ علكة"! ذاك الكائن البغيض الذي نسجه خيالي قبل دقائق في قصّتي! مخلوق مقزز، لزج، كأنه قطعة من اللحم الأحمر... لكنه في الحقيقة مجرد علكة حية!

اقترب مني وهو يتسّم، واللعب يسيل من فمه، فيما كنتُ أصرخ دون وعي. سحبْتُ جسدي بقوة، وشعرتُ بخصلات شعري تُنتزع من فروة رأسي وتسقط على الأرض، بينما ذلك الكائن الثقيل يتقدّم نحوي بخطواته البطيئة. لم أعُد قادرة على الوقوف، فبدأتُ أزحف بجسدي المرتجف، لكن دون جدوى. أمسك بي ذلك الكائن المقزز وأنا أصرخ، وملمس جسده... كان

كالعلكة فعلاً، يلتصق بجسدي وبشعري، وكأنه يريد ابتلاعي، أو ربما تحيطلي
داخل جسده المطاطي!

وبينما كنتُ أصارع ذلك الكائن الغريب، الذي كان من وحي قلبي وخيالي،
فجأة تجمّد، وتوقّف عن الحركة تمامًا، ثم أسقطني أرضًا. التفكّ خلفي، لأراه
يتلاشى تدريجيًا، بملامح حزينة غامضة، ومن خلفه ظهر "ويليام"، يرتدي قناعًا
جديدًا أكثر رعبًا، وقد غرس خنجرًا مرصّعًا بالجماجم الذهبية في جسد "سيد
علكة".

وما إن انصهر ذلك الكائن وتلاشى أمامي، أدركتُ أن الدقائق العشر لم تنتهِ
بعد! وهذا يعني أن "ويليام" تمكّن من اللحاق بي، وهذه هي المرّة الأولى التي
ينجح فيها في الوصول إليّ قبل انقضاء الوقت.

رفع الخنجر أمام وجهي من خلف القناع، وقال بصوت خافت بارد:
- هل رأيت كم أنّ هذه الشخصية سخيفة؟ لا تستحق أن تكون جزءًا من
عالم الرعب.

فصرختُ، وأنا ما زلتُ جالسة على الأرض، أزحف ببطء إلى الخلف:
- سخيفة؟! أنت تغشّ في اللعبة دائمًا!
كان يقترب مني بخطى واثقة ببطء، بينما الرعب يتكاثر في صدري كغيمة
سوداء على وشك الانفجار.

- من الممتع أن نغش، أليس كذلك؟ لكنني لم أكن أنوي الغش، أردت فقط
أن أوضح لك مدى تفاهة هذه الشخصية؛ فهي ليست مخيفة كما تبدو، بل تثير
الضحك.

- بالطبع، هذا لأنك لا تخاف من شيء يا سيد الرعب؛ فأنت شخص غير
طبيعي. أما أنا، كبقية الأشخاص الطبيعيين، فإن هذا الأمر مخيف بالفعل.

- طبيعية، أنتِ؟

قالها ساخرًا وهو يقترب مِنِّي بخطى بطيئة، فيما بدأتُ أراجع زاحفة إلى الخلف. كنت أعلم أن "ويليام" يتعمّد هذا، فهو لا يريد الإمساك بي قبل انتهاء الوقت. فبحسب القانون الحقيقي، إذا أمسك بي قبل نهاية المهلة، سيكون عليه أن يقتلني، وهو لا يرغب بذلك.

- هل كنتِ أنتِ مَنْ كان يرسل إليَّ الزهور السوداء؟

- صباح الخير، يا ملكة الفضول، هل اكتشفتِ ذلك للتو؟

قالها بضحكة مأكرة وهو يواصل تقدمه.

ثم دَوَّى صوت الرنين من الساعة، معلّنًا نهاية الدقائق العشر. تنهد "ويليام" بصوت مصطنع، وقال بنبرة ساخرة:

- يا للأسف، لقد انتهى الوقت قبل أن أمسك بك... خسارة مؤلمة.

- أنتِ تكذب... لا تريد أن تمسكني، أليس كذلك؟

قلت ذلك بينما كنت أعتدل واقفة، وأتفقد شعري وجسدي.

اقترب مِنِّي بينما واصلت التراجع.

- ينبغي أن تشكريني، أليس كذلك؟ ثم إنك قلتِ إنك لن تخافي مني، فلماذا تتراجعين الآن؟

- انظر إلى ما فعلته! هذه الحديقة دمّرت شعري.

- شعركِ لا أهمية له يا آنسة... هل ترغبين بجولة في المكان؟

قالها ثم استدار على عَجَل، واتجه نحو اليسار دون أن يمنحني أدنى فرصة للرد، وكأنه يعلم مسبقًا أنني لن أملك خيارًا سوى اللحاق به، أو أن فضولي المعتاد سيتولى زمام الأمور. ركضت خلفه بسرعة، وصِحت:

- حسناً، على الأقل تمهّل!

لحقت به حتى صرت بجواره، نمشي سوياً باتجاه تلك النافورة الرخامية السوداء. ركزت نظري فيها هذه المرّة؛ كان سائلٌ أحمر يندفع من فم مخلوق حجري مربع. تأملتُها بدقّة، وكان يحيط بها زهور حمراء، لا سوداء كما ظننت. توقف فجأة عن السير، وأدار وجهه إليّ قائلاً:

- أترغبين في الشرب؟

أجبتُه بدهشة:

- بالطبع لا! لستُ مصّاصة دماء!

ضحك ضحكة عالية مجلّلة، ثم قال:

- ما زلتِ مصرّة على أننا مصاصو دماء؟ إنه مجرد عصير، لا يشرب منه سوى ثلاثة فقط.

سألته باهتمام متزايد:

- ومَن هم هؤلاء الثلاثة؟

أجاب بثقة:

- أنا، وحارس البوابات، والتنين ذو الرؤوس الثلاثة.

رفعت حاجبيّ في حيرة، فما زلت عاجزة عن إدراك ما يجري من حولي، ثم تابعت بسؤال آخر:

- وما تأثير هذا المشروب تحديداً؟

ردّ ببرودٍ مريب:

- هو الوحيد القادر على قتلنا.

سَرَت قشعريرة في بدني. حدّقت فيه مشدوّهة، كيف له أن يبوح بهذه المعلومة بكل هدوء؟! أيمن أن يُخبر أحدهم غريبًا عن طريقة موته؟ فصرخت دون وعي:

- أنت تكذب! من المستحيل أن تخبرني كيف يمكن قتلك!

- كلا، لا أكذب؛ لأنني واثق تمامًا من أنك لن تفعلها. على سبيل المثال، هل تستطيعين إرغامي على الشرب؟ أو هل تملكين القوة لتثيتي وتقيدي ثم تغمرين رأسي في ذلك المشروب؟ كلا، لن تستطيعي فعل ذلك أبدًا.

- إذًا، أنت تستخفُّ بي؟

تابع سيره غير آبه بكلماتي، حتى بلغ الباب المغطى بالأغصان والزهور السوداء. أخرج خنجره، وشرع يقطع بعض تلك الأغصان حتى أفسح الطريق للباب. فتحه، ثم التفت إليّ وأشار بيده وهو يقول:

- هيا بنا، ذلك المكان الذي كنا نمكث فيه هو مكاني السري، وقد كنت محظوظة بتواجدك فيه، فلا أحد سواي يعلم بوجوده.

- والآن، إلى أين ستأخذني؟

- إلى قصر الملك... قصري؛ لتعرفني إلى عائلتي وحياتي. ألم يكن الفضول ينهشك طوال الوقت لتعرفني من أكون؟

شعرت بأن قلبي يقفز في صدري. لم أدري إن كان ذلك خوفًا، أم حماسًا، أم مجرّد فضول قاتل. تبعته، ودخلنا سويًا. أغلق الباب الحديدي خلفنا، ثم أمسك بيدي كعادته، وسرنا عبر ممرّ شديد الظلّة، أقرب إلى سردابٍ موجّش. غير أن كل خطوة يخطوها "ويليام" كانت تُشعل نورًا خافتًا في الممر، كأن الظلام ذاته ينحني أمامه.



الفصل السادس عشر

قصر الحُكم



ما زلنا نخطو في ذلك الممر الغارق في العتمة، إلا أن كل خطوة يخطوها "ويليام" كانت تُشعل وهجًا خافتًا حولنا، كما لو أن الظلام ذاته يُفسح له الطريق بإذعان. بدا الممر مألوفًا على نحوٍ مريب، يُذكرني بذلك السرداب الذي ولجته ذات مرّة، حينما تتبعت الطفلة الصغيرة في رحلتها نحو المجهول. غير أنني، وبعد تشطّي ذهني ومحاولاتي الحثيثة لجمع خيوط هذا اللغز، بدأت أوقن أن ذلك القصر الأول الذي اختُطفْتُ إليه، كان ينتمي إلى عالمي... أعني عالم البشر. أما هذا المكان، فهو لا يشبه شيئًا أعرفه، لا يشبه حتى الكوابيس. إنه عالمهم، أولئك الذين لا أدري ما هم، ولا إلى أي جنس ينتمون.

تجرّأت على كسر الصمت، وهمست له بسؤالٍ اندفع من أعماقي كطعنة

مرتجفة:

- لماذا لم تُعِدني إلى هناك؟ أعني القصر الأول... المكان الذي اختطفْتَنِي إليه أول مرّة؟

التفت إليّ فجأة، وككل مرّة يدير وجهه نحوي، يُرعبني قناعه الجامد، كأنني أُحدّق في صخرة تُحتت من الذنب والموت. استدار بالكامل، وبدأ يسير للخلف، يُولي الطريق ظهره، ويمنحني وجهه الصامت، كأنما قرر أن يُراقبني لا أن يدلّني.

سألني بصوته المشوب بالسخرية:

- ولم؟ هل تودّين العودة؟

- لا يهم... أنا مختطفة على أي حال، هنا أو هناك، الأمر سيّان، فقط كنْتُ أَسْتَغْرِب.

ضحك بخفوتٍ غريب، ثم قال:

- لأنك عَليقتِ هنا، يا ملكة الفضول. ولم أَعُد أعرف الطريق لإعادتك. أَرَأيتِ كيف يفتك الفضول بضحاياه؟

صدمتني كلماته، فتقدّمتُ نحوه بخطّى متوترة، وقُلت بعصبية:

- عَليقتُ؟! أَلستِ أنتِ السبب؟ كل ما يحدث لي سببه أنت!

توقّف فجأة، ثم استدار نحو الجدار الأيسر، حيث كانت عنكبوت سوداء ضخمة تزحف بصمت على سطح الحائط الحجري. جفّ الدم في عروقي حين وقعت عيناها عليها، شهقت وتراجعت خطوة إلى الوراء وقد تملّكني الذعر، فيما مدّ هو يده بثباتٍ، وأمسك بالعنكبوت برقة. سمح لها أن تزحف على ذراعها، ثم رفع يده أمام وجهه، يتابعها وهي تنتقل من إصبع إلى أخرى كأنها تؤدي طقسًا خفيًا. وبعد لحظة، همس وكأنه يحدثها لا أنا:

- هل سبق لك أن تذوقتيها؟

ارتجفت كلماته في أذني كصرير بابٍ صدئ.

- مَنْ؟ ماذا تقصد؟!

سألت بقلق وارتباك، أترجّح بين الخوف والذهول.

- العناكب.

أجاب ببرود.

- أنت مجنون.

- أجيبيني فحسب.

قالها بنبرة حادّة وملحّة، كأن كلماته تحمل بين طياتها تهديدًا غير معلّن. ارتبكْتُ، وشعرت بتوترٍ ينهش أعصابي؛ إذ راودني الخوف من أن يُجبرني على فعل ما لا أطيق. وماذا لو أغضبتَه الآن؟ هل سيُرغمني على أكلها؟! تمتمّت بإجابة مرتجفة، وقد اختنق صوتي بين شفّتي:

- لا... لا، أنا لا أتناول مثل هذه الأشياء.

اقترب مني بخطواتٍ مرعبة، بينما أخذتُ أرتدُّ إلى الخلف حتى التصق ظهري بالحائط البارد كأنني قطعةٌ لُصِقت على جدارٍ لا مفرَّ منه. قال بصوتٍ هادئٍ كالسُّم:

- هل تعلمين أن تناول العناكب يطيل عمر الإنسان؟ هذا يعني أنكِ إن التهمتِ واحدة... فلن تموتي سريعًا.

- لا... شكرًا، أنا أرغب بالموت في أسرع وقت.

همست بجزع وأنا أتجنب النظر إلى المخلوق القبيح بين أصابعه، لكن "ويليام"، وكأنه يتعمّد إخافتي، مدَّ يده إلى وجهي وهو لا يزال ممسكًا

بالعنكبوت، كمن يُقدِّم هدية مسمومة. لم أتمالك نفسي، فصرخت وضربت
يده بقوة، فانطلقت العنكبوت في الهواء وسقطت بعيدًا.

- توقف عن هذا الجنون! هل فقدت عقلك؟!

ضحك ضحكة قصيرة، ساخرة، وانصرف عني متابعًا طريقه كأن شيئًا لم
يكن، ثم قال:

- هيا، اتبعيني يا ملكة الدراما!

تمتمت وأنا أضغط على أسناني بغيظ:

- أنا أكرهك... أتمنى أن تموت قريبًا.

ومع ذلك، لحقتُ به ركضًا، رغم رعبي منه؛ فالوحدة في هذه المتاهة الضيقة
كانت أكثر فزعًا من وجهه المقتنع. وما إن بلغنا نهايتها، حتى انفتح أمامي مشهد
لم يكن من هذا العالم، بل كأنه وُلد من رحم الأساطير، أو انفجر من عقل
كاتب مجنون. بدا المكان وكأنه بُعد آخر، عالم لم أتخيله قط، عالم لا يُكتب إلا
في الكتب، ولا يُصدّق إلا في الكوايبس.

توقف "ويليام" أمام بوابة حديدية ضخمة، فتحها ببطء، فصدر منها صوت
صرير كأنما تُفتح أبواب لعنة قديمة. دخلنا معًا، إلى ما بدا في ظاهره حديقة...
لكنّها لم تكن حديقة كما نعرفها، بل ساحة مكشوفة تُشبه مسرحًا هائلًا للرب
الحي.

وفجأة، شعرت بجسدي ينفصل عن إدراكي. قلبي بدأ ينبض بقوة،
وارتجفت؛ وإذ بقشعريرة مباغتة ضربت خلايا دماغي. رفعت بصري إلى
السما، لكن أيّ سماء هذه؟ لم تكن السماء الزرقاء التي نعرفها، بل كانت
ممتلئة بهالة كونية مخيفة. القمر، بل الوحش القمري، كان أرجواني اللون،

ضحماً بشكلٍ يُفوق حدود الطبيعة، حتى حُيِّلَ إليَّ أنني إن مددتُ يدي،
سألمسه!

أما النجوم، فكانت أشبه بجواهر، متألئة بألوان متضاربة بين الجمال
والرعب، تُشعُّ من عمق اللاواقع. لم يكن هناك طير واحد يرفرف، بل
مخلوقات هجينة، تجمع بين هيئة الخفاش والصقر، لكنها أبشع من أي خيال،
تُحلّق في السماء وكأنها تُراقبنا.

رغم أنني لم أر البحر، إلا أن صوت أمواجه كان يتردّد كأنما هو أنين مستتر.
أدركت حينها أن القصر لا بد أن يكون قريباً من الساحل.

كان فمي مفتوحاً على اتساعه، كمن علقَ بين الصدمة والسُّكر البصري،
عاجزة عن التصديق. شعر "ويليام" بذلك، فأمسك بيدي، وسحبني بخفة، ثم
بدأ يشرح لي المكان وكأنه مرشد سياحي في متحفٍ للموتى:

- مرحباً بك... في حديقة "قصر الخوف والرعب".

متاهة الكوابيس الحيّة.

كانت حديقة قصر "الخوف والرعب" بالبناء المَهيب كما لو كانت درعاً حياً
نابضاً، لا تُشبه الحدائق كما نعرفها، فهي ليست مجرد بقعة خضراء، بل متاهة
مروّعة من كائنات نباتية لا تُشبه ما في الطبيعة، حيث تتشابك الحياة والموت
في لوحةٍ كأنما رُسمت بيد ليلٍ مسحور. الهواء هناك كثيف، يُثقل الصدر برائحة
لا يمكن وصفها، مزيج مريب بين عبقٍ مسحور وعفن راقٍ، رائحة توحى بأن
كل شيء في هذه الأرض إما على شفا التحلل، أو الولادة من جديد. ورغم كل
ذلك، صدّقوني، كانت الرائحة جميلة بشكلٍ مُقلِق، منعشة على نحوٍ مريب.

وما إن تتجاوز تلك البوابة حتى تشعر بأنك قد انفصلت عن العالم المألوف.
الأرض تحت الأقدام تخذلك، فهي في موضعٍ لئّنة كالرمال المتحركة، وفي

آخر صلبة كأنها حمم متحجرة، تنشق في بعض المواضع لتخرج منها أبخرة باردة.

وضعت قدمي بتردد على الأرضية، فإذا بها توشك على ابتلاعي! وكأنني أدوس على شيء حي ينتظر خطئي. أشار إليَّ "ويليام" دون أن يلتفت:

- أما زلتِ أسيرة فضولك، يا ملكة الفضول؟ دعيني أروي لك كل شيء، لكن اصمتي وتابعيني.

الأشجار في هذه الحديقة ليست نباتات، بل كائنات صامتة، تتلصص على كل خطوة. جذوعها سوداء، متحجرة، تماثيل لضحايا قدامى. تتدلى منها أغصان ملتوية تُشبه الأذرع، وتتمايل أوراقها القرمزية والبنفسجية بهمسٍ غريب، كأنها تتبادل الأسرار عن الزَّوار الجدد.

بعض تلك الأشجار تحمل ثمارًا تشعُّ ضوءًا خافتًا، جميلة على نحوٍ يخدع العين، لكنها... تنبض. أجل، تنبض كما تنبض القلوب. وكل من تجرَّأ على تذوُّق إحداها، رأى رؤى مشوَّهة عن ماضي هذا القصر، ومستقبله الغامض، وكأن الثمرة كانت مرآةً للجنون.

اقترب مني "ويليام"، وهمس في أذني وهو يقطف ثمرة نابضة من إحدى الأشجار:

- هل أنتِ جائعة؟

هزرت رأسي بسرعة وقد اعتراني الغثيان:

- لا، شكرًا...

ضحك بسخرية وقال:

- حسناً... ستندمين.

ثم مشى خطوات إلى الأمام، ولَوَّح بيده:

- هيا، تعالي... الطريق ما زال طويلاً.

سرتُ نحو الأشجار الغربية التي تملأ حديقة القصر، وقد بدت لي وكأنها غابة داكنة انفلتت من لوحة كابوسية مرسومة بأصابع الليل. لم تكن حديقة بالمعنى المعتاد، بل كانت عالمًا مكتظًا بالكائنات النباتية المتربّصة، أشبه بغابة تُزعت من قلب قصة رعبٍ منسية.

واصل "ويليام" حديثه بحماسة غريبة، كأنه يستمتع بعجزي عن استيعاب ما حولي:

- بعض هذه الأشجار تحمل وجوهًا منحوتة في لحائها، أعينها جوفاء لا حياة فيها، لكنها في بعض الليالي تلمع بغموض، كما لو أنها تراقب الزائرين بصمت ثقيل. وهناك من الأشجار ما يتحرك ببطءٍ لا يكاد يُلاحظ، تغيّر أماكنها عبر الزمن، تعيد تشكيل المتاهة على هواها، بلا سابق إنذار.

- هذا مستحيل... بالتأكيد أنا أحلم!

بدأت أشكُّ فعلاً... راودني ظنٌّ بأنني ربّما تعرضت لحادث سير، وربما جسدي الآن راقدٌ في غيبوبة على سرير أبيض في أحد المستشفيات، وكل هذا نتاج خيالي المريض، فأنا... كاتبة، ولربما مجنونة أيضًا!

"ويليام" بسخرية معتادة:

- أتفق معك في النقطة الأخيرة. نعم، أنتِ كاتبة مجنونة... لكن فيما يخصُّ الواقع، فأنا أكثر واقعية منك يا "ماريان". أنا لست من خيالك، بل حقيقيُّ أكثر مما تظنين.

ثم قادني عبر المسار المظلم حتى بلغنا بُحيرة هائلة، سوداء، راكدة، تحتل قلب الحديقة، تحيط بها الأشجار الصامتة كأنها تحرسها بصبر الموتى.

أشار إليها:

- البحيرة السوداء... "مرآة الأرواح".

سألته بصوتٍ خافتٍ وقد شدّني الاسم:

- ولماذا تُدعى "مرآة الأرواح"؟

لم يُجب مباشرة، بل سحبني من يدي بلطفٍ غريب، واقترب بي إلى حافة المياه، وحين وقفت أمامها... أدركت الجواب.

سطح البحيرة كان أشبه بمرآة معتمة، لكنه لا يعكس الواقع الذي أمامي، بل يعرض صورًا شبحية لوجوه مجهولة، وأحداث لم أعيشها، من عوالم أخرى تتنفس خلف الحجاب!

- انظري جيدًا (همس في أذني) سطحها لا يعكسك كما أنتِ، بل يُظهر ما تخفيه الأعماق. من يُحدّق فيها طويلًا قد يرى انعكاسه وقد تحوّل، أو يرى أعينًا تراقبه من تحت الماء.

كلماته تسللت إلى أعماقي، بينما بقيتُ أُحدّق في البحيرة دون أن أرمش، كأنتي واقعة تحت تنويمٍ مغناطيسيٍّ، مسحورة بالصمت والسواد. وفجأة، بدأ يتشكل وجهٌ في سطح الماء، يشبهني، لكنه أكثر ظلامًا، أكثر وحشية. قَزَعْتُ، ضاق تنفُّسي، همست باسمي في داخلي، وبينما كنت على وشك السقوط في الفراغ، هَزَّنِي "ويليام" بخفة، ودفعني اتجاه البحيرة.

- ماذا تفعل؟! هل تحاول قتلي؟!

صرخت في وجهه، لكنّه ضحك ضحكة قصيرة كعادته، ومضى في طريقه متجاهلاً خوفي، وكأن شيئًا لم يحدث.

نظرت مجددًا إلى البحيرة... كنت واثقة أن الوجه الذي رأيته أعرفه، رغم أنه أَرعبني، لكنَّه لم يكن غريبًا. من أين؟ لا أعلم، لكنَّه كان جزءًا مِنِّي.

ثم صرخ "ويليام" من بعيد، صوته يرنُّ بين الأشجار:

- هيا يا ملكة الفضول! هناك قصرٌ كامل بانتظارك... لا تضيِّعي الوقت.

ركضتُ نحوه، وقلبي لا يزال ينبض بعنف، كأنما طبول حربٍ خفية تُقرع في أعماقي. عيناى تتشبهان بذلك المجهول الذي يمتد أمامنا... فهناك، حيث يلتف الضباب حول الأرض، كانت بداية المتاهة. أدركت أن هذه الحديقة لا نهاية لها.

بلغنا أخيرًا السلالم العريضة السوداء، التي تقود إلى بوابة عظيمة يحيط بها عدد كثيف من الحراس، حتى حُيِّلَ إلَيَّ أنها فم الوحش الذي لا يُفتح إلا لمن كُتِبَ له العبور. لم تكن السلالم عادية، بل كانت طويلة تلتف حول القصر في مسار دائريٍّ كأنها تُطوقه كالأفعى، ويبدو أن هناك بوابات عديدة تتوزع على امتداد الجدران السوداء.

عند مدخل البوابة، وقف تمثالان ضخمان لمخلوقين مشوَّهين، يشبهان الأسود في بنيتهما، لكن ملامحهما مشوَّهة ومُربكة، يُحدِّقان بثبات في كل من يقترب، كما لو كانا حارسَي العبور إلى عالم لا رجعة منه.

أما القصر نفسه، فكان منظرًا يثير القشعريرة. رفعت رأسي أتأملُه، فإذا به يمتد بلا نهاية نحو السماء، كأن قمَّته تبتلع الغيوم. سألني داخلي: "مِن كم طابق يتكون هذا الوحش الحجري؟"، لكن لم يكن هناك جواب؛ إذ إنَّ علَّوَه كان يتحدى العقل.

قصر "الخوف والرعب". يقع في قلب العاصمة الملعونة "أرض الوحوش والملائكة"، حيث لا مَوطئ للضوء، ولا مجال للسَّكينة. هو لقاءٌ بين الظلام والظلام، حيث يتعانق الشرُّ مع أعتى أشكاله.

جدران القصر شُيِّدت من حجر أسود غامض، لا يعكس الضوء، بل يبتلعه، فتبدو وكأنها ظلال تتحرك ببطءٍ مريب. الأبراج العالية تندفع نحو السماء، وتنتهي بأطرافٍ حجرية حادة تشبه المخالب، كما لو أنها تحاول تمزيق الغيوم. أبوابه الهائلة مصنوعة من مزيج غريب من العظام والمعادن، منحوتة برسومٍ ونقوشٍ غامضة تحكي حكايات ملوكٍ طغاة، وأرواحٍ حُبست بين الجدران إلى الأبد. وعلى السلالم أيضًا، حُفرت مشاهد دامية ومآسي لا تُروى.

أما السماء التي تعلو القصر، فهي ملبدةٌ على الدوام بسحب سوداء كثيفة، تخرقها أحيانًا صواعق بنفسجية، كأنها عيون الآلهة ترصد ما يجري أدناه. الأرض المحيطة بالقصر كانت حدائق ميتة، أشجارها متخشبة ومنحنية على شكل أيدي متجمدة.

سار "ويليام" أمامي، وما إن وطئتُ قدمه أولى درجات السلالم، حتى صاح أحد الحراس بصوت جهوري:

- جلالة الملك "ديموس" هنا، افتحوا الأبواب!

فُتحت البوابة ببطء، وكان لصوتها وقعٌ غريب. لم يكن مجرد صرير معدني، بل بدا كأنها صرخات ممتدة، مؤلمة، تنبئُ من أعماق الحديد. انحنى الحراس جميعًا أثناء مرور "ويليام"، وتوقف هو فجأة؛ إذ لاحظ أنني لم أكن خلفه. كنت متسمرة في مكاني، أهدق بعينين دامعتين، أفتح جفني وأغلقهما في محاولة يائسة لأوقظ نفسي من حلمٍ بدا الأكثر غرابة في حياتي. عقلي كان عاجزًا عن استيعاب كل ما يجري دفعةً واحدة.

قال بصوته المتهكم:

- هل أحتاج إلى سحبك من يدك؟ أو من شعرك؟ اختاري.

أفاقني صوته من شرودي، كنت أظن أنني بدأت أعتاد تقلباته، لكنه مع كل لحظة يزداد غموضًا. كان لغزًا يتغير باستمرار، وكأن بداخله أكثر من روح. أحيانًا أشعر بأنه يريد حمايتي، وأحيانًا وكأنه يتلذذ بإخافتي، ثم فجأة يبدو كمن ينوي قتلي، ثم يتراجع وكأن شيئًا لم يكن. حتى كلماته، نبراته، سلوكه... لا يمكن التنبؤ بها، لم أَعُدْ أعلم مَنْ هو "ويليام"، هل هو مخلوق شيطاني؟ أم ملكٌ تائه في داخله؟ بل ربما عليّ أولًا أن أفهم عالمه هذا، قبل أن أفهمه هو.

نزل نحوي، أمسك بيدي وسحبني معه بينما كنت غارقة في أفكارٍ، وسرنا معًا نصعد تلك الدرجات العملاقة. شعرْتُ لوهلة وكأنني أصعد نحو السماء، فالسلالم ترتفع بشكلٍ لولبي حاد، أشبه بتسلُّق جبل شاهق. وعندما وصلنا أخيرًا إلى البوابة، ظننت أنها مدخل القصر، لكنها لم تكن كذلك. كانت بداية جسر معلق، يمتد في الهواء، في الأعلى، بين الغيوم. لم أكن أعِي كيف انتقلنا من حديقة القصر إلى هذا العلو، لكن المنظر الذي تجلَّى أمامي سلبني أنفاسي.

كأننا نسير في لوحة فنية مرسومة بإتقان مهووس، جسر حجري طويل، معلق في السماء دون أعمدة أو حبال، لا شيء يسنده. أول مرَّة في حياتي أرى جسرًا بهذه الضخامة والثقل، معلقًا في الهواء هكذا، دون تفسير. كان المشهد مأخوذًا من كابوس سحيق، أو من بوابة مملكة كائن جهنمي، وربما من حلمٍ مظلم سُرق من عقل فنان مريض.

يصعب وصف ما رأيت، بل يصعب حتى تصديقه. الجسر كان يمتد وسط سماء سوداء، محمَّلة بالغيوم العاصفة التي تزمجر فوق رؤوسنا. وفي نهاية ذلك الجسر وقف القصر العملاق، شامخًا كنهايةٍ لا مفر منها. لم يكن مجرد مبنى حجري، بل كائن حي، مارد من الظلال، يلوح في الأفق ككابوسٍ مجسَّد. كانت واجهته أشبه بوجه وحش، عيناه المتوهجتان باللون الأزرق، تنظران

مباشرةً إلى الأرواح، لا إلى الأجساد. فمُه المتسيع بدا كهوّة لا قاع لها، كأن مَنْ يقترب منه يتلعه إلى العدم.

أمام القصر، امتدت سلالم شاهقة، تصطفُّ على جانبيها تماثيلٌ شيطانية الملامح، وكأنها تتحرك بصمت في عتمة المساء، لا لتزيّن المكان، بل لتؤدي وظيفة حارس صامت من حجر. وعند قمة الدّرج، ينتصب قوس ضخم يفتح على دهليز ينبعث منه وهج غريب، ضوء لا ينير الطريق، بل يهمس بخطرٍ كامن، كأنما يقول لمن يقترب: "ما ينتظرك في الداخل ليس مما يجدر بالبشر مواجهته".

قال "ويليام" بصوته المألوف، وقد ثبتت عيناى على القصر الذي بدا ككابوسٍ مجسّد:

- هذا هو أعظم القصور في ممالك الخوف والرعب كافة، الأقدم، الأقوى، والأول في هذا العالم. لا يُسمح لأحد بدخوله إلا إن تحققت فيه شروط صارمة. إنه "قصر الحُكم"، مقر الملوك الملعونين، القصر القادر على التنقّل من مكان إلى آخر، قصر "الخوف والرعب" في "أرض الوحوش والملائكة".

كانت كلمات "ويليام" تتردد في ذهني بينما لا تزال أنظاري مشدوّهة بذلك البناء الشاهق. كان مرعبًا، نعم، لكنه يملك جمالًا من نوعٍ آخر، جمالًا ينبع من الهيبة والغموض. هبّت ريح قوية حرّكت شعري، تحمل معها رائحة غريبة، مزيج من السحاب والعواصف ورائحة البحر، ومعها عبق لشيء أقدم، شيء لا اسم له.

كعادته، سبقني "ويليام" في السير. تبعته بخطى مرتعشة، كأن الأرض تحت قدمي لم تكن سوى طبقة من الضباب. مررنا بجانب تلك التماثيل التي راقبتنا بأعينٍ من حجر. عندها، التفت إليّ وصحّح ما اعتقدته:

- هذه ليست تماثيل حجرية، بل هم حُرَّاس، لا أحد يتجاوزهم دون إذني.

سألته، مدفوعة بفضول حاد:

- لكن لماذا يبدون كتماثيل؟

أجاب بهدوء وكأنه يشرح أمرًا بديهياً:

- لأن الحراس من لحم ودم يُرهقهم الزمن، ويصيبهم الوهن، وأنا لا أرغب في حارسٍ يتعب أو يُغمض عينيه للحظة. هؤلاء لا ينامون، لا يملُّون، ولا يخطئون.

- ومتى يتحركون؟

سألت بنبرة مرتابة.

- حين يرون مَنْ لا يجب أن يُرى. يستطيعون قراءة الأفكار، ومشاهدة حياة كل مَنْ يمر أمامهم من لحظة ولادته حتى وقوفه على هذا الجسر. إن أتيت مثلاً مدّعية رغبةً في مقابلة الملك، فإن نواياك ستُفصَح أمامهم، وإن كانت نيتك اغتياله أو حتى التفكير بأذيته، فلن يترددوا. سيقطعون رأسك دون رحمة، أو يلتهمونك، أو يحرقونك حيّة، كلُّ حسب ما يستحق.

- ومن ذا الذي يستطيع قتلك، يا سيّد الرعب؟

سألته بيأس، لكنه تجاهلني واستمر في السير حتى بلغنا البوابة. كانت البوابة على هيئة فم وحش، أو كائن لا يمكن تسميته، ومن داخل القصر هبَّت رياح باردة غريبة.

كان الهواء مثقلاً برائحة العفن العتيق، والهمسات تتردد في الفراغ دون مصدر ظاهر والآن، البوابة مفتوحة.

دخلنا معًا. كان هناك حُرَّاس يرتدون ملابس غريبة، أطول منا بكثير، أطول مني ومن "ويليام"، حتى بدّوا كأنهم عمالقة مصغّرون. وجوههم لم تكن واضحة، كأن الضباب يحجب ملامحهم.

بمجرد دخولنا القصر، لفحنا هواءً بارد محمّل بأصوات همسات مخيفة. الجدران كانت مظلمة، تتراقص عليها أضواء شعلات زرقاء باهتة. السقف مرتفع بشكلٍ غير طبيعي، مزخرف برموز قديمة ووجوه ملتوية تصرخ بصمت. أما الأرض، فكانت من رخام أسود، مخلوط بعروق حمراء، مثل شرايين نابضة بالحياة.

كان هناك عدد لا يُحصى من الأبواب، وقاعات معيشة ضخمة، لم أستطع عدّها كلها. بدا القصر مأهولًا بخدم غرباء... أو ربما كنت أنا الغريبة بينهم! كانوا ينظرون إليّ بنظرات مريبة، وما إن اقترب منهم "ويليام" حتى انحنوا جميعًا في حركة واحدة متناسقة. وقف "ويليام" أمامهم، وقال:

- لدينا ضيفة، فحاولوا قدر الإمكان ألا تُظهروا أشكالكم الحقيقية، أخشى أن يتوقف قلبها الرقيق.

أجابوه جميعًا بابتسامة واحدة، مريبة ومخيفة:

- أمرك، جلالة الملك.

خفق قلبي بشدة، هذا يعني أن تلك ليست هيتهم الحقيقية. لكن، ماذا عن "ويليام"؟ هل هذه صورته الحقيقية؟

قال لي ضاحكًا وهو يسير:

- لا تخافي، يا ملكة الفضول. لست قبيحًا إلى تلك الدرجة.

زفرت بتذمّر.

- متى ستتوقف عن قراءة أفكاري؟

صعدنا عبر سلالم عملاقة ملتوية، كانت منقسمة إلى جهتين، فاتجهنا نحو الجهة اليمنى. ألوان القصر بأكمله كانت محصورة بين الأسود والأحمر، مع بعض الظلال المتداخلة من الأرجواني الغامق. واصلنا الصعود، متجاوزين الطابق الثاني، الذي رُمِّقَ بنظرة سريعة؛ كان عبارة عن ممرات طويلة وفسحة، تزين جدرانها لوحات قاتمة، وتنتشر فيه أبواب عديدة، لكن لم يتسنَّ لي التوقف أو استيعاب ما حولي. بدا لي أن استكشاف هذا القصر لا يكفيه يومٌ ولا حتى أسبوع... ربما شهر أو أكثر.

قال "ويليام"، دون أن يلتفت، وقد سمع ما فكرت فيه:

- لديك كل الوقت.

تنهدت باستسلام، "ويليام" لا يتوقف أبدًا عن قراءة أفكاري.

وصلنا إلى الطابق الثالث، وكان تحفةً معمارية مرعبة بجمالها. امتدت فيه ممرات طويلة، تفصل بينها فجوات دائرية ضخمة من الزجاج، تشبه البلورات، تكشف عن مشاهد مخيفة للسُّحب الرعدية من الأسفل.

تقدَّم "ويليام" ودخل إحدى تلك البلورات، حيث وُضع أثاث فخم ومريح. تبعته بحذر، وما إن وطئت قدمي الأرضية الزجاجية، حتى شعرت بأن قلبي على وشك السقوط؛ إذ كنت أرى أسفل قدميَّ فراغًا وسُحبًا متلاطمة.

وقفتُ بجانبه، بينما هو يقف عند الحافة المواجهة للبلورة، يُحدِّق في الأفق.

قال بصوت هادئ:

- هذا مكاني المفضل... هذه الدائرة تُدعى "عين الخوف". من هنا أستطيع

رؤية المملكة بأكملها.

وما إن أنهى عبارته، حتى انقشعت السحب السوداء ببطء، كاشفةً عن مشهد مَهيب... كانت "مملكة الخوف والرعب" ماثلة أمامي، هائلة إلى حدٍّ يصعب تصديقه، كأنها تمتد على قارات كاملة. ومع ذلك، كنا نراها كاملة من هذا العلو.

أسفلنا كان هناك بحر يبدو بلونٍ أسود كثيف، وفوق الجبال كانت تحلق مخلوقات غريبة. القمر تغيّر أمام عينيّ: تارةً أحمر، وتارةً دامٍ، وأحيانًا يأخذ لونًا أرجوانيًا كثيبًا.

ومن دون أن أدرك، همستُ بانبهار:

- هذا جميل... جميل جدًّا... هل صنعتم كل هذا من الكتب؟ من عقول المؤلفين؟

صمت لثوانٍ، ثم أجاب بنبرة غامضة:

- ليس كلّهُ... وليس مسموحًا لي أن أبوح بتاريخ مملكتنا وعوالمنا.

- أنتم تعتمدون علينا؟ وبدوننا، لن تكونوا موجودين؟

قلت ذلك محاولةً إغضابه، لكنه ضحك بسخرية غير مبالية.

- لا تكوني مغرورة إلى هذا الحد، يا ملكة الدراما... سنمحوكم من الوجود

قريبًا. هيا، تعالي لأريكِ غرفتك والمكتبة الجديدة.

توقفتُ عند كلماته... ماذا كان يقصد حين قال إنهم سيمحوننا من الوجود

قريبًا؟ تجاهلتُ السؤال، ولا أعلم لماذا شعرتُ بالحماس لرؤية غرفتي

والمكتبة الجديدة. هل وصلتُ إلى هذا الحد من الاستسلام؟ أم أنني بدأت،

بطريقةٍ ما، أرغب في البقاء هنا؟

أنا أؤمن الآن بأن عوالم الكاتب لا تنحصر في خياله، ولا تُكتب على الورق
فحسب، بل تتجسّد في مكانٍ ما على أرض الواقع.

ماريا

الفصل السابع عشر

مكتبة الظلال



إن العوالم التي ينسجها الكُتّاب ليست مجرد كلمات تُسطَّر أو أحرف تُجمع، بل هي أعمق من ذلك بكثير. ومهما كانت طبيعتها أو شكلها، فإنها تمتدُّ إلى ما وراء الظاهر. لو لم تُمت "ماريانا"، شقيقتي التوأم، لكانت حياتي اليوم مختلفة تمامًا. كنت سأحيا مسارًا آخر، فقد أخبرني "ويليام" أنني سأكون مغنية مشهورة، بعيدة كل البعد عن عوالم الكتابة والقراءة.

لكنني الآن، وبعد كل ما حدث، وبعد أن منحني الزمن فرصة للتأمل، أدركت أنني، حتى لو عاد بي الزمان إلى الوراء، لاخترت الكتابة مرة أخرى.

مغنية، ممثلة، طبيبة، مديرة شركة، أو أي مهنة أخرى في هذا العالم... جميعها تحمل تاريخ انتهاء، جميعها تفقد بريقها يومًا ما. سيأتي يوم يرفض فيه

جسدك الرقص والغناء، ويأتي يوم تعجز فيه يداك عن مداواة المرضى، ويأتي يوم تُستبدل فيه في شركتك بشخص أصغر سنًا. أما الكتابة، فهي لا تنتهي أبدًا. يمكنك أن تكتب حتى الرmq الأخير من حياتك.

ومع ذلك، تظل الكتابة من أصعب المهن وأقساها. إنها مهنة تلتهم العقل والروح، وقد تدفعك إلى حافة الجنون. قد تستنزف طاقتك الجسدية والنفسية بلا رحمة. وربما، كما حدث معي، تصبح الكتابة ذنبًا، ويأتي من يعاقبك عليه.

مضت خمسة أشهر أخرى، وأصبح المجموع تسعة أشهر. تسعة أشهر وأنا لا أزال أكتب لأجل الشيطان، تسعة أشهر وأنا أغوص أكثر فأكثر في عوالمهم. مضت الأيام والأسابيع بسرعة على عكس الأشهر الأولى، ربما لأنني كنت خائفة آنذاك، كنت أبكي كل يوم. أما الآن، فقد اعتدت هذه الحياة... حياة الخطف.

اعتدت الكتابة لـ "ويليام"، واعتدت العقوبات، أيًا كانت. حتى هذه اللحظة، لم يحدث أن أخفقت ثلاث مرات متتالية، أو في ثلاث قصص متتابعة خلال هذه الأشهر التسعة. لا أعلم إن كان ذلك من محض الصدفة، أو أن "ويليام" يعتمد الأمر، فيرضى أحيانًا عن ثلاث قصص، وأحيانًا عن اثنتين، وأحيانًا عن واحدة فقط. ما يهم أن تلك اللحظة التي يرفض فيها القصص الثلاث معًا لم تأت بعد.

خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، لم يخرجني "ويليام" من هذه الغرفة في قصره بـ "مملكة الخوف"، إلا عندما يقرر معاقبتي، وعندها تكون لي حدود محددة لا يجوز تجاوزها، ولا أعلم السبب! حاولت تجاوز هذه الحدود بدافع الفضول، محاولةً الاكتشاف، لكنني أفشل في كل مرة. كلما تجاوزت الحد، ظهرت أشياء مرعبة تعيدني إلى مكاني.

وفي الشهرين الرابع والخامس، اتسعت الدائرة قليلًا، فأصبحت قادرة على النزول إلى الطابق الذي يليه. لكن هذا القصر لا أعلم كم عدد طوابقه، هل هو مائة؟ مليون؟ أم أنه لا ينتهي؟ ارتفاعه من الداخل شاهق، لا يمكن رؤيته بوضوح، كأني داخل بئر لا قاع له. أما عن ضخامته وحجمه، فالأبواب فيه لا تُحصى، ولم أرَ منها سوى جزء ضئيل، ربما واحدًا في المائة.

خلال هذه الفترة، لم أتعرف على ما يحيط بـ"ويليام" جيدًا، لكنني اكتشفت أن ذلك الشاب الشاحب الذي التقيته سابقًا في الممر، هو شقيقه. تساءلت إن كان "ويليام" يشبهه، ولا أملك إجابة. فبينتهما الجسدية متشابهة، لكن "ويليام" أطول قامة. علمتُ أن "ويليام" لم يكن يرغب بالحكم، بل وُضع في منصبه لأنه الأقوى، ولأنه الأخبث. علمت أنه يفضل أن يكون قاتلًا متسلسلًا، أو قاطع طريق للمؤلفين، أو حتى صيادًا، على أن يكون ملكًا.

وماذا أيضًا؟ أجل... أحضر لي "ويليام" الكثير من الكتب كي لا أشعر بالملل، وسمح لي بالكتابة، أقصد الكتابة لنفسي، في مذكرة أو دفتر. قررت أن أكتب فيه كل ما يحدث لي. أشعر الآن بأنني أصبحت أفضل، بل بدأت أتصالح مع وضعي شيئًا فشيئًا.

أصبحت أشعر بالمتعة عوضًا عن الخوف. نعم، إن الكتابة لَهي مزيج من العلاج والجنون في آنٍ واحد. راودتني فكرة الانتقام من "ويليام"، لكن كيف؟ كيف يمكنني التخطيط وهو قادر على قراءة أفكاري؟ لذا قررت أن أكتب عن خطط انتقامي، وإن قرأ يومياتي سيكتشفها على كل حال، لا أعلم كيف يمكنني الانتقام. هو لا يموت، ولا أستطيع حتى أن أخدشه، فكيف سأفعلها؟ كيف سأهزم هذا الشيطان؟

خطرت ببالي فكرة سخيفة ومبتدلة: إن لم أستطع أن أجعله يعاني جسديًا، سأجعله يعاني نفسيًا. سألعب بمشاعره كما يفعل هو مع الآخرين، سأجعله يقع

في حبي. لكن... هل لديه قلب أصلاً؟!

يا "ماريان"، يا لغبائك! إنها خطة حمقاء، ولن تنجحي، بل قد تنقلب عليك وتصبح سلاحاً ضدك. لا، لا... ما الذي أقول؟ يجب أن أطرده هذه الأفكار من رأسي، إنني فقط اعتدت على وجود هذا الشيطان؛ لأنه لا يوجد غيره هنا، ومع ذلك، أفضل أن يلتهم وحش من هذا العالم قلبي، على أن أقدم على تلك الخطة.

أحضر لي "ويليام" الكثير من الملابس العادية والطبيعية، فبالطبع لن أرتدي ملابس الموتى. نعم، أنا أطلق عليهم هذا الاسم، "الموتى"، فجميع من هنا ميتون في نظري. لا أدري، هذا ما خطر في بالي في هذا العالم، لا وجود للنهار؛ فالشمس لا تشرق أبداً، فقط قمر عملاق يطلُّ علينا، يتغير لونه حسب الموسم، أراه فقط من شرفتي. أما المكتبة التي أخبرني "ويليام" أنه سيجعلني أكتب فيها، فلم أذهب إليها بعد. هل تشبه مكتبة ذلك القصر الذي كان في عالمنا الطبيعي، ولأكون صادقة، لقد اشتقت إليه.

أكتب الآن هنا، في هذه الغرفة، أو بالأحرى غرفتي الجديدة، التي لا تختلف كثيراً عن تلك التي كنت فيها في القلعة السرية حيث حبسني "ويليام". غرفة قوطية كلاسيكية، وكأنها خرجت من رواية قديمة.

هذه الغرفة أكبر بكثير من تلك التي كنت فيها سابقاً، تحتوي على غرفة ملابس متكاملة، وحمّام مزوّد بحوض استحمام، لكن على عكس الحّمّام في القصر الأول، لا يبدو أنه مسكون... أو ربما لم أعد أميز.

في منتصف الغرفة مرآة كبيرة تعلو تسريحة، وبجانبتها مكتب أكتب عليه، وسرير ضخم في المنتصف تعلوه قبة مجوفة. الشرفة مغلقة، لكن بابها

الزجاجي يسمح لي برؤية جزء من السحب، وخلفها لمحة من هذا العالم الغريب.

في أحد الدفاتر، رسمت وجه أبي، ووجه أخي، ووجه أمي. كنت أخشى أن أنسى ملامحهم. أشعر بخوف شديد، خوف من أن أفقد أبي قبل أن أعود إليه. لقد مرّت تسعة أشهر... فماذا لو امتدت إلى تسعة أعوام؟ لا، لن أسمح بذلك. أفصّل أن أضع حدًا لحياتي وأنهاي هذه القصة، ولكن فقط بعد أن تنعدم كل الحلول، وتزول الخيارات، ويموت الأمل في داخلي.

- في أحلامك فقط... كم مرة عليّ أن أذكرك بأن موتك سيكون على يدي أنا وحدي؟

كان ذلك صوت "ويليام" من خلفي! نهضتُ من على كرسي المكتب وقد تملّكني التوتر، وأسهرت إلى إغلاق الدفتر. يبدو أنه سمعني؛ لأنني كنت أفكر بصوت عالٍ أثناء الكتابة.

في الأيام الماضية، كنت أتدرب على الكتابة دون التفكير بصوت داخلي، دون أن أنطق الكلمات في رأسي قبل أن أدوّنها. كان ذلك صعبًا، ولا يزال كذلك، بل يكاد يكون مستحيلًا. ومع ذلك، حاولت، ونجحت في بعض المرات. شعرت وكأن رأسي على وشك الانفجار من كثرة المحاولات.

- لماذا لا تطرق الباب؟

سألت وأنا أحاول أن أخفي ما يدور في ذهني.

أجاب ببرود:

- ماذا؟ إنه منزلي.

- لكنها غرفتي، ألم تقل أنت بنفسك إنها غرفتي، ويحق لي أن أقرر مَنْ يدخلها ومن لا يدخل؟

أجاب دون تردد:

- إلا أنا، القوانين لا تشملني. دعينا من هذا الآن، اتبعيني... لقد أصبحت مكتبتنا جاهزة.

غادر الغرفة. وضعت دفترتي في الخزانة على عَجَل، لقد وعدني "ويليام" من قبل أنه لن يقرأ أي شيء أكتبه في مذكراتي. لا أصدق، لكنني أحاول أن أفعل. سِرْتُ خلفه. أخبرني "ويليام" أن المكتبة - أو كما يسميها "مكتبته" - أصبحت جاهزة أخيرًا. قال إنها مكانه المفضل، ورغم ذلك لم يسمح لي بالدخول إليها طوال الأشهر الماضية، وظللت أكتب في غرفتي. لا أعلم لماذا لم تكن جاهزة من قبل.

نسيت أن أذكر أن من حسن الحظ أن هذا القصر يحتوي على مصعد، حتى المصعد نفسه غريب، يقع في زاوية القصر، ومصنوع من زجاج شفاف يتيح رؤية الخارج بالكامل، رغم أن الخارج لا يحوي شيئًا سوى الغيوم السوداء والسحب الثقيلة. أحيانًاؤكد لنفسي أنني أعيش داخل رواية غريبة، ومن المستحيل أن يكون كل هذا حقيقيًا. لكن "إيثان" مات هنا، وكثير من المؤلفين لقوا حتفهم أيضًا، وهذا وحده كافٍ لأن يسحب من فمي كل شكٍّ أو إنكار.

صعدنا في المصعد الذي بدا وكأنه كبسولة تنقلنا إلى عالم آخر، أصدر صوتًا خافتًا غريبًا، وارتفع إلى الأعلى بعد اهتزاز خفيف. نظرت من حولي بعينين متسعيتين من الدهشة والانبهار... شعرت وكأنني في مركبة فضائية تخترق الغلاف الجوي. السحب الرمادية تنشق، وتبدو "مملكة الرعب" تلوح في الأفق ثم تتلاشى.

وصلنا أخيرًا. توقف المصعد، وترجلنا منه. كانت هذه المرة الأولى التي أصل فيها إلى هذا الطابق من القصر في الحقيقة، لم أُرر سوى الطابق الذي تقع فيه غرفة نومي.

كان الطابق شبه فارغ من الأبواب، لا توجد غرف واضحة، بل مساحات واسعة أشبه بصالات معيشة مترامية. هناك تُحف عملاقة غريبة، وأثاث تهيمن عليه ألوان الأحمر والأسود، وثريات مَهيبة تتدلى من السقف، تأخذ شكل جماجم وهياكل عظمية وأشياء أخرى لا أجرؤ على وصفها بدقة.

أثناء سيرنا في ممر فسيح، استقبلنا رجلٌ بدين وضخم البنية، أصلع الرأس، يرتدي ملابس أنيقة لا تشبه زيَّ العاملين أو الخدم في هذا المكان. بدا وكأنه أعلى مرتبة منهم، وربما كان كبير الخدم. انحنى بجسده الممتلئ أمام "ويليام" برشاقة مفاجئة، وقال:

- مساء الخير، جلالة الملك. كما أمرت، أصبح كل شيء جاهزًا.

أجابه "ويليام" بنبرة خبيثة وهو يرمقني من خلف قناعه الأحمر:

- رائع... شكرًا لك. من الواجب أن نجعل ضيفتنا تشعر بالراحة، أليس كذلك؟

نظر إليَّ الرجل البدين نظرة سريعة، تخللتها ابتسامة مريبة. لم أفهم مغزى نظراتهما، ووقفت كعادتي كمن لا يدرك شيئًا، لكنني لم أعُد أشعر بالخوف؛ لقد اعتدت كل ما قد يصدر عن هذا الشيطان.

تابع "ويليام" سيره أمامي، وسرت خلفه متجاوزين ذلك الرجل، حتى بلغنا بوابة سوداء مزدوجة، مرصعة بأحجار غريبة مشعة. على الباب الأيسر كان هناك قناع مخيف ملصق، يشبه الأقنعة التي يرتديها "ويليام"، لونه أصفر، وله

قرون سوداء. أما الباب الأيمن، فقد التصق به سيف ضخم مغروس في كتاب حجري.

أمسك "ويليام" بمقبض الباب الضخم، ودفعه بقوة، فانفتح البابان معًا، ليكشفَا عن مكتبة جديدة... كانت أغرب من المكتبة الأولى، وأجمل، بل وأرعب!

خطوت أولى درجات السلم المؤدية إلى الداخل، وقد اتسعت عيناى من شدة الدهشة. بدا واضحًا أن للمكتبة عدة طوابق: طابق أول، وثاني، وثالث. كانت روحي مشبعة بالذهول، أمشي بعينين متسعيتين ووجه مدهوش.

نزلت خلف "ويليام" عبر السلالم السوداء، حتى وصلنا إلى الطابق الأول، الذي كان الأوسع والأضخم، وهناك، في منتصفه تمامًا، يقع حجر الأساس لهذه المكتبة: جمجمة هيكل عظمي ضخمة، تحتل المركز بأكمله وكأنها قطعة ديكور متقنة.

كان لون الجمجمة أسود قاتم، وعينها يشعُّ منهما ضوء خافت ينبعث من الداخل، أما فمها فكان مفتوحًا، وفيه باب أحمر صغير، ومن فتحتي الأنف الواسعتين، تدلَّت مصابيح على شكل عُرايين أسودين، معلقين بسلاسل معدنية.

بدت الجمجمة وكأنها تحوي غرفة داخلية كاملة، لكنها مغلقة، ولا يمكنني رؤية ما بداخلها.

أما باقي المكتبة، فقد وقفت فيها، "مكتبة الظلال الزجاجية" كتحفة قوطية فاتنة، تجسّد الجمال الغريب والرغبة العميقة في أن واحد.

المكتبة محاطة بجدران زجاجية داكنة، تمتد النوافذ العملاقة من الأرض حتى السقف، كاشفةً عن مشهد مرعب لـ "مملكة الخوف"، حيث الأبراج

السوداء ترتفع وسط بحر من السحب القاتمة، وضوء القمر المائل يغمر كل شيء بضوء فضي خافت.

تدلى من السقف العالي ثريات مصنوعة من الحديد الأسود، تتشابك فيها سلاسل مزينة بأحجار كريمة، تُصدر أضواء خافتة، كأنها نجوم محتجزة داخل قفص أبدي. أما الأرضية، فهي من زجاج سميك داكن، وعند الوقوف عليها، يمكن رؤية الفراغ الغامض الممتد تحتها، مثل هاوية لا نهاية لها.

تمتد الأرفف السوداء حتى تصل إلى السقف، وقد نُحتت من عظام وخشب مسموم، ممسوكة بمخالب نحاسية ملتوية. بعض الكتب تتوهج برموز مجهولة، وبعضها الآخر يهمس بلغات غريبة لمن يمر بجانبها، بينما تحمل كتب أخرى آثار دماء باهتة.

أما طاولات الكتابة، فهي منحوتة من حجر الأوبسيديان اللامع، ومقاعدھا مغطاة بجلود مخلوقات لم تُذكر في أي كتاب معروف. الأقلام مصنوعة من ريش كائنات الليل، وحبرها ليس مجرد سائل، بل مادة سوداء تتحرك ببطء.

الصمت في المكتبة ليس عاديًّا؛ بل هو نوع من السكون الثقيل.

- كم تُقيِّمين هذه المكتبة؟

سألني "ويليام" بينما كنت أحاول إقناع نفسي بأن ما أراه حقيقي. كان يتجول أمامي جيئةً وذهابًا، ويداه خلف ظهره، بعدما أطلعني على تفاصيل مكتبته المفضلة.

- هل هذا حقيقي؟

سألته وأنا أتفحص المكان بدهشة لم تفارق وجهي.

أجاب:

- أكثر واقعية منك ومني. أنتِ محظوظة، فأنت أول مؤلفة تدخل مكتبتني الخاصة. حتى عائلتي لم يُسمح لها بالدخول قَط.

- ولماذا أنا؟ هل فقط لأنني هنا؟

- لا. هذه بمثابة مكافأة لكِ؛ لأنك الكاتبة الوحيدة التي صمدت طوال تسعة أشهر. أليس ذلك أمرًا يستحق الاحتفال؟ من اليوم فصاعدًا، ستكونين هنا، هذه هي وظيفتك، ستكتبين في "مكتبة الظلال"، وهنا لا يكون الكاتب وحده أبدًا، فالأفكار تنهمر وكأن المكتبة نفسها تُملي أسرارها عليه.

تقدمتُ خطوات قليلة نحو أحد الرفوف المضيئة، وسألت بحماس، متجاهلةً تحذيره السابق:

- هل يمكنني قراءة أي كتاب من هذه الكتب؟

أجابني بجدية:

- إذا قرأتِ دون إذني، سيكون مصيرك الهلاك، ليس بسببي أنا، بل بسبب الكتاب نفسه هنا، عليكِ أن تنالي موافقتي قبل أن تقرئي حرفًا واحدًا.

- إذًا... هذه ليست "المكتبة المحرّمة"؟

ضحك ساخرًا:

- يبدو أن الحماس قد أخذك بعيدًا... "المكتبة المحرمة" لا يستطيع أحد الوصول إليها، إنها ليست سوى كابوس وجحيم. أما هذه، فهي "مكتبة الظلال"، مكتبتني الخاصة هنا في هذا القصر. والآن، إليك المفاجأة الأهم التي أظن أنها ستعجبك.

قال ذلك وتوجّه إلى باب الجمجمة العملاقة، ثم أشار لي لأقترب. لحقت به ووقفت إلى جواره، شعرت بأن رأس الجمجمة، من شدّة ضخامته، قد يبتلعنا

فعلاً، وقد صُمِّم على هذا النحو: الباب يقع في فم الجمجمة، فإذا ما دخلنا بدا وكأنها التهمتنا.

أمسك "ويليام" بمقبض الباب الذي كان على هيئة عظمة منحوتة، ثم فتحه، فصدر عنه صرير خافٍ، وانفتح ليكشف عن ضوء أبيض ينبعث من الداخل، يرافقه عبير أعرفه جيداً. دخل "ويليام" دون أن يطلب مني أن أتبعه، لكنني سرت خلفه، وهناك رأيت منظرًا ساحرًا:

في داخل الجمجمة كانت هناك غرفة واسعة، أشبه بمنزل مصغّر. في المنتصف فجوة دائرية، تتوسطها أريكة جلدية سوداء طويلة. كانت الإضاءة البيضاء موزّعة على الجدران، على شكل جماجم صغيرة متوهّجة، كما تزيّنت الجدران بعدد كبير من الفراشات الملوّنة المحنّطة، والزهور السوداء التي تسير بانسياب وتلتف بتناسق كما رأيت سابقًا.

في المكان مكتب خشبي أسود كبير، خلفه مقعد أسود، وُضعت عليه ثلاث آلات كاتبة، كل واحدة أغرب من الأخرى. خلف المكتب، سلّم صغير ملتف يصعد إلى طابق ثانٍ مُعلّق في مقدمة رأس الجمجمة.

صعدنا السلالم، وكانت ضيقة للغاية، بالكاد تَسَع جسد "ويليام" الطويل الضخم، ومع ذلك سبقني إلى الأعلى ليتباهى بما صنع. وهناك، فوجئتُ أكثر؛ فقد كان في أعلى الجمجمة مقهى صغير، يضم ثلاث آلات لصنع القهوة بمختلف أنواعها، بالإضافة إلى أدوات تحضير القهوة اليدوية السوداء، والعديد من أكياس البُن المتنوّعة.

في تلك اللحظة، أدركت مصدر الرائحة: هذه الجمجمة الضخمة ما هي إلا مقهى للكتابة، لكنه مُقام في مكان لا يناسب إلا شخصًا مثله.

قال متفاحرًا:

- أراهن أنك لن تشاهدي مقهى للكتابة كهذا في حياتك.
فأجيبته ساخرة:

- بالتأكيد، فليس في عالمنا أي مقهى للكتابة يُجبر الكاتب بعد الانتهاء من عمله على الركض لمواجهة أسوأ المخلوقات والوحوش. لذا، لا... لن أرى مثله أبدًا.

- هل أعجبك؟ لا تحاولي إنكار ذلك.

تجاهلت سؤاله، وتقدّمت نحو رفوف القهوة، التقطت إحداها:

- حتى إنك تعرف أنواع القهوة التي أفصّلها... لا عجب أنني لا أزال أندهش وأتساءل: كيف عرفت؟!

اقترب من إحدى أدوات تحضير القهوة اليدوية، واستمر في عمله بصمت، ثم استرسل:

- كما أنني أصبحت أجيد إعداد القهوة السوداء، حتى إنني جعلت أصدقائي الحمقى يتذوقونها، فشعروا بالاشمئزاز منها، وفصّلوا القهوة بالحليب والسكر بدلًا منها.

- وماذا عنك أنت؟

أجاب بينما بدأ بتحضيرها:

- أما أنا، فقد فصّلت أول فنجان قهوة أعدّته لي، القهوة السوداء... تلك التي تشبه سواد عينيك.

قلت بسخرية:

- تقصد سواد قلبك!

- وكيف عرفت أن قلبي أسود؟

- لعلني عرفت ذلك من أفعالك النبيلة وصفاتك الحسنة!

انتهى من إعداد القهوة لي وله، ثم طلب مني أن أنزل إلى الأسفل. وصلنا، وجلست أمام المكتب. شعرت ببعض التوتر، إنه يستنزف طاقتي في كل مرة أكتب فيها.

تساءلت في داخلي: "هل سيأتي يوم أعجز فيه عن الكتابة؟"، لا أعلم... ربما سيأتي، ولا أعلم متى.

وضع "ويليام" كوب القهوة أمامي، أشار إلى الساعة، ثم جلس مقابلي حاملاً كوبه، ثم فرقع بإصبعيه قائلاً بصوت يحمل نبرة الغموض:

- تذكّري، هذه المكتبة ليست مجرد مكان للقراءة والكتابة، إنها بوابة بين العوالم، وعبورها قد لا تكون له عودة.

الفصل الثامن عشر

أرض المَنفِيِّين



"أرض المَنفِيِّين" رقعة منسية في أطراف "مملكة الخوف والرعب"، لا تشرق عليها شمس الأمل، بل يغمرها ضوء باهت يوحى بالاحتضار. النهار فيها يلفظ أنفاسه الأخيرة مع كل إشراقة جديدة. هناك يُنفى أولئك الذين لا يرون في الموت رحمة، بنظر الملك: المجرمون، الوحوش، مَنْ جرت في عروقهم دماء ملعونة، وأبناء الملك غير الشرعيين الذين يُعدُّون وصمة عار تُلطَّح عرشه.

لا خلاص في هذه الأرض، بل صراعٌ دائم بين البقاء على قيد الحياة، والانهيار في هاوية الجنون.

تتكوّن "أرض المَنفِيِّين" من سهول قاحلة، يغمرها ضباب كثيف يهمس بأصوات معدّبة من عصور قديمة، ومن جبال سوداء شاهقة، كأنها أصابع مخلوقات متحرّرة تحاول الإفلات من لعنةٍ خنقتها منذ الأزل. لا مدن هنا، بل بقايا حضارات اندثرت تحت وطأة الرعب.

وفي قلب هذه الأرض، ينتصب سجن المدينة؛ ليس سجنًا تقليديًا، بل متاهة هائلة تمتد في باطن الأرض وفوقها، تحوي زرناناتٍ وأبراجًا وأسواقًا يعيش فيها السجناء، حيث يتحوّل كل فرد إلى وحشٍ بطريقته الخاصة. بعضهم فقد إنسانيته، والبعض الآخر تشوّه بفعل تجارب لم تكتمل أو لعنات أُلقيت عليهم منذ قرون مضت.

الحراس في تلك الأرض ليسوا من البشر، بل هم كائنات مرعبة. كان بعضهم يومًا ما بشريًا قبل أن يُعاد تشكيلهم بأوامر الملك ليصبحوا أدوات رعب لا تعرف الرحمة. لا توجد أبواب للخروج، ولا بصيص أمل في الفرار. مَنْ تطأ قدمه "أرض المَنفِيِّين" لا يعود أبدًا، بل يذوب في ظلالها الكثيفة؛ ليغدو جزءًا من تاريخها الملعون. لا حدود لهذه الأرض، ولا مداخل معلومة، ولا أحد يعلم كيف يتم الدخول إليها أو الخروج منها، سوى فئة نادرة تُعرف بـ"الأنقياء"؛ أولئك الذين اختيروا منذ تأسيس القارة لهذه المَهمة، لِمَا يمتلكونه من قوة وسحر لا يُقهر.

وفي قلب "أرض المَنفِيِّين"، داخل برج متصدع يعلو فوق سجن المدينة، يجلس أمير منسيّ، أمير لم يُكتب له أن يولد في بهاء القصور، بل في ظلال العار. اسمه "إلياس"، ويُلقب بـ"الظلّ المنفي"، الابن غير الشرعي للملك السابق "آريس بن داميان بن إيريبوس"، والمحروم من اسمه وحقه في العرش. غير أن ما لم يُحرم منه كان الكراهية، التي تنمو داخله كوحش جائع لا يشبع.

لا أحد يعلم حقيقة هذا الأمير، الشقيق الرابع للملك "ديموس"، والأمير "فوبوس"، والأميرة "ليليتو". أو ربما الجميع يعلمون عنه، لكن لا أحد يعرف من أين أتى، ولا مَنْ تكون أمه. تُروى همسات بأن الملك قد قتل والدته وتخلص منه بنفيه، أو ربما تربّى في القصر مع إخوته والخدم، حتى بلغ السادسة من عمره، فتم التخلص منه وكأنه لم يكن شيئًا مذكورًا.

يقول البعض إن هذا الأمير ليس كغيره، بل هو مسخ ميؤوس منه، نذير شؤم. تتناقل الهمسات في أرجاء المملكة بأن مَنْ ينظر إليه بعينه فقط، يموت صريعًا في لحظته! يُقال إن دمه ملوّث بأنساب غريبة، وإن سرًّا غامضًا يحيط به، لا يعرفه سوى الملك السابق، سرُّ يتعلق به كابن غير شرعي، ويُقال إن هذا السرّ هو ما دفع الملك إلى نفيه في تلك الأرض، دون تفسير أو رحمة.

شاب وسيم، ذو شعرٍ ذهبي مائل للاحمرار طويل ينسدل كالسنة لهبٍ ذهبي في قلب الظُّلمة، غير أن ما يشتعل في عينيه ليس نور الجمال، بل نيران الانتقام. يرتدي ثيابًا رثة، إلا أنها لا تزال تحتفظ بآثار فخامةٍ ماضية، ويحيط به هالة من الرهبة والغموض. لا يثق بأحد، سوى بمخلوق غريب يلزمه على الدوام، طائر ذو ريش قاتم وعينين بلون الدم، ليس مجرد طائر، بل كيان يعرف خفايا المملكة، يسمع بالأسرار والخطط، كأنه صدى الأرواح التي أزهقت في قصر والده.

كان "إلياس" يراقب طائره من نافذة قمة البرج، حين هبط عليه، واستقر على كتفه. ورغم حجمه الكبير مقارنةً بغيره من الطيور، إلا أن خفته لم تُشعر الأمير بوجوده. نظر إليه "إلياس" بعينين حادتين، وسأله بصوتٍ قاسٍ:

- أخبرني، لمَ استغرقت شهرًا طويلة في العودة؟ ظننتك قد هلكت!

ردّ الطائر، بصوتٍ لا يبدو طبيعيًّا، بل مزيج بين صوتين؛ أحدهما أجش متقطع، وكأن حباله الصوتية ممزقة، والآخر هامس زاحف، كأنما ينبعث من داخل عقل المستمع:

- أعتذري يا سمو الأمير...

قاطعَه إلياس بانفعال، وقد علا صوته بغضبٍ أربك الطائر:

- هل فقدت صوابك؟ هل نسيت من أكون؟

ارتجف الطائر من الرهبة، ثم قال معتذرًا:

- أعني... يا جلالة الملك المستقبلي.

تنهد إلياس ببطء، ثم ارتسمت على شفثيه ابتسامة جانبية مأكرة، وقال:

- أخبرني إحدًا... ماذا اكتشفت؟ ما الذي يشغل أخي، ذلك الملك المستجّد؟

أراهن أنه لا يصلح لشيء، أو أنه لا يرغب أصلًا في اعتلاء العرش، غير أن الخوف أجبر والدي على تنصيبه.

ردّ الطائر وهو يبتعد محلّقًا عن كتف "إلياس":

- إنه منشغل بإحدى المؤلّفات من البشر، يا جلالة الملك.

ضحك "إلياس" بسخرية، وقال:

- ما الجديد؟ حتى بعد أن أصبح ملكًا، لا يزال يلهث وراء هوايته السخيفة.

هيا، أعطني شيئًا يستحق الانتظار، ما السبب الذي جعلك تغيب كل هذه الأشهر؟

أجاب الطائر بنبرة يعلوها التردد والقلق:

- حسنًا، يا سمو الأمير، أعني، يا جلالة الملك المستقبلي، في الحقيقة لا

أعلم كيف أخبرك، ولكن... هناك شُبّهات كثيرة تحيط بتلك الفتاة، أعني

الكاتبة. لقد باتت حديث المملكة بأسرها، بل إن أبناء الخوف أنفسهم باتوا يعرفون اسمها.

انعطف "إلياس" ببطء وقد انعقد حاجباه بفضول:

- ولماذا؟ ما المميز فيها؟

رد الطائر، وهو يحلّق قليلاً ثم عاد ليحطّ على كتف الأمير الأيسر، قائلاً:

- يُقال إنها استطاعت عبور البوابات الكونية، واجتازت عوالم متعددة من الروايات، وليس هذا فحسب...

توقف لالتقاط أنفاسه، ثم اقترب أكثر وهمس في أذن "إلياس":

- بل قالوا إنها قتلت إحدى الشخصيات من داخل الرواية ذاتها! أليس هذا أمراً مستحيلاً... وغريباً في آنٍ معاً؟

ظلّ "إلياس" صامتاً للحظة، وقد تجمّد نظره في الأفق، ثم زمّ شفّيته بحيرة وهمس:

- ألهذا السبب يحتفظ بها "ديموس"...؟

لم يردّ الطائر، واكتفى بالصمت. حينها نظر إليه "إلياس" بنظرة حادة وقال:

- أخبرني، هناك ما تخفيه عني، أليس كذلك؟ أسمع ضجيج عقلك الثرثار يهمس، فلا تُطل الانتظار. تكلم!

ارتعد الطائر، ثم قال بصوت خافت:

- لست متأكداً، يا جلالة الملك، لكنني سأقول ما استنتجته بعقلي وبخبرتي الروحية.

اقترب أكثر، وراح يهمس في أذن "إلياس" بكلمات غير مسموعة. وما إن أنهى همسه، حتى تبدّلت ملامح الأمير تماماً؛ شحب وجهه، واتسعت حدقتا

عينيه في ذهول، ثم تمت بصوت مبحوح ودموع تترقرق في عينيه:

- مستحيل... أن يكون القدر ضدي إلى هذا الحد... مستحيل!

صرخ "إلياس" بأعلى صوته، وقد علا الغضب ملامحه:

- "جاديس"! أين أنت؟ "جاديس"!

دخل رجل ضخم الجثة بسرعة عبر الباب، كان ذا بشرة رمادية وعينين خضراوين، يرتدي زيَّ الجنود، ويقبض في يده الكبيرة على مطرقة هائلة الحجم، تكاد تضاهي جسده، إلا أنه كان يحملها بخفة مذهلة كأنها لا تزن شيئاً. كان ذلك هو "جاديس"، الحارس الشخصي للأمير المنفي "إلياس"، ورفيقه منذ الطفولة. ورغم نفى الملك لابنه، إلا أنه هو مَنْ عهد إلى "جاديس" بحراسته؛ لما يمتلكه من قوة نادرة، وهيبة جعلت منه أحد أشد الحراس رعباً في المملكة بأسرها.

انحنى "جاديس" بجسده الهائل أمام الأمير المنفي، وهو على يقين لا يتزعزع بأنه الملك القادم، ثم قال بصوته العميق:

- ما الأمر، يا جلالة الملك؟

سأله وهو مشحون بالاستعداد والطاعة، فأجابه "إلياس" بصوت حازم ملتهب بالغضب، يتنفس بقوة محاولاً كبح انفعاله:

- اذهب فوراً، وأبلغ الجميع. لا تترك أحداً. أخبرهم أن ملك "مملكة الخوف والرعب" المستقبلي يأمر بالتحرك. لقد اكتفينا من وضع الخطط، انتهى زمن الانتظار، وحان وقت التنفيذ. الحرب تبدأ الآن.

لم ينطق "جاديس" بكلمة، بل انحنى مرة أخرى بحماس، ثم انطلق لتنفيذ أوامر سيده دون تردد.

بعد مغادرته، دخل رجل مسن، ذو شعر أشهب وظهرٍ أحذب، تتدلى من وجهه لحية ناصعة البياض، وقد نقش عليه الزمنُ أخايد العمر. كان يتكئ على عصا خشبية، تعلوها كرة سوداء منقطة، يخطو خطوات متثاقلة، حتى وقف أمام الأمير الغاضب، وسأله بصوت واهن:

- هل أنت متأكد من قرارك، يا بُني؟

أجاب "إلياس" دون أن يلتفت إليه، بنبرة صارمة:

- لم أكن أكثر يقينًا في حياتي كما أنا الآن، لن أسمح للزمن بأن يعيد دورته من جديد.

سأله العجوز بصوت خافت:

- وماذا عن الأسياد؟ لن يسمحوا لك بالخروج...

ابتسم "إلياس" بسخرية، ثم التفت إليه، وقد اشتعلت عيناه بضوء أرجواني متوهج، وقال بثقة لا تعرف التردد:

- لقد ربيتني طيلة هذه السنوات، لكن للأسف، لم تفهمني حقًا حتى الآن. راقبني فقط، وانظر ماذا سأفعل، بعدها لن يتمكن أحد من إيقافني. سأقتل والدي، وزوجته، وأشقائي التافهين، جميعهم.

عاد الطائر المتحدث من جديد إلى غرفة "إلياس" مقاطعًا حديثه مع العجوز: - آسف لمقاطعتكم، جلالة الملك المستقبلي، الجميع يبائعك ملكًا بدون استثناء، وهم مستعدون.

نظر العجوز إلى "إلياس"، ثم قال بثقة كبيرة متنهدًا:

- حسنًا كما تريد، سنجهز للاجتماع الليلة، وبعدها سنقرر كل شيء.

خرج الطائر والعجوز وتركوا "إلياس" وحده يراقب أطلال الأرض المنفية، الأرض التي عاش بها في قسوة ورعب طوال حياته، لكنه بذكائه وقوته وشجاعته استطاع أن يخطط ويدبر ويجعل كل من هنا يهابه ويطيعه، استطاع أن يلعب بعقول مَن في داخل الأرض وخارجها. كان "إلياس" شابًا ذكيًا جدًّا، وقويًّا جدًّا ولا يرحم مثله مثل أشقائه الثلاثة، الجميع هنا يخشاه ويرتعب منه تمامًا على أنه عاش حياته كالمنبوذ، والجميع يتنمر عليه، كانوا لا زالوا يطلقون عليه الأمير "الهجين"؛ لأن "إلياس" لا يُعتبر منهم جزئيًّا بسبب والدته التي لا يعرفها أحد، ولا يعرفون مَن هي؟ لكن كل ما يعرفونه أنه يمتلك دمًا خارجيًّا غير دم أبناء "مملكة الخوف".

وقف "إلياس" منتظرًا موعد لقائه مع "الأسياء"، وهم جماعة أشبه بالقضاة، يشرفون على إدارة هذه الأرض وذلك السجن. ورغم أن جميع سكان "أرض المنفيين" باتوا يقدّمون ولاءهم للأمير "إلياس"، إلا أن الأسياء ظلّوا على رفضهم؛ إذ إن ولاءهم الوحيد بقي للملك فقط.

وفي "مملكة الخوف"، هناك قانون صارم يُحرّم التعرّض للأسياء أو إيذاءهم، ومن يتجرأ على ذلك يُعاقب بأشدّ أنواع العقاب رعبًا. وقد نشأ الجميع على هذا القانون؛ لأن الأسياء هم الأطول عمرًا بين جميع الكائنات، فقد عاشوا قرويًا، وسجّلوا تواريخ هذا العالم وفتوحاته، وشهدوا أسرارهم وأخفوها عن الجميع.

أبلغه العجوز الذي تولى تربيته بأن الأسياء وافقوا على لقائه. اعتاد "إلياس" أن يجتمع بهم مرتين في كل شهر، ساعيًا لإقناعهم بالانحياز إليه والانحناء أمامه، وطوال سنوات بذل كلّ ما بوسعه لغسل أدمغتهم، ولكنهم ظلّوا على موقفهم، مخلصين للملك، لم يتزعزع ولاؤهم يومًا، ولو بنسبة ضئيلة.

لم يخطر ببالهم أن هذا اليوم سيكون الأخير الذي يجمعهم بالأمير "إلياس"، لم يتصوّرُوا أن ذلك الطفل الذي تربي أمامهم، سيتجرأ يومًا على قتلهم؛ إذ لم

يسبق لأحد أن تجرباً على فعل ذلك، حتى العجوز الذي ربّاه، ورجاله المخلصون له، لم يكونوا على علم بنيتّه الحقيقية. كانوا يظنون أن لديه خطة ذكية لإقناعهم بإطلاق سراحه من "أرض المنفيين"، لا أن تكون خطته الوحيدة هي سفك الدماء.

كان الجميع يُشبّه "إلياس" بشقيقه "ديموس"، من حيث الملامح والتفكير والقوة والدهاء وانعدام المشاعر. لكن الفرق بينهما أن "إلياس" هجين، ما يجعله أضعف من "ديموس" و"فوبوس" و"ليليتو"، إلا أنه يملك ذكاء يفوق مائة رجل، ومكراً لا يُضاهى.

ارتدى "إلياس" ثياباً فاخرة تليق بالأمراء والملوك، وسرّح شعره الذهبي الطويل، ثم شق طريقه عبر دهاليز "قلعة الشوك"، التي سُميت بهذا الاسم؛ لأن تصميمها من الداخل والخارج يقوم على أشواك عملاقة حادة، من يقترب منها يتمزق جسده إلى أشلاء.

ومن يحاول الهروب من تلك القلعة، ينغرس جسده في أشواكها، ويبقى محنطاً فيها لسنوات طويلة دون أن يموت، وكأنه حبيس بين الحياة والموت.

نزل "إلياس" برفقة حارسه "جاديس" إلى الأسفل، حيث تقع القاعة الحجرية الحمراء، القاعة التي يجتمع فيها "الأسياء" ليعلنوا من خلالها سيادتهم على هذا المكان، وسلطتهم المطلقة على تاريخ هذا العالم.

دخل "إلياس" وحده، فيما بقي "جاديس" في الخارج. في الداخل، داخل قصر السادة العظام، ارتفعت على الجدران رايات المملكة القرمزية، وألقت المشاعل المعلقة ظلالاً راقصة على الأرضية الرخامية. وقف "إلياس" وسط القاعة الكبرى، وعيناه المتقدتان شرراً تعكسان النيران المشتعلة في قلبه قبل أن تشتعل في راحتيه. كان الهواء أثقل من المعتاد، مشبعًا برائحة

الكبريت، وتردد صدى صوته الغاضب وهو يصرخ بأسمائهم في أرجاء القصر الملعون.

استقبل الأسياد الأمير "إلياس" بكل وُدِّ واحترام، فرغم أنه منفي ومسجون في هذه الأرض، إلا أنهم منذ طفولته كانوا يعاملونه معاملة حسنة، مليئة بالحب والاحترام. جلس السادة متحلقين حول طاولة من العاج، ووجوههم المتغطسة ما زالت تنضح بالسلطة التي مارسوها عليه طوال حياته. كانوا يظنونهم الابن المطيع، الهادئ، الخانع؛ لكنهم نسوا أنهم ربَّوا وحشًا في الظل.

كانت القاعة محاطة بجدران حجرية، وفي وسطها طاولة حجرية مستديرة، تحيط بها كراسي حجرية كذلك. الأرضية من الحجر، والسقف مكشوف، ما جعل المكان يبدو كحديقة خارجية مفتوحة. لكن السماء فوقهم لم تكن كسائر السماوات، بل كانت سماءً حمراء تتوسطها عين ضخمة تراقب وتتابع كل ما يجري من أحداث داخل اجتماعات الأسياد. تلك العين لم تكن مجرد زينة، بل كانت مفتاح هذا المكان، وسلاح الأرض، وخزانة أسرار الزمن.

دخل "إلياس" في تلك الليلة كالموت البطيء، دون أن يدركوا نواياه المظلمة. لم يكن أحد يعرف وجوه الأسياد الحقيقية؛ فقد كانوا يرتدون عباءات سوداء تغطي أجسادهم بالكامل، مع قلنسوات متصلة بالرداء تغطي الجزء العلوي من وجوههم.

قال أحدهم بصوت مهيب:

- مرحبًا بك، يا سمو الأمير "إلياس". تهانينا، لقد بلغت الخامسة والعشرين من عمرك البشري.

فأجاب "إلياس" بحدة وغرور:

- لكنني لست بشريًا، ولا يعنيني ما أكون. جئتم اليوم لا لأطلب منكم تحريري، بل لأنني بلغت عهدًا جديدًا، وزمنًا آخر.

بدأ الأسياد يهمسون بصوت خافت فيما بينهم، وهم جالسون في أماكنهم، بينما كان "إلياس" واقفًا في مقدمة القاعة. دام التشاور الصامت بينهم لدقيقتين، تبادلوا خلالها نظرات متوترة وهمسات غير مسموعة، حتى نطق قائدهم أخيرًا بصوت أجش:

- يا بُني، إنك تعلم جيدًا أن الأمر ليس بأيدينا. لم يصلنا أي أمر أو قرار بتحريرك، لا من والدك، ولا من شقيقك الملك. عَقِبْ آخر منهم قائلًا:

- لقد أرسلنا بالفعل برقيات بخصوص هذا الأمر، ولكننا لم نتلقَ أي رد، للأسف.

ابتسم "إلياس" بسخرية، وبدأت أنفاسه تثور كمن يغلي غضبًا، ثم تقدّم بخطوات بطيئة نحوهم، وقال بنبرة مشتعلة:

- لا تتظاهروا بالغباء، أنتم تعلمون تمامًا أن قرار تحريري لن يأتي أبدًا، ولن يحين هذا اليوم قط. لذا، أطلب منكم للمرة الأخيرة، أن تمنحوني حريتي بأنفسكم.

قال كلماته بحدة، ونبرة تهديد لم تخفَ على أحد. تبادل الأسياد النظرات مجددًا، وتهامسوا فيما بينهم للمرة المائة، ثم نطق القائد مرة أخرى:

- نعتذر، يا سمو الأمير. نحن لا نستطيع أن نمحك الحرية دون علم والدك أو الملك، وهذا القرار لا يمكن أن يتغير.

- إذًا... الرفض، كالعادة.

نطقها "إلياس" بصوت مختنق، تخالطه نبرة الغضب المكبوت. خَفَضَ رأسه نحو الأرض، وقبض على ساعديه بقوة، حتى صَكَّتْ أسنانه من شدة التوتر. راقبه الأسياد في صمت وهم يجهلون ما يدور في أعماقه.

ثم، وبعد لحظات من السكون المريب، رفع رأسه، وكانت الدموع تملأ عينيه، لكنها لم تسقط. بدلاً من ذلك، ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة، وقال بصوت خفيض:

- حسناً إذًا... شكرًا لكم.

استدار "إلياس" بجسده نحو الباب، وسار بخطى ثابتة نحوه، لكنه ما إن بلغ عتبة حتى توقَّف فجأة، ثم قال بحدة، وقد تحوَّل بياض عينيه إلى احمرار قانٍ كدم طازج، يتطاير من كيانه حقْدُ وكرهية وغضب مكبوت:

- لن أَدْعِمَ تسليون حريتي. لقد سلبتموها بما يكفي، وahan الآن وقت قلب موازين "مملكة الخوف".

رفع "إلياس" يده، فانطلقت من راحتيه السنة لهب كأفعى متعطشة للدماء. انفجرت النيران بقوة، فالتهمت ستائر القاعة أولًا، وكأنها تستأذن قبل أن تبدأ حفلة الذبح الحقيقية.

حاول أحد الأسياد النهوض من مقعده، لكن شرارة نارية انطلقت من كفِّ "إلياس" فأصابته في صدره مباشرة، فأحرقته من الداخل قبل أن ينطق بكلمة. انطفأت عيناه وتحولتا إلى فجوتين سوداويين، وسقط جسده أرضًا كجذع شجرة محترق.

قال "إلياس" بصوت يشبه الزئير:

- حرامٌ قتل الأسياد؟! وأي تحريم هذا لأولئك الذين استحلُّوا دماء الضعفاء؟!

اندفع أحدهم وكان يرتدي عباءة سوداء، وحاول أن يتمم بتعويذة ما، لكن "إلياس" كان أسرع منه. بكفَّ واحدة، أطلق لهبًا من فمه مباشرة نحوه، فانفجرت النيران في جسده، وسقط راکعًا يختنق باللهيب، ثم هوى صريغًا. عمت الفوضى القاعة. بعض الأسياد صرخوا، بعضهم حاول الفرار، وآخرون سحبوا سيوفهم، لكن عبثًا.

لَوَّح "إلياس" بيده، فانطلقت دوامة من اللهب اجتاحت مَنْ تَبَقَّى من الأجساد، فتعالت صرخاتهم، ثم انقطعت فجأة، بعدما ذابوا كالشموع في مهب الجحيم. ارتفع الدخان إلى سقف القاعة، وتحولت تلك القاعة المهيبة إلى محرقة، تلتهم معها أعوامًا من الذل والخنوع.

وقف "إلياس" وسط الجثث المتفحمة، صدره يعلو ويهبط، وعيناه تلمعان ببريق الانتصار. لم يكن ما فعله مجرد تمرد، بل كان إعلانًا عن ميلاد عهد جديد، عهدٍ لا سادة فيه، عهد يحترق فيه كل مَنْ تجرَّأ على استعباد غيره.

خرج "إلياس" من القاعة المشتعلة، ولم يتبقَّ خلفه من قاعة الأسياد سوى الرماد. خرج أخيرًا من تلك القلعة التي قضى فيها معظم سنوات حياته، منبوءًا، وكأنه زائد عن الحاجة، كائن لا قيمة له في هذا العالم القاسي.

أصيب العجوز والآخرون بالذهول، لم يصدق أحد أن "إلياس" تجرَّأ على قتل الأسياد. تعالت الهمسات بين الحاضرين، بعضهم شعر بالخوف والقلق، وبعضهم الآخر تهللت أساريره فرحًا وشرع في الاحتفال، ظنًّا أن زمن الحرية قد حلَّ أخيرًا، بينما بكى آخرون في حسرة وغضب، معتبرين أن قتل الأسياد جريمة محرَّمة، وأن موتهم قد يجلب لعنة أبدية على هذه الأرض.

وقف "إلياس" فوق منصة حجرية وسط "أرض المَنفِيِّين"؛ ليتجمهر حوله جميع سكانها. نظر إليهم في صمت لثوانٍ معدودات، ثم رفع صوته عاليًا، نبراته

تهز السماء الرمادية:

- أيها المنفيُّون، لقد آن أوان التغيير. اليوم، تتبدَّل أقداركم، وتُمحى عيوبكم، وتُغسل خطاياكم، وتُنسى جرائمكم. اليوم، تُطوى صفحات العذاب والاضطهاد، وتُدفن قرون القسوة والمهانة تحت أقدامكم. لن تنحني رؤوسكم بعد الآن، بل سترتفع عزَّة وفخرًا. لقد اختفى الأسياد، ولم يَعُدْ لهم وجود من هذه اللحظة. أنتم الأسياد، أنتم السادة، وكل واحد منكم سيّد على نفسه.

لن تُغشى أعينكم بعد اليوم بسحب الرماد، ولن تُقيّد أعناقكم بالسلاسل. أنتم لم تعودوا منبوذين... بل أنتم الوجود، أنتم الأصل، أنتم النواة. وسنفرض وجودنا رغماً عن إرادة الملك ونظامه الجائر.

أيها المنفيُّون، اليوم نُعلن حريتنا. لقد أعددت جيشًا عظيمًا، يتكوّن من أقوى المخلوقات، من وحوش وسحرة ومقاتلين لا يهابون الموت. من أراد الانضمام إليّ لتحرير مَنْ يشبهوننا، فليتقدّم، ومَنْ رغب بأن أكون ملكًا على "مملكة الخوف والرعب"، فليُحنِ رأسه لي، حتى تنحني له الكرامة والقوة والحياة ذاتها.

باسمي أنا، الأمير المنفي، والملك القادم لـ "مملكة الخوف والرعب"، أُعلن تمردى على نظام الملك، شقيقي المجنون، الطاغية الذي لا يعرف رحمة. سنُجبره على التوسُّل إلينا، هو ووالده وإخوته، وكل فرد من سلالة "آل إيريبوس".

نعم، هم عائلتي... لكنهم هم من تخلَّوا عني.

سكت "إلياس" لحظات وهو يلهث، وقد تبدَّلت ملامحه، وساد الحزن نظرتة، بينما كان الغضب يتأجج في صدره، ثم تابع بنبرة لا تقل حدة:

- أعدكم، وسأقسم على ذلك، بأنني سأنتقم لوالدتي، وسأحوّلهم جميعًا إلى رماد منسي، يتبعثر مع رياح الضباب. أعدكم أن أكون كابوسهم الأبدي، وأن أجلس على ذلك العرش الذي استهانوا بي لأني هجين. أعدكم بأنني سأجعلهم نسيًا منسيًا، كأنهم لم يُخلقوا يومًا.

فعلت الحشود هتافًا هائلًا تأييدًا لأميرهم وملكهم المنتظر، وانحنوا له في مشهد عظيم. ويُروى أن الطيور ذاتها انحنى في ذلك اليوم للأمير "إلياس".
أمر الأمير بتحرير جميع السجناء في "قلعة الشوك"، ليستكمل خطته مع أعوانه وحلفائه من أعداء الملك "ديموس"، للإطاحة به وبنظام حكمه بأكمله.
واستعان "إلياس" بجيوشٍ من صميم الظلام، وبمخلوقات لا اسم لها ولا وصف؛ لبدأ بناء عالم جديد... عالم يُقام على أنقاض عائلته، بعد أن يُفنيهم تمامًا.

الفصل التاسع عشر

قاعة القلب الحجري



أركض بخفة وحذر عبر دهايز قصر الخوف، تلك الدهايز المظلمة، الباردة، الشاحبة، والموحشة. يحيط بي جمال فريد من نوعه؛ ثريات تتدلى كأنها شبح من الماضي، لوحات ضخمة ومرعبة، أثاث غريب، ومجسّمات مخيفة، كلها تفاصيل قوطية تُدهش العين وتربك القلب. أسمع همسات خافتة تتسلل إلى أذنيّ، لكنني أتجاهلها. أواصل الركض بعدما كتبت أول قصة لي في مقهى الكتابة الجديد الذي خصصه "ويليام" لي في مكتبته، "مكتبة الظلال". كان مجهودًا لا يستحق الشكر، فقد لا تُعجبه القصة، وها أنا الآن أركض هاربة منه.

- اركضي، "ماريان"!

أسمع صوته الساخر، وكأنه ينبثق من الجدران المرصعة بالجماجم. أدخل ممرًا غريبًا... هل هو ممر جديد؟ ما زلت في الطابق نفسه الذي تقع فيه المكتبة.

لم أَعُدْ أخشى "ويليام" كما كنت، بل بات خوفي من فضولي يفوق كل شيء. كان ذلك الممر طويلًا على نحوٍ غير طبيعي، وعلى جدرانه تنتشر لوحات سوداوية الطابع. تابعت السير وسط الممر، ولاحظت أن تلك اللوحات تبدو كأنها سلسلة مترابطة، كأنها أجزاء من قصة واحدة، قصة لا تكتمل إلا إذا شاهدت كل جزء فيها. تأملتُها ببطء وتوجُّس؛ كانت أشبه بمشاهد من العذاب المتواصل، رجال ونساء يعانون أقسى صنوف الألم والعذاب، بعض الرسومات كانت مقززة إلى حد أن الرعشة سَرت في أوصالي.

رغم اشمئزازي، لم أستطع صرف بصري عنها، قوة خفية تشدني إلى داخلها. بدأت أسمع أصوات صرخات ونحيب وبكاء تنبعث من اللوحات، فدبَّ الرعب في قلبي، وحاولت أن أتماسك، أن أهرب من هذا الممر الملعون، المزدهم باللوحات التي تتحرك وتتكلم... لكن جسدي كان كأنه يخضع لتنويم مغناطيسي، يتحرك رغماً عن إرادتي.

اقتربتُ من إحدى اللوحات، رغم مقاومتي الداخلية، إلا أن قدمي لم تستجيبا. مددت يدي المرتجفة، أرغب في لمس اللوحة وأرفض في ذات الوقت. لكنها تحرَّكت وحدها، رغماً عني، حتى لامست أطراف أصابعي سطح اللوحة. في اللحظة التي لمستها، شعرت بألمٍ حاد يجتاح عظامي، واختناقٍ يُطبق على صدري، وبدأ جسدي يتشنج كمن أصيب بنوبة صرع. خفق قلبي بعنف، وبدأت رؤى مؤلمة تهاجمني - رؤى تعود إلى الأشخاص المصوَّرين في اللوحة. رأيتهم يُعذَّبون جسديًا ونفسيًا، يصرخون من شدة الألم، لكنني لم أرَ من يُعذَّبهم... أو لعلَّ هناك الكثير من المعذبين الخفيين.

وفجأة، وفي لمحة خاطفة، رأيت امرأة ذات شعرٍ أحمر، تركض حافية القدمين، تنزف جراحًا من قدميها، وفستانها الأسود الطويل ممزّق، يكشف عن مواضع من جسدها الذي بدا عليه أثر العنف والتنكيل. لم أر وجهها، لكن شيئًا في داخلي أخبرني أنني أعرفها. كان لون شعرها مطابقًا تمامًا للون شعري الآن: مزيج من الأحمر والبرتقالي!

استفقت من غيوبتي، وكأنني كنت نائمة وأنا واقفة. سحبت يدي بقوة، ودمعتان تجمعتا في عيني. عاد وعيي شيئًا فشيئًا، حين سمعت صوتًا، صوت امرأة تُغني!

كان الصوت يقترب، يزداد وضوحًا، تساءلت: "هل ما أسمعه حقيقي؟ أم أنها إحدى ألعاب "ويليام" الخبيثة؟".

مددت يدي إلى مقبض بابٍ أسود، فتحته ببطء، فإذا بي أمام مشهد عجيب وغريب...

أخطو بقدميَّ في المكان، وعينا يمتسعتان من الدهشة مما أراه، أظن أنني وصلت إلى أعماق قصر "مملكة الخوف"، حيث تتشابك الظلال مع الحجر البارد. دخلت قاعةً واسعة تتخذ شكلًا دائريًّا، بدت وكأنها القلب النابض ببطء داخل الجسد الملعون للمملكة.

الجدران شاهقة، مصنوعة من حجارة سوداء منحوتة، تتخللها لمسات خزفية رمادية، مما يضفي على المكان طابعًا قديمًا ومخيفًا بلونيه الأسود والرمادي. ترتفع هذه الجدران إلى سقفي يكاد لا يُرى، تمامًا كسائر أرجاء القصر، ومدعّمة بأقواس قوطية ضخمة تتشابك مثل أصابع مخلوقات وحشية قديمة، تُسجت في عمق الظلام.

كان المكان ساكنًا إلى حد أنني كنت أسمع صوت أنفاسي. تقدّمت بخطوات مرتعشة، بينما قلبي يخفق بقوة، وفضولي ينهش أعماق روحي. إنه مكان جديد، غريب وعجيب، لا يقلُّ رعبًا عن سواه، لكنه في الوقت نفسه مدهش وساحر.

وهنا، اتّسعت حدقتا عينيّ، وفغرْتُ فمي بذهول حتى تجمّدت قدماي عن الحركة. ففي وسط القاعة، تنتصب بلورة زجاجية ضخمة، تشعُّ بضوءٍ غامض متبدّل الألوان، كانت أشبه بالكرات الزجاجية التي نستخدمها للزينة، تلك التي تحوي في داخلها عوالم مصعّرة... لكن هذه البلورة كانت مختلفة، هائلة الحجم إلى حد مخيف.

بداخلها، كان هناك نموذج مصعّر ودقيق لـ"مملكة الخوف والرعب"، خريطة حية تتحرك ببطء، وكأن الرياح والعواصف تسكنها. رأيت الجبال تعلو وتشمخ، والأنهار تجري، والمدن تنفّس، كانت البلورة تحوي جوهر المملكة بين جدرانها الزجاجية.

اقتربت منها بخطى مترددة، أحاول أن أستوعب ما أراه. نظرت حول القاعة بعينين تتأرجحان بين الدهشة والرعب. كانت هناك أشياء غريبة منتشرة في الأرجاء: جماجم بشرية وحيوانية موضوعة على قواعد حجرية، وبعضها مشدود بسلاسل. كانت هناك شموع سوداء وقرمزية تشتعل دون لهب، تتراقص نيرانها بصمت دون أن تذوب. طاولات حجرية مصفوفة بعناية، تعلوها كتب قديمة مغطاة بالغبار، صفحاتها ممزقة وملينة برموز غريبة، مثل تعاويذ من زمن آخر.

الهواء هنا ثقيل، مثقل برائحة الشمع المحترق، والبخور الغامض، وشيء آخر... شيء لا يُرى، لكنه يُشعر.

- ماذا تفعلين هنا، يا جميلة؟

جاءني صوت أنثوي، لكنه خشن، من خلفي مباشرة. انتفض جسدي وارتدت أنفاسي، التفتُ بسرعة لأرى امرأة... عجوزًا، أو هكذا ظننت. كانت هيئتها هيئة امرأة طاعنة في السن، غير أن وجهها خالٍ من التجاعيد، ببشرة نضرة تشعُّ نقاءً، وشعرٍ أسود لامع ينبض بالحياة. ملامحها مشعَّة، وعيناها خضراوان داكنتان، تتلألآن كزمرد مطفأ. بدا النمش أسفل عينيها وكأنه زخرفة دقيقة زادت من جمال وجهها الحادِّ، وأضفت عليه مسحة من التفرد.

كان واضحًا أنها امرأة قوية، طويلة القامة، بجسد نحيل، لكنه مشدود كوتر قيثاره مشدود لا يعرف الارتخاء. خطواتها صامتة، تمشي كأنها لا تلامس الأرض، تطفو فوق الحجر البارد كطيف حيٍّ. بشرتها شاحبة، تشبه رخامًا ميتًا تحت ضوء القمر. أما عيناها، فكانتا سوداوين بالكامل، لا بياض فيهما، كهاويتين لا قاع لهما، يغمرهما سكون عميق يخفي وراءه معرفة مخيفة. شفاهها رفيعة، باهتة اللون، نادرًا ما تبسم، لكنها تنطق بملامح امرأة رأت ما لا يُفترض أن يرى، وعرفت ما لا يجب أن يُعرف.

كانت ترتدي فستانًا طويلًا من المخمل الأسود الثقيل، يلتفُّ حول خصرها بنعومة، ثم يتسع تدريجيًا كأنه بحر من الليل يسيل من جسدها. أكمام الفستان طويلة، تنتهي بأطراف مدببة، تغطي أصابعها النحيلة ذات الأظافر الحادة، التي تشبه أنيابًا تنتظر لحظة مناسبة للانقضاض.

وعلى عنقها، تتدلَّى قلادة فضية، تحمل حجرًا أرجوانيًا نابضًا بضوء خافت... شيء فيه غريب، يوحي بالقوة واللعنة في آنٍ واحد. بدا مظهرها كمظهر ساحرة خرجت من أسطورة قديمة، مرعبة وساحرة في آنٍ.

تراجعتُ خطوة إلى الوراء، وقد ارتجف صوتي، وسألتها بتلعثم:

- مَن ... مَن أنتِ؟

ابتسمت ابتسامة هادئة، كاشفة عن أسنان ناصعة كالعاج، وقالت:

- أنا مَن ينبغي لها أن تطرح هذا السؤال، يا جميلة.

ثم سكنت لبرهة، وتقدّمت نحوي بخطى خفيفة، لكن في وقعها ما يشير
الريبة. تراجعت خطوة إلى الخلف، محاولةً الحفاظ على مسافة تفصلني عنها.
تابعت كلامها بنبرة واثقة:

- لا بأس... أعلم مَن أنتِ، "ماريان". أخيرًا التقينا.

لم أصب بالدهشة الكاملة، لكن شيئًا في داخلي ارتجّ، فسألتها باستغراب:

- كيف تعرفين اسمي؟

أجابت بابتسامة خفيفة:

- الجميع هنا يعرفك. لقد أصبحت حديث هذا العالم، الكاتبة البشرية التي
تسلّلت إلى عوالم الروايات، وقتلت شخصيةً من داخل الحكاية ذاتها. أليس
هذا إنجازًا يستحق أن يُروى؟

قلت مترددة:

- هل أنتِ... شخصية خيالية؟

قهقهت ضحكة عالية، حتى كادت تسعل من شدتها:

- لا وجود للخيال هنا، يا "ماريان". كل ما ترينه حقيقي، واقعي، نابض

بوجوده. لكن أخبريني أنتِ... ماذا عنكِ؟

- ماذا تقصدين؟ أنا، أنا الإنسانية الحقيقية الوحيدة هنا.

- إممم... وهل تظنين ذلك حقًا؟

- أعلم أنكم تحاولون أن تجعلوني أبدو مجنونة، لكنكم لن تنجحوا في ذلك.

ضحكت ضحكة قصيرة، ثم تابعت التقدُّم نحوي. تراجعت حتى التصق ظهري بالبلورة الزجاجية العملاقة خلفي، فشعرت ببرودة مفاجئة تسري إلى عظامي، وبوخز كهربائي اخترق خلاياي. رعشة خفيفة سَرت في جمجمتي، وكأن شيئاً يُعيد تشكيل أفكارِي.

ابتعدتُ عنها بسرعة، والتفتُّ، فإذا بها تلاصق وجهي على نحو مفاجئ، نظرتها مرعبة، وقربها خانق. قفزتُ إلى الوراء بتعُثُّ وارتباك.

- ما بكِ؟ اهدئي يا جميلة، لن أؤذيكَ. لكن... قلب المملكة شعر بلمسة غريبة، وهي لا تسمح لأحد أن يقترب منها دون إذن.

تناسيت الألم، وسألتها بفضول يفيض من عينيَّ:

- قلب المملكة؟!

تقدَّمت نحو البلورة الزجاجية، وعلى وجهها ابتسامة فخر غامضة، مزيج من الفرح والعظمة، ثم نظرت إليَّ بعينين تتلألآن، وبدأت تسرد شيئاً من أسرار هذا العالم.

- نعم... أنتِ الآن في قلب المملكة. من هنا، تستطيعين رؤية عوالم "مملكة الخوف والرعب" كلها، بأراضيها الثماني.

- أراضيها الثماني؟!

سألتها دون وعي، وأنا أتقدَّم نحوها، أشاركها التحديق في تلك الكرة الزجاجية العجيبة. أجابت بهدوء:

- نعم، ألم يُخبرك "ويليام" بأسماء ممالكنا؟

- "ويليام"؟ كيف عرفتِ أنني أناديه بهذا الاسم؟

سألتها بدهشة، فقد كان الجميع هنا يستغربون كلما نطقت اسمه بتلك الطريقة... إلهي. أجابت وهي تضحك بخفة:

- هو من أخبرني، قال إنكِ أنتِ من اخترتِ له هذا الاسم.

بدأت تسير حول البلورة الزجاجية، فتبعثها دون تفكير، وسألتها بينما نسير جنبًا إلى جنب، متناسية تمامًا لعبة المطاردة التي كنت أعيشها قبل قليل، وكأنها انتهت دون أن أعلم، أو ربما لم تنتهِ بعد، لكنني لم أَعُد أرى "ويليام".

- هل يخبرك "ويليام" بكل شيء؟ من تكونين أنتِ حقًا؟

توقفتُ عن السير فجأة، واستدارت نحوي، ثم سألتني:

- ألسِ خائفة مني؟

سؤالها جاء مباغتًا. هزرت كتفي بلا اكتراث، وأجبت:

- لا أعلم، ربما اعتدتُ الخوف هنا، في "مملكة الخوف"، حتى بات لا يعني لي شيئًا.

- فتاة ذكية وجريئة، تمامًا مثلها.

سَرَت في داخلي رجفة من الفضول الممزوج بالدهشة، وسألتها بسرعة:

- مثل مَنْ؟ من تقصدين؟

- اسمي "سمارا". أنا ربيبة الملك "ديموس".

جاءت إجابتها وكأنها وُضعت عمدًا للإلهاء؛ لتصرفني عن سُؤالي السابق، ونجحت بذلك، فقد تشوشت أفكارِي، وسألتها مباشرة:

- هذا يعني... أنكِ مَنْ رَبَّيَ "ويليام"؟

- نعم، أنا من رعاها، ورافقه، وكنت له الأم، والصديقة، والمرشدة، أنا كل شيء بالنسبة له.

سكّنتُ لحظة أفكّر، ثم خطوت نحوها حتى وقفت بجانبها، وهمست بسؤال لم أكن أعلم إن كان ينبغي لي أن أطرحه:

- وأين والدته الحقيقية؟

رأيت في عينيها شيئاً يتغيّر. شيءٌ خفي، أشبه بغيمة تمرُّ في سماء صافية. انعكست على ملامحها مسحة ضيق، وحزن عابر، لكنها سرعان ما استجمعت نفسها وابتسمت، وإن كانت ابتسامة مشوبة بالمرارة، وقالت سريعاً:

- لقد ماتت. تعالَى الآن، سأحدّثك عن الممالك، ما رأيك؟

تقدّمت بخطى سريعة، والتفت حول الكرة الزجاجية أتابعها بعينين حائرتين، وفي داخلي سؤال يلحُّ عليّ: لماذا شعرت بالضيق عند ذكر والدتي "ويليام"؟

توقّفنا أمام الكرة، وقد بدا جليّاً أنّ هذا هو موضعها الرئيسي؛ إذ استقرّت فوق قاعدة حجرية طويلة، كأنها أثر معروض في متحف قديم. كان محفوراً على تلك القاعدة:

- "قلب مملكة الخوف".

مدّت "سمارا" يدها لتلامس سطح القاعدة، وفجأة أضاءت البلورة بنورٍ سحري، تفجّر منه شعاع شقّ عتمة القاعدة الحجرية، فغمرها بهالة من الضوء الغامض، كأنها قد خرجت من صفحات خيالٍ عتيق.

انّسعت عيناها انبهاراً، وارتسمت على وجهي ابتسامة مترددة.

يومًا بعد يوم، يزداد شعوري بأنني أعيش داخل رواية رعب خيالية، كل شيء يبدو شديد الغرابة حتى لأعماقي. هل يُعقل أن يكون هذا كله حقيقياً؟

أم أنني غارقة في وهمٍ صنعه عقلي؟

كل يوم يتسلَّل الشكُّ إليَّ أكثر، هل أنا في غيبوبة بعد حادث مأساوي، وهذه المشاهد مجرَّد هلوساتٍ أراها خلال نومي العميق؟

بدأت البلورة تكشف معالم المملكة، تفصّلها أمامي كما لو كانت خريطة نابضة بالحياة: جبال سوداء شاهقة، قلاع عديدة، قصورٌ مرعبة، محيطات وأنهار وسواحل... كل شيء! حتى الكائنات الطائرة الغريبة التي تملأ السماء ظهرت بوضوح، إلى جانب أشياء أخرى لا أجد لها وصفاً.

قالت سمارة وهي تشير بإصبعها إلى أحد المواقع داخل البلورة:

- نحن الآن في قلب العاصمة.

ضيّقت عينيّ، أحدّق بدهشة ممتزجة بالرهبة، ثم سألتها بعينين لا تغادران المكان:

- ما اسمها؟

- إنها العاصمة، وأول مملكة قامت على الاتحاد "الوحوش والملائكة".

سألتها هامساً:

- اسمها جميل... من أطلق عليها هذا الاسم؟

ردت ضاحكة بنبرة مازحة:

- جدُّ "ويليام"، أعني "ديموس".

ثم تابعت حديثها، وكأنها تستعيد ذكرى من زمن غامض:

- بعد ذلك، تأسست الممالك الثماني.

سألته بفضول مشوب بحماسة غريبة، كما لو أنني أصغي إلى أسطورة مربية تُروى على لسان امرأة تعرف أكثر مما تقول:

- وما هي هذه الممالك؟

أجابته وهي تدور ببطء حول البلورة الضخمة:

- حسناً... هذه هي أراضي الخوف والرعب، حيث نشأت الممالك الثماني هذه، بالتحديد "مملكة الكابوس"، يحكمها مَنْ أراه أفضل رجل في هذا العالم، الأمير "فوبوس"، الشقيق الأكبر للملك "ديموس".

لقد رأيت "فوبوس" مرة واحدة، لا أكثر. لكن سؤالاً راودني كهمة عالقة في ذهني: إن كان "فوبوس" هو الأكبر، فلماذا اعتلى "ويليام" العرش؟ ولماذا "ديموس" هو الملك، رغم أنه الأصغر؟

قلت لها وكأنني أطرح سؤالاً في درسٍ من دروس التاريخ:

- ولماذا تُعدين "فوبوس" أفضل شخص في هذا العالم؟

ابتسمت بإعجاب عفوي، وأجابت بنبرة يغمرها اليقين:

- إمام... قلتُ ذلك لأن الجميع هنا، من بشرٍ ومخلوقات، يحبون الأمير "فوبوس" حباً عظيماً. إنه محبوب الجماهير، كما يقال؛ لأنه عادل ومخلص، طيب القلب، قوي، شجاع، وبضحي دوماً من أجل شعبه.

سألته بعدها، وقد تلبّسني الفضول مرة أخرى:

- وماذا عن "ويليام"؟

بدت متفاجئة، لكنها لم تتردد، وأجابت بصراحة ممزوجة بضحكة خفيفة:

- لأكون صادقة... لا أحد يحبه سوى أنا و"فوبوس" فقط. إمامم... لنقل إن والده كان يحبه، لكنه كان يخشاه أكثر مما كان يحبه.

قالتها بصوت خافت، وكأنها تهمس بسِر لا ينبغي أن يُقال.

- ولماذا؟

- ببساطة، لأنه وحش. لقد سُمّيت هذه المملكة العاصمة بـ"أرض الوحش والملاك"؛ لأن "فوبوس" و"ديموس" توأم. غير أن "فوبوس" يكبر "ديموس" بعامٍ واحد.

أطلقت ضحكة عالية دون وعي، مدهوشة من هذا الجنون:

- ماذا تعنين بـ"توأم" وبينهما عام؟!

ابتسمت بهدوء:

- نعم، إنها حالة نادرة لا تتكرر، لم يحدث مثلها في أيِّ من العوالم. حتى في عالمنا، يُولد التوأم في اللحظة نفسها، معًا، دون فارق. إلا "ديموس"... وحده رفض أن يولد مع شقيقه. في تلك الليلة العاصية، كانت الملكة على وشك الموت، فاقترح المتنبيون أن يُترك، أن يُمنح وقتًا آخر، قائلين إنه لم يكن مستعدًّا بعدُ. وهكذا بقيت الملكة حُبلى به تسعة أشهر أخرى... ثم خرج. تقول "الحكايات المبتورة" إنهما لا يشبهان بعضهما لا في الشكل ولا في الطبع ولا حتى في المشاعر، وقد نسبوا ذلك إلى الطريقة التي جاءت بهما أمهما إلى الحياة.

عندما وُلد "فوبوس" أولًا، تحوّلت السماء إلى بياض ناصع، وظهر شعاع أبيض هائل. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يشاهد فيها سكان "مملكة الرعب" مثلَ هذا المشهد. أما حين وُلد "ديموس" بعده بعام، فقد وُلد في قلب معركة، وكان المشهد مغايرًا تمامًا: السماء غطّاها سواد كثيف، والقمر احمرَّ

حتى بدا وكأنه ينزف، والجثث كانت تتساقط في كل اتجاه. في ذلك العام، شهدت المملكة أكبر عدد من الوفيات والخسائر.

يقال إن "ديموس" لا يملك قلبًا، بل إن صدره يخلو من النبض، ولذلك يلقَّب بـ"الملك الذي لا قلب له". أما "فوبوس"، فقد اعتبروه الملاك، بينما غدا "ديموس" الوحش.

تذكَّرت حينها ما قاله لي "ويليام" عن أسطورة التوأم؛ أحدهما طيب، والآخر شرير. لذا، فهو يراني انعكاسًا له، ويرى "ماريانا"، شقيقتي، في صورة "فوبوس"، شقيقه. "ويليام" يريدني أن أصبح مثله... أن أتحوَّل إلى وحش! غرقت في أفكارٍ، وابتعدت عن اللحظة، حتى رفعت تلك المرأة إصبعيها في وجهي لتوقظني من شرودي:

- إلى أين سرحتِ، يا جميلة؟ هيا نكمل... لا مزيد من الأسئلة، مفهوم؟

أوماثُ برأسي علامة الموافقة، فتابعَتْ حديثها بحماس مشتعل:

- المملكة الثالثة تُدعى "مملكة الجنون"، وهي أكثر الممالك اضطرابًا، بل إن طيشها يتضاعف مع حاكمتها.

سألتها:

- ومَن هي حاكمتها؟

- إنها الأميرة الأجل، والأكثر حُبًّا وجنوناً وشرًّا... إنها شقيقة "ديموس" و"فوبوس" الصغرى، الأميرة "لوليتو".

صُدمت، أل هذا الحد اتَّسع نسب "ويليام"؟

- وهل لاسمها معنًى؟ يبدو جميلًا...

أجابتنني:

- يطلق الاسم عادة على الفتيات الغربيات، الجاذبات في آنٍ واحد. عندما حملت الملكة الراحلة بـ"لوليتا"، ولاسمها نطقين، "لوليتو" أو "لوليتا". بدأت الملكة تتصرف تصرفات مقلقة. حتى زوجها، ملك البلاد، بدأ يخشاها. الملكة، التي كانت تُعرف بأنها أطيب امرأة وطئت هذه الأرض، تغيّرت تمامًا. تحوّلت إلى كيان مظلم، لا يشبه ما كانت عليه من قبل. وُلدت "لوليتا" من رحم ذلك التحوّل، تحمل اسمًا بديعًا، ووجهًا فاتنًا، لكن روحها مرعبة إلى حد لا يُوصف.

وحين هممت بطرح سؤال آخر، قاطعتني قبل أن أنبس بحرف. شعرتُ بأنها تُخبرني فقط بما يُسمح بقوله للعامة، وما زالت الأسرار الحقيقية للمملكة محجوبة عني.

- أما المملكة الرابعة، فهي "مملكة الأحياء والأموات"، ويحكمها الأمير "موروس"، وهو عمُّ "ديموس" الأكبر.

المملكة الخامسة تُدعى "مملكة الوحوش"، ويحكمها اللورد "زيبار"، وهو خال "ديموس".

المملكة السادسة تُعرف بـ"مملكة الجنّ والشياطين"، ويحكمها اللورد "شارون".

المملكة السابعة تُدعى "مملكة السحر والسحرة"، وتحكمها الملكة السابقة، زوجة والد "ديموس"، الأميرة "صوفيا".

أما الأرض الأخيرة، فلا تُعدُّ مملكة بعد، لكنها أرض أسطورية خضنا من أجل السيطرة عليها تسع معارك، وتُعرف باسم "أرض الخيال والأساطير المرعبة". لا يوجد لها حاكم حتى الآن، لكن "ديموس" يتولى أمرها مؤقتًا، إلى أن يُعيّن شخص يتمتع بالقوة والشجاعة الكافيتين للسيطرة على المخلوقات هناك. للأسف، لم نجد بعدُ مَنْ يُضاهي "ديموس" في القوة ليستحق هذا المنصب.

المملكة الثامنة والأخيرة تُعرف باسم "مملكة آكلي لحوم البشر".

- ومن يكون حاكمها؟

سألته، لكنها لم تُجب؛ إذ دخل "ويليام" وأفسد عليّ لحظات الفضول الجميلة التي كنت أعيشها. فُتح الباب بعنف، ودخل "ويليام" وهو يبدو كوحش هائج. كنت أعلم أن الوقت قد انتهى منذ زمن، فأنا أرتدي الساعة، لكنه كان غاضبًا بشدة، ولا أعلم السبب؟ اندفع نحوي، فتراجعت بضع خطوات، لكنه كان سريعًا، أمسك بمعصمي بقوة شعرت معها وكأنه سينتزعها. سحبني بعنف بينما كنت أُلقي الأعذار والأسئلة كعادتي، لا أدري لماذا أسأله، فلا مبرر لتصرفاته. الآن فقط أدركت ما كانت تعنيه تلك المرأة حين قالت إنه لا أحد يحبه.

- "ويليام"! ماذا تفعل؟! اتركني! أنت تؤلمني!

عندها قررت تلك المرأة التدخل، وهو ما أثار إعجابي بها، ودفعني إلى الشعور بالارتياح تجاهها أكثر. كانت أول شخص، بل الوحيد، منذ اختطاف "ويليام" لي، أشعر نحوه بالطمأنينة. وقفتُ في طريقنا قائلة:

- "ديموس"، ما حَظبك؟! اترك يد الفتاة.

قال بانفعال حاد:

- ماذا؟! بهذه السرعة أصبحتِ تُشفقين عليها؟!

أجابت مترددة:

- لا... ليس كذلك، لكن...

لم يمهّلها فرصة لإكمال حديثها، فقطعها "ويليام" بنبرة حادة وغضب ظاهر:

- لكن لا تتدخل في شؤوني.

لم يُكتب لهذا الحوار أن يكتمل؛ إذ كان التوتر يتصاعد بينهما كالشرر، يشتعل في نظرات العيون. كان من الواضح أن "ويليام" يكنُّ شيئًا من الاحترام والمودة للمرأة، وربما شيئًا يشبه الحب، لكنه الآن يعاملها بفضاظة غريبة، ومع ذلك، يبدو أنها اعتادت على طباعه الخشنة، بل ربما لم تُعَدُّ تُفاجأ بانفلاته.

فُتح الباب فجأة، فالتفتنا جميعًا نحو القادم. كان شابًا التقيت به مؤخرًا؛ شابًا متزنَ الهيئة، ملامحه حادة، جسده منتصب، ونظرته واثقة. لم تكن رائحة عطره تشبه أحدًا، بل كانت مزيجًا بين القوة والغضب. إنه الأمير "فوبوس"، شقيق "ويليام".

ما إن وقع بصر "ويليام" عليه، حتى تنهد ساخرًا وقال:

- ها قد وصل رئيس الحكماء.

أما المرأة، فقد أشرق وجهها بفرح صادق، وقالت:

- "فوبوس"؟ هذا أنت؟ لم أرك منذ زمن، يا عزيزي.

ابتسم لها برقة، واعتذر قائلاً:

- أعتذر، يا "سمارا"، كنت منشغلًا كثيرًا في الأيام الماضية.

ثم سرعان ما تغيرت ملامحه إلى سخرية مبطنّة، وهو يوجه نظراته المتقلبة بين "ويليام" وبينني، وقال:

- تعلمين أن العرش فارغ، وأنا من عليه أن يحتوي هذه الفوضى بأكملها.

تبادل الشقيقان نظرات متوترة، كان الغضب يطفو على السطح بينهما. حينها فقط، أدركت سبب تأخر "ويليام" في العثور عليّ. لا بد أنه دخل في جدال مع "فوبوس". شدَّ "ويليام" على معصمي أكثر، وقال ببرود يحمل في طياته جنونًا:

- حسنا، أتريد أن تأخذ كل شيء؟ سأقتلها إذا!

وقع صوته في أذني كالصاعقة... لحظة! لماذا أنا؟ لماذا أتحمل غضبه؟ ما علاقتي بكل هذا النزاع؟ هل يراني شقيقه عائقًا؟ هل تشاجرا لأنني السبب في تشُّت "ويليام" وإهماله لواجباته كمَلِك؟ لا... لا أظن. كانت نظرات "فوبوس" لي أعمق من مجرد ضيق أو نفور، كانت نظرات كُره دفين، حقد متجذّر، شيء لم ألمحه حتى في عيني "ويليام"، الذي اختطفني وعذبني مرارًا. لكن "فوبوس"؟ أنا لا أعرفه، ولا هو يعرفني، فماذا يحدث هنا بحق الجحيم؟! تقدمت "سمارا"، ووقفت بين الأخوين، محاولةً تهدئة الانفجار القادم...

- ما خطبكم؟ اهدأوا!

قال "فوبوس" بنبرة ثابتة:

- أنا هادئ، لا تقلقي، فأنا دائمًا كذلك.

أما "ويليام"، فلم يَنيس بينت شفة، واكتفى بسحبي خلفه بينما يواصل السير بخطى غاضبة. وعندما شارفنا على بلوغ البوابة، دَوَّى صوت "فوبوس" من خلفنا، حادًا وواضحًا:

- لا تنس، يا "ديموس"، أن الـ"كاملوبس" لن يغفروا لك هذا الخطأ.

رد "ويليام" دون أن يلتفت، بصوت منخفض لكن محمّل بالغرور:

- "ديموس" لا يحتاج إلى مغفرة أحد... بل هم من يحتاجون إلى مغفرته.

غادرنا القاعة، وسرنا عبر ممرات القصر الواسعة. كان "ويليام" لا يزال يجُرُّني بقبضة شديدة، كما لو أنني لا أملك القدرة على المشي، أو كأنني شيء لا يحق له الإرادة. لم أجرؤ على الحديث، لم أطرح أي سؤال. كان الغضب يتفجر منه في كل حركة، وكنت أعلم أن أي كلمة قد تُشعل النار أكثر.

كنت أتوقع أن يُلغى كل شيء، أن ينهي جولتنا للكتابة، ويلقي بي في غرفتي. لكنه لم يفعل، بل تابع المسير نحو "مكتبة الظلال"، حيث كنا نكتب.

دخلنا المكتبة، ومنها إلى "الجمجمة"، مقهى الكتابة المثالي. جلسْتُ على الكرسي أمام المكتب، أتحسس معصمي الذي صار بلون الدم، أثرًا من قبضته العنيفة.

قال، وهو يضع يده على رأسه ويتنقل ذهابًا وإيابًا، كأن النار تشتعل بداخله:
- اكتبي.

كانت رائحة الغضب تنبعث منه كال دخان. قلت بتردد:

- "ويليام"...!

لم أكمل؛ إذ اندفع فجأة نحوي، وضرب براحته سطح المكتب بعنف شديد، ارتجّت معه الكتب، وسقط بعضها أرضًا. لم يهتز المكتب فقط، بل شعرت بأن كل شيء في المكتبة اهتز، حتى روحي اهتزت، اهتزت من شدّة الخوف.

لم أشعر بالخوف من "ويليام" منذ زمن طويل، لكن رغم ذلك، وجدت نفسي أقول له بجرأة:

- لا ينبغي أن تصبّ غضبك عليّ بسبب مشاكلكم العائلية. ما علاقتي أنا بالأمر؟

كانت عيناه الداكنتان تشتعلان بالغضب، لكنه كان يحاول كبحه بكل ما أوتي من قوة. قال بصوت خافت ينضح بالضيق:

- اكتبي، "ماريان". اكتبي، دون أي ثرثرة فارغة لا طائل منها.

كان الخوف قد بدأ يتسلل إلى قلبي، يزحف ببطء ويضيق أنفاسي، لكنني تجاهلته. أبعدت يدي عن الآلة الكاتبة، فنظر إليّ بثبات، ثم انحنى بجسده

نحوي حتى صار وجهه قريبًا، كجبلٍ مظلم ينحني ليحاصرني بِصمته، وقال
بصوت منخفض متفجر بالغضب:

- قلتُ لكِ اكتبِي... أخبرتكِ أنني أريد قصة تبث الرعب حتى في قلب
الشیطان نفسه. ومع ذلك، ترفضين. لماذا؟!

رفعت عيني إليه، ثم قلت، بنبرة متحدية لم أفهم من أين جاءتني:

- لن أكون دميّتك، ولن أكتب كابوسك اللعين.

لم أكن أعلم لماذا قلت ذلك؟ ربما لأنني كنت غاضبة مثله، غاضبة من كونه
يفرغ اضطرابه وغضبه عليّ، كأني وعاء لنفسيته الملوثة. ألا يكفي أنني
محتجزة هنا، أعيش في ظلال كوابيس لا تنتهي؟

في لحظة خاطفة، أمسك بشعري لكن ليس بعنف، وهذا ما أثار استغرابي،
أجبرني على النظر إليه، إلى ذلك القناع المشوّه الذي يخفي وجهه، إلى عيني
لا تحملان إلا الظُّلّة والشر.

كانت أنفاسي تتسارع، لكن عينيّ بقيتا ثابتتين، لم تنكسرا.

مرت ثوانٍ مشحونة بالكراهية والرغبة المكتومة، في صمت ثقيل، لا صوت
فيه إلا الصراع. لم يُقل شيئًا، فقط ظل يُحدّق، ثم فجأة... توقّف.

شيء ما تغيّر في عينيّه، كأن حربًا تدور في داخله، كأن شيئًا يحاول التهامه
من الداخل. ترك شعري ببطء، وأشاح بوجهه عني، رفع يده إلى جبينه وضغط
عليه بأصابعه، كما لو أن فكرة مرعبة تحاول التسلل إلى عقله.

تنفست ببطء، وبلعت ربقي لأرطب حلقي الجاف. ثم، قررت أن أخرج من
هذا الصمت، من هذا الفراغ الذي بدأ يبتلع قلبي ويبعثر مشاعري.

قلت بهدوء، لكن بثبات:

- أعلم أنك تهددني بعائلتي كلما رفضت الكتابة، لكن قبل أن تفعل ذلك مجدداً... لا تقلق، سأكتب ومع ذلك، ما أردت قوله هو: لا تجعلني دائماً هدفاً لغضبك، لست وسيلة لتفريغ ما تشعر به تجاه الآخرين، لست دمية في يديك.

حين انتهيت، شعرت ببعض الراحة. كلمات ثقيلة خرجت، لكنها خفت شيئاً مما أثقل صدري. لم يجبني، ولم يلتفت. ظل واقفاً هناك، يعطيني ظهره.

أمسكت الآلة الكاتبة من جديد، وبدأت بالكتابة. كنت أعلم جيداً أنه لم يكن راضياً، أو ربما كان غاضباً من كل شيء، من كل من حوله.

لكنني لم أعد أهتم.

هناك ما أصبح يستحوذ على اهتمامي أكثر من غضبه... هذا العالم الغريب، أسرارته، سكّانه، الكتب التي تملأ أرففه، المؤلفون الذين صاغوا عوالمهم لبناء هذا المكان.

وأمر آخر أيضاً...

رفعت عينيّ نحو "ويليام"، كان ما يزال يدير وجهه عني.

لكنني بدأت أكتب.

الفصل العشرون

العرش يحتاج إلى مَلِك



"ديموس"

قبل نصف ساعة من الآن، وقع شجار عنيف بين "ويليام" و"فوبوس".
في تلك الممرات الباردة، لم تكن تُسمع سوى همسات متناثرة. كنت أعلم
أن "ماريان" قد ابتعدت، لم تُعد تخشى ما حولها كما كانت، لكن فضولها ما
زال يجرُّها نحوي، يلتهمها بصمت. أصبحت أكثر إثارة للاهتمام، فأنا لا أطيق
الفتيات الباقيات طوال الوقت. أما الآن، فلا أثر لها، وكل مطاردة تجعلها أكثر
براعة في التخفي.

وفجأة، صرخ صوتٌ من خلفي:

- "ديموس"!

التفتُ ببطء. كان "فوبوس" واقفًا، وجهه ملبد بالغضب، ملامحه مشدودة كأنها على وشك الانفجار. سألته، وقد نفذ صبري:

- ما الأمر؟ ما الذي تفعله هنا؟ لست متفرغًا الآن، يمكننا التحدث لاحقًا.

استدرت لأتابع طريقي، لكنه أمسك بكتفي بقوة وصاح:

- إلى متى ستواصل الكذب عليّ؟!

نظرت إليه ببرود، وأنا أعلم تمامًا ما يقصده، لكنني اخترت أن أواصل التمثيل:

- عمّ تتحدث؟

- تسألني؟ أخبرني أنت، ما الذي يدور في رأسك يا "ديموس"؟ هل فقدت صوابك؟! هل تريد أن تخسر كل شيء بلحظة واحدة؟ تلك الفتاة... إن عرف الجميع من تكون، ستكون نهايتك، بل وقد تجرّ خلفك نهاية عائلتنا بأكملها!

أجبتُه بلامبالاة:

- لماذا كل هذا التهويل؟

كلمتي زادت غضبه، دفعني بعنف حتى ارتطم ظهري بالجدار، وصرخ والنار تتصاعد من صوته:

- هل تعلم من تكون تلك الفتاة؟ هل تذكر ما فعلته والدتها؟ أم أنك نسيت؟

دفعت يده بعيدًا، وتحررت من قبضته، ثم دفعته بدوري:

- لا حاجة لتذكيري. لقد كانت هي هدفي منذ سنوات، وأنا الآن على وشك أن أنقذ ما وعدتُ به، أقسمت لوالدتها أنني سأمحو نسلها عن بكرة أبيه.

ردّ "فوبوس" بصوت متقطع، يكاد يخنقه الغضب:

- إِدَا اِقتلها! لماذا تحتفظ بها منذ تسعة أشهر؟ اِقتلها قبل أن تكتشف عائلتنا أمرها! سَيُجَنُّ جنونهم إذا انتشر الخبر بأن هذه الفتاة هنا، جميع المملكة ستلعنك.

أجبت، محاولًا كبح غضبي:

- لماذا تظن أنني أبا لي بالمملكة، أو بلعنتهم، أو حتى بعائلتي؟

سكت "فوبوس" لثوانٍ، ثم قال بنبرة هادئة لكنها حادة:

- أعلم، يا "ديموس"، أنك لا تهتم بأيٍّ أحد هنا، حتى أنا. لكن إن كان كل ما تفعله بدافع الانتقام من والدي، أو لتذكيره بالماضي، فلن أسمح لك بذلك.

ضحكت ساخرًا، بصوت عالٍ:

- حَقًّا يا "فوبوس"؟! ما زلت تهتم لأمر والدي، بعد كل ما فعله بأمي؟!

- إنه لا يزال والدنا.

- والدك أنت فقط. أنا لا أعترف بذلك العجوز أبًا لي. لقد كرهني طوال

حياتي، ثم خان أُمِّي، وكان السبب في موتها. فلماذا تدافع عنه؟

- لا جدوى من مواصلة الحديث معك، لن نصل إلى شيء. بعد أيام، تُقام

مراسم تنصيبك رسميًا. انتهت فترة تدريبك، وحين الوقت لتكون ملكًا بحق.

هزرتُ كتفيَّ بلا اكتراث:

- على كل حال، العرش لا ينوي الفرار إلى أي مكان.

صرخ "فوبوس" بانفعال:

- العرش يحتاج إلى ملك، يا "ديموس"، ملك حقيقي. العرش من دون ملك

لا يُسمى عرشًا، أفهمت ذلك؟

صمت للحظات، يلهث بين كل نَفَس وآخر، بينما قلتُ بصوت مستسلم:

- حسناً... إن كان هذا ما تريدونه، إن كنتم ترغبون بأن أكون ملكًا بحق، فلا بأس، سأكون. بقي أسابيع فقط قبل أن أُجَبَّر على الجلوس فوق ذلك العرش، دون حراك، كتمثالٍ لا روح فيه. دعني أستمع بهذين اليومين كما أشاء... وداعًا، يا أخي.

بدوثٌ متماسكًا، جامد الملامح كعادتي، لكن الحقيقة كانت بعيدة عن هذا القناع. كنت غاضبًا، غاضبًا من كل شيء، لكن أول أسباب غضبي كان أنا، "ديموس". أنا الذي لم يُجَبَّر يومًا على شيء، وها هم الآن يُجبرونني على الجلوس على العرش؟ حسناً، سأفعل، لكن بضمن. ثمنٌ باهظ سيدفعونه سأجعلهم يندمون على إجبارهم لي، وسأجعل من جلوسي لعنة فوق رؤوسهم. ثم هناك "ماريان"، انتشر خبر وجودها، وتسَرَّب أنها ابنة "سارة". لا غرابة في أن تصبح "ماريان" معروفة هنا؛ فوالدتها، "سارة"، يعرفها الجميع... ويكرهها الجميع. "سارة"، تلك التي سرقت منا أعزَّ ما نملك. أجل، أعترف بأنني أحضرت "ماريان" إلى هنا لأجل أبي. أردته أن يراها، أن ينظر إلى ملامحها ويتذكَّر العار الذي خلَّفه، وأن شبح أمي ما زال يطارده - إن كان لديه قلبٌ يشعر أصلًا.

وثالثًا، تلك الفتاة الفضولية ستسمع يومًا ما الحقيقة... ستجمع القِطع المتناثرة وتفهم أنني كذبت، لقد لَقَقْتُ قصة والدتها، واخترعتُ حكاية التضحية، ونسجتُ الأكاذيب كما أردت. لكن قصة "سارة" الحقيقية، لا يجب أن تسمعها من أحد سواي.

ثم هناك "فوبوس"، يضغط عليّ، يدفعني لقتلها. لكنه لا يدرك... أنني لا أريد ذلك، لا أريد أن أقتل "ماريان"، ولا أعرف لماذا؟

وخامسًا، وربما الأخطر من كل شيء... يجب ألا يلتقي أخي المنفي بـ"ماريان". هذا اللقاء إن حدث، ستكون له عواقب لا أستطيع السيطرة عليها. وربما، ابتداءً من الغد، سأبدأ بالتخطيط لقتله؛ لأنني أعلم تمامًا أن أبي لن يفعل. ذلك العجوز، لم يكن يومًا يملك الشجاعة لِيُنهي ما بدأه.

"إلياس"

معركة الأحرار المَنفِيِّين - تطهير "أرض المَنفِيِّين"

لم تكن هذه الليلة كسابقاتها في "أرض المَنفِيِّين". لم تكن ليلة خنوع ولا ترُقُبٍ لما قد يمنحه القَدَر. كانت ليلة اشتعال، ليلة سُحقت فيها الذاكرة بالخلاص، ليلة نهض فيها المَقموعون، لا لينتظروا؛ بل ليحطموا ما تبَقَّى من القيود.

كان الأمير "إلياس" واقفًا في مقدمة صفوف المَنفِيِّين الأحرار. خلفه رجال ونساء لم يُولَدوا أحرارًا، بل صيغت أرواحهم في نار الألم، وطُردوا من كل ما يشبه الحياة. عيونهم لم تَعُد تبكي، بل تلمع بعطشٍ لا يُروى إلا بالحربة. قبضاتهم شَدَّت على أسلحتهم، لا كأدوات قتل، بل كامتداد لما سُلِب منهم طويلًا: كرامتهم.

في أعالي التلال، وقف جيش الأسياد أو الذين يودون الانتقام للأسياد. لم يكونوا جنودًا، بل بقايا مرتزقة، أجسادهم مكسوة بجلود سوداء، وجوههم خلف أقنعة حديدية لا ملامح فيها، يحاولون أن يمنعوا النور من بلوغ المَنفِيِّين.

لكن هذه الليلة... كانت ليلة الأحرار.

اشتعلت يد "إلياس"، لا بنارٍ عادية، بل بشيء يشبه الغضب حين يتحول إلى مادة. كانت النيران تتمدد من داخله، أصبحت جزءًا من كيانه. بصيحةٍ خرجت من صدره كأنها زئير كائن خُلِق من لعنات متراكمة، ألقى أول كرة نارية نحو الصفوف الأمامية للعدو، اصطدمت كنيزك ساقط، واشتعل معها كل شيء. لم تَعُد هناك بداية أو نهاية، بل صراخ واحتراق وارتباك.

- إلى الأمام.

صرخ بكلمته التي لم تكن أمراً، بل موجة اجتاحتهم. اندفعت جموع المَنفِيِّين
كفيضان هائج لا خطة، لا تراجع، لا كلمات. فقط صرير السيوف، واختراق
الرماح، ودماء تُراق فوق أرض لم تعرف يوماً العدالة.

التحم الجسد بالجسد، والصوت بالصوت، والدم بالتراب. ليس مجرد قتالاً،
كان سقوطاً حرّاً في الجحيم. لا قانون يحكم هذا الليل سوى واحد: الحربة...
أو القناء.

هرع أحد رجال الأسياد نحو "إلياس"، يحمل فأساً كأنها أداة إعدام، ضربة
واحدة تكفي لإسقاط فارس، لكنها لم تلامس "إلياس". انزلق مبتعداً كظلٍّ في
ريح، وأطبق على ذراع الرجل، نظراته لا تحمل شفقة. اشتعلت يده مجدداً،
أطلقت وهجاً مرّق اللحم والعظم، وابتلع الصرخة قبل أن تُولد. تلاشى الجسد،
ولم يبقَ إلا الرماد.

النيران التهمت معسكرات العدو، ارتفع الدخان كثيفاً كستار أسود يطوي
آخر فصول الطغيان. الصرخات امتزجت مع عواء الريح الأخيرة، حين سقط
جنود وجماعة الأسياد واحداً تلو الآخر. لم يكن مجرد انتصار، كان تطهيراً. كان
إعلاناً لنهاية عهدٍ وبداية آخر.

عندما انقشع الغبار، وقف "إلياس" فوق تلة من الجثث، جسده ملطخ
بالسخام والدم، لكن عينيه كانتا كعيون ملك وُلِدَ من رحم النار. نظر إلى "أرض
المَنفِيِّين"، الأرض التي لم تُعد قيّداً، بل باتت وطناً... وطناً للأحرار.

ومن خلفه، دَوّت صرخة، لم تكن مجرد هتاف، بل وعدٌ تُقش في ذاكرة
التاريخ:

- المجد للأحرار!

قال المبعوث وهو يلتهث من فرط السرعة:

- مولاي الملك المستقبلي! لقد انفرجت الأبواب، وانقشع السواد عن أبصارنا، فجميع الحلفاء الذين أبوا نصرتنا في الأمس، أرسلوا اليوم رسائلهم معلنين موافقتهم.

كان الأمير "إلياس" جالسًا في موضعه المألوف، أعلى البرج الذي قضى فيه طفولته، وصباه، ومنتصف شبابه، أسيرًا منفياً بين جدران. أزاح كأس الشراب جانبًا، وأغمض عينيه، ثم همس للعجوز الذي تولّى تربيته:
- سأذهب للقاء بها.

رفع العجوز حاجبيه في استغراب، وسأل بنبرة تتخللها الحيرة:

- أتقصد ملكة أرض آكلي لحوم البشر؟ ليس الآن، فلا ينبغي أن نتعجل، لن تنحاز إلينا بهذه السرعة وتترك الملك "ديموس"، فما زال - وللحق أقول - الأقوى.

- ألا تخرس قليلًا!

قاطع الأمير "إلياس" مربّيه بصوت هادئ، ثم نهض بجسده الممشوق، وثيابه الملطخة بدماء المعارك، رغم أن الحرب وضعت أوزارها منذ يوم كامل، وقال بنبرة حاسمة:

- سأرحل إلى العاصمة، "أرض الملائكة والوحوش"؛ لألتقي بتلك الفتاة "ماريان".

ارتجفت ملامح العجوز، واتسعت عيناه، وُثّعت وجهه حتى غدا شاحبًا، ثم قال متلعثمًا:

- أجننت يا "إلياس"؟ أتذهب بتقديمك إلى الموت؟ ماذا لو أمسكوا بك؟ أرجوك، لا تجازف.

"إلياس" بصوت هادئ وحازم:

- اهدأ... عليك أن تثق بي. لا بد أن ألقاها قبل أن يتسرب خبر عصياني، فإن علموا أنني تمردت، وقتلت الأسياد، وانفكَّت قيودي، وأن جيشي يزحف نحوهم، فسيغدو دخول قصر الرهبة والخوف أمرًا عسيرًا. أمّا الآن، فالطريق ممهّد، ولن تستغرق المسألة سوى دقائق معدودة.

العجوز بقلق:

- لكنك تدرك أن شقيقك، "ديموس" و"فوبوس"، قادران على قراءة أفكارك وسماعها.

ابتسم "إلياس" بثقة:

- كان ذلك حين كنتُ طفلًا، أما الآن فقد أحكمتُ إغلاق أبواب ذهني، ولن تتمكن تلك الشياطين من النفاذ إليها، فلا تخشَ شيئًا.

زفر العجوز بياس؛ إذ يعرف أن "إلياس" إذا عزم على أمرٍ فلن يثنيه شيء، ثم سأله بنبرة مستسلمة:

- حسنًا... وما خطتك؟ ماذا ستقول لها؟ وهل تظن أنها ستصدقك أصلًا؟ أراهن أن عقلها قد اضطرب من هول ما شهدته، فلا ريب أنها ستكذبك.

اقترب "إلياس" ووضع يده على كتف مربّيه، وقال بثبات:

- لا تقلق، كل ما عليك هو أن تستعد للرحيل مع رجالي وحلفائي، ولتتهياؤا للزحف خارج الأسوار. انتظروني... سأعود حين يتحوّل القمر إلى أزرق.

دوّى عواء ذئب في البعيد، فالتفت "إلياس" نحو النافذة، ورأى ذئبه الأسود العملاق ينتظره في الساحة. لم يكن "إلياس" فارسًا يعتلي جوادًا، بل كان

يتمتطي هذا الذئب منذ طفولته. كان الوحش يختلف عن أي ذئب مألوف، ضخم الجثة، متَّقد العينين، كأنه خُلِق من ظلِّ الليل نفسه.

لقد امتلك "إلياس" قوى خارقة، من بينها القدرة على الاختفاء والظهور في أي موضع يشاء. غير أن المَنفِيِّين يُجَرِّدون من قواهم بأمر الأسياد، ولذلك ظل محرومًا منها طوال سنوات حتى استعادها اليوم.

أخذ نَفَسًا عميقًا، وأغمض عينيه، ثم همس في نفسه: "واحد... اثنان... ثلاثة"، وفجأة تلاشى من أمام العجوز كأنه لم يكن.

تمنى العجوز في سره أن تحفظه الآلهة، وأن يعود سالمًا قبل أن يُفتضح أمره. كان قلبه يضطرب خوفًا على الأمير، رغم ثقته بذكائه وبأسه، لكنه يعلم أن "إلياس" لم يستخدم قوته منذ كان صبيًّا، وهذا ما يثير قلقه. كان يخشى أن يَعلق هناك، في قلب العاصمة، ويقع في قبضة أعدائه.

ومع ذلك، أدرك العجوز أن هذا الأمير لا يقل جنونًا عن شقيقه، بل ربما ورث مسَّ الجنون ذاته عن والده... وعن والدته أيضًا.

الفصل الواحد والعشرون

معقل الرعب في أرض الجنون



قصر الملك "أريس داميان إيريبوس" - معقل الرعب في "أرض الجنون"

على تُخوم "أرض الجنون"، حيث السماء موشومة بالعتمة الأبدية، والرياح تعصف، تحمل في طياتها أنين الأرواح الملعونة، ينتصب قصر الملك "أريس داميان إيريبوس". ليس مجرد قصر، بل حصن أسود جاثم، منقور في قلب جبل حالك. الواجهة الخارجية للقصر شامخة ككابوسٍ متجسّد، جدرانها منحوتة من حجر أسود غريب لا يُعرف له مثيل، تتخلله شقوق متوهجة بضوء أرجواني غامض، المبنى مثل دماء أرواح متعفنة. الأبراج القوطية تمتد إلى أعالي السماء، تنتهي بقمم مسنّنة أشبه بأنياب وحش يستعد لالتهام فريسته. النوافذ الضيقة العالية مكسوّة بزجاج قانٍ، يعكس ضوء القمر الشاحب، حتى يبدو القصر ينزف صمّا متناقلاً.

بواباته العظيمة من حديد أسود مصبوب، منقوشة بمشاهد ملحمية من حروب توحيد الممالك الثماني، حيث تُظهر النقوش أرض الملائكة والوحوش وهم ينحنون لرجل واحد... "آريس داميان إيريبوس" ولمن يقترب من تلك البوابات، تتناهى إلى سمعه أصوات باهتة، أصوات محاربين سقطوا في معارك الملك الخالد، أرواحهم ما زالت حبيسة بين ثنايا المعدن البارد.

هنا الملك "آريس داميان إيريبوس" العجوز الفتى الذي لا يموت.

في صدر القاعة، فوق عرش العظام، يجلس الملك الذي طوى القرون ولم تطوّه، "آريس داميان إيريبوس"، ورغم أن عمره قد تجاوز مئات السنين، فإن ملامحه ممهورة بقوة شابٍّ في عنفوانه، وعيناه تقدحان بهيبة لا يقدر على مواجهتها بشر ولا وحش.

وجهه حاد الملامح، بشرته شاحبة، لكن عينيه بلون الدم المتوهج تزرع الرعب في قلوب من يجراؤون على النظر إليه. جسده رياضي، قوته لا تزال واضحة رغم الزمن، كأنه صُنع للحرب والقيادة. شعره الطويل الأبيض الرمادي مموج كأمواج السحاب، وكان يحصل على هذا اللون ليس بسبب أنه أصبح عجوزًا، بل أيضًا مثل جده على عكس والده وأولاده، إلا "إلياس"، يحصل على شعر ذهبي خليط بين لون شعره وشعر والدته المتوفاة، وعلى جبينه تدبة قديمة، ذكرى آخر معركة خاضها لتوحيد الممالك الثماني.

عندما يتكلم، صوته عميق، يتردد صداه عبر القاعة، حتى الجدران تستمع له. لا يرفع صوته أبدًا، لكنه عندما يأمر... تطيع الأرض ذاتها.

قيل إن "آريس" لم يتخلَّ عن العرش لأنه هُزم، بل لأنه رأى ما لم يستطع أحد أن يراه... شيء جعل ملك الملوك ينسحب إلى ظله. لكنه لا يزال في

قصره، ينتظر، يراقب، مستعدًا للعودة إن احتاجت الممالك إلى موَّجِّدٍها من جديد. وإن عاد... فلن يترك هذه المرَّة شيئًا قائمًا.

لكن لا أحد يعرف السبب الحقيقي الذي دفع الملك "آريس" للتنازل عن العرش لابنه الأصغر "ديموس". الإشاعة الأكثر انتشارًا تقول إن "آريس" كان يخشى ابنه، وإنه رأى حلمًا غريبًا رأى فيه "ديموس" يقتله بأبشع الطرق. غير أن هذا، على الأرجح، لم يكن السبب الحقيقي، وربما كان "آريس" وحده يعرفه.

ورغم سخط الشعب عليه لاتخاذ هذا القرار الصعب، فإنه لم يُعين الأمير الأكبر المحبوب وولي العهد المرشح، "فوبوس"، بل اتخذ قرارًا مفاجئًا للجميع بتعيين "ديموس". حتى "ديموس" نفسه بدا متفاجئًا وغير مستعد لهذا المنصب. جلس "آريس" على العرش الذي كان في الحقيقة عرش "مملكة وأرض الجنون"، عرش ابنته "لوليتا"، لكن الأمر لم يكن مهمًا بالنسبة له، فقد اختار أن يعيش بجانبها بعد سنوات طويلة من الإنجازات والمعارك العظيمة. انتقل إلى قصرها في "مملكة الجنون" مع زوجته "صوفيا"، التي كانت تصغره بسنوات كثيرة، لكنها لم تنجب له أي أبناء حتى ذلك الحين، رغم محاولاتها المتكررة. لم تدخر جهدًا، فلجأت إلى كل العلاجات والاستشارات وحتى الطلاس، لكن دون جدوى.

اختار "آريس" أن يقضي ما تبقى من عمره بهدوء إلى جانب ابنته التي يحبها حبًا كبيرًا، كما يقال إن الآباء يحبون بناتهم، بينما تميل الأمهات أكثر إلى حب أبنائهن الذكور. ولأن "لوليتا" لم تتزوج بعد، كان "آريس" يساعدها في معظم أعمالها وقراراتها.

وفي ذلك اليوم، كان "آريس" وزوجته وابنته يستعدون للسفر إلى العاصمة، "أرض الوحوش والملائكة"، لحضور اليوم المنتظر. كان هذا اليوم ثقيلًا على قلب الملك السابق، الذي كان يحمل في صدره أسرارًا لا يعرفها سواه، ويتحمل سيل الانتقادات والهجوم الذي بدأ بالفعل منذ سنتين، حين قرر تسليم العرش لـ "ديموس". وقد منح ابنه مهلة سنتين للتدريب، وللانسحاب رسميًا من مهمته السابقة كخاطف للمؤلفين من البشر؛ إذ لم تُعد المملكة بحاجة إلى هذه المهمة بعدما وُجدت بدائل أخرى لتوسيع عوالمهم وزيادة شعبيهم.

لكن اليوم، علم "آريس" كما علم الكثيرون بخبرٍ أصابه في صميم قلبه القوي. الخبر الذي كان ينكره دائمًا، لكن أحد الوزراء أكد له: آخر كاتب اختطفه ابنه "ديموس"؛ ليكون ختام تلك المهمة، لم يكن سوى تلك الفتاة... "ماريان".

جلس "آريس" على عرش ابنته وقد تلبّدت ملامحه بمزيج من الدهشة واليقين الموجه. كان يتساءل في أعماقه: هل حقًا فعل "ديموس" ما فعله؟ أم أن عليه أن يصدّق لأنه يعرف أن "ديموس" قادر على ارتكاب أي فعل يكدر صفو أبيه ويستفز كبرياءه؟

رفع "آريس" يده الضخمة، وضرب طرف العرش بضربة هادرة، فارتجت أركانه من شدّة بأسه. كان، وما زال، رجلًا فريد الشكيمة، صلب العود، موحّدًا لمعظم أراضى المملكة، وقاهرًا لأشدّ الأعداء بأسًا. جسده مهيب البنية، وقوته مَضْرِبُ الأمثال، حتى كان الناس يقولون إنه لا يعرف الضعف. غير أن القدر كشف له نقطة الانكسار الوحيدة في حياته، يوم رحلت المرأة التي أحبها بصدق بين جميع زوجاته، وهي والدّة الأمير المنفي "إلياس".

أخفى "آريس" جمرّة الغضب في صدره، واتخذ قرارًا بالتوجّه لمواجهة "ديموس" وجهاً لوجه. لكن سؤالًا آخر أخذ ينخر في فكره: هل سيري تلك

الفتاة؟ وكيف استطاعت أن تخرق الحُجب وتدخل إلى عوالمهم؟ أهو إرث دمٍ من أمها المجهولة؟

- أيها الحراس!

جاء صوته كهدير جبل ينفجر من أعماق القاعة، فانفتحت أبواب العرش الثقيلة، ودخل حارسان ضخماً الجثة، وهما نفس الحارسين اللذين لازماه منذ قرون. انحنيا في خشوع، وقال أحدهما:

- أمرك يا جلالة الملك.

أجابه "آريس" بنبرة هادئة ولكنها ثقيلة:

- لم أَعُد ملكًا بعد الآن، إنني أعيش آخر يومين لي على العرش. من هذه اللحظة، مَلِككم هو "ديموس".

اعتدل الحارس الآخر وقال بحزم:

- الملك "ديموس" سنخدمه بولاء حتى آخر أنفاسنا، غير أن مقامك يا "آريس" سيبقى ملكًا في أعيننا إلى الأبد.

ابتسم "آريس" ابتسامة شاحبة، وقال:

- شكري وامتناني لكما، أيها الأخوان. والآن، استعدّا للرحلة، سنمضي للتويج الملك القادم. وأبلغا الأميرة "لوليتا" أن تنهيًا للسفر.

- أمرك، جلالة الملك.

- وأرسلوا إلى أخي "شارون" برقيّة؛ لياشر تنظيم احتفالات أسبوع التتويج.

- أمرك.

انصرف الحارسان، تاركين "آريس" وحيدًا في ظُلْمة القاعة العميقة، غارقًا في أسئلة معلّقة لا جواب لها، يحاول فكّ شفرة ما يجول في عقل ابنه الأصغر

"ديموس". كان يعرف تمامًا أن لا أحد يستطيع قراءة أغوار ذلك العقل المظلم، لم يكن يدري أن ابنه المنفي الأخير قد تمرّد، وأن نيران حربٍ قد اشتعلت في الطرف الآخر من المملكة، وأن جيشًا أسودّ سيزحف قريبًا نحوه.

الفصل الثاني والعشرون

اللحم الفاسد



"ماريان" و"ويليام"

انتهيتُ من كتابة القصة الثانية لـ "ويليام"، بينما ظلَّ هو ملتزمًا الصمت، يحبس غضبه في أعماقه. تناول الأوراق مني، وشرع يقرأها على مضض، بعجلة وفتور، حتى حُيِّلَ إليَّ أنه تجاهل بعض السطور عمدًا. وحين فرغ، ألقى بالأوراق جانبًا دون اكتراث، ثم أخرج علبة سجائره، أشعل واحدة ووضعها بين شفتيه، ثم أشعل ثانية ومدَّها نحوي قائلاً:

- تفصِّلني.

رمقته بعينين ضيّقتين وحاجبين معقودين، متسائلة في داخلي: كم عدد الوجوه التي يحملها هذا الرجل؟ وكم شخصيةً ونفسيةً يستطيع أن يتقمص في

الدقيقة الواحدة؟ قبل لحظات فقط كان يصرخ ويحطم الأشياء من حوله، غارقاً في انفعاله العاصف بسبب استفزاز "فوبوس" له، والآن قرر ببساطة أن يهدأ!

تناولت السيارة من يده، وكانت هذه أول مرّة أدخّن فيها منذ تسعة أشهر. ربما كان قرار الإقلاع عن التدخين أفضل لو التزمت به، لكنني التقطتها بسهولة وبدأت أستنشق الدخان. تذكّرت أبي حين اكتشف أمري ووبخني بشدة، وتذكرتُ رفاقي وأنا أخبرهم بأن التدخين مضر بالصحة... وأنا أكذب. لكن الأمر لم يَعدْ يهمُّ الآن؛ ربما لن يراني أحد منهم ثانية في حياته.

- هذا رائع، أنتِ الآن تعترفين بأنكِ "ماريان" ولستِ "ماريانا".

قالها "ويليام" وهو ينفث خيطاً من الدخان من فمه.

- لا أريد أن أتناقش في هذا الموضوع، أخبرني، لماذا قلتَ لشقيقك إنك ستقتلني؟

- أولاً، اتفقنا على عدم الأسئلة. ثانيًا، هل نسيتَ أمر قصتك؟ إنها رديئة، لم تعجبني، وهي القصة الثانية لكِ هذه الليلة.

التقط بعض أوراق القصة، وأشعلها من سيجارته، فاشتعلت أمام عينيّ، وتحولت إلى رماد يتساقط على الأرض. حاولت أن أكبح جمرة الغضب التي تتأجج في داخلي، زفرت آخر دخان من فمي، ثم رميت السيارة بعد أن أطفأتها على الأرض.

- أنت تقول هذا فقط لأنك غاضب، وتريد أن تصبّ غضبك عليّ. أنا واثقة أن هذه القصة الدموية هي أفضل ما كتبت.

نهض من كرسيه واقفاً، وقال وهو يهْمُّ بالمغادرة:

- اتبعيني... سيبدأ عقابك الثاني والجديد. ألسنت متحمسة لتجربة شيء مختلف، أم تريد أن نعود إلى العقاب القديم، قصّ الإصبع؟

اللعنة عليك يا "ويليام"! عقاب جديد؟ هذا يعني أنه العقاب الذي حدّثني منه سابقًا، أن يجعلني أواجه شخصية مرعبة من شخصياتي التي كتبتها! يا إلهي... لقد نجوت بأعجوبة من ذلك المختل الذي يحوّل الفتيات إلى دمي، وكنت بالكاد أستطيع القضاء عليه وهو ليس من ابتكاري. فكيف بي الآن، وأنا أواجه شخصياتي أنا... المجانين، العنيفين، القساة، والدمويين؟

اتبعت "ويليام" دون حيلة ولا قوة. توقعت أن تغادر المكتبة، لكننا لم نخرج. صعد السلالم المؤدية إلى الطابق الثاني، ولحقْتُ به. كان الطابق العلوي مكوّنًا فقط من أرفف عملاقة للكتب والمخطوطات وأشياء غامضة أخرى، حتى وصلنا إلى رف مختلف عن سائر الرفوف. كان ضخمًا، وهيئته أشبه بباب مثلث من الخشب. مدّ "ويليام" يده وسحب كتابًا أسود اللون، فبدأ الرف يتحرك ببطء، مُطلقًا صوتًا غريبًا ومخيّفًا.

شيء جديد... أجل، وبالتأكيد سيكون مخيّفًا. دخل "ويليام" من خلال الباب السري، فاتبعته على مضض. كان الممر غارقًا في ظُلْمة خانقة، فجأة، توقف والتفت إليّ، فاشتدت نبضات قلبي حتى شعرت بها تضرب أضلعي، وتقلص الهواء في رئتي حتى كاد يخنقني. أراحني بجسده ليُفسح لي الطريق، ثم قبض على معصمي وعدّل مؤقّت ساعتي... عشرون دقيقة! كانت فترة أطول من جولة المطاردة السابقة.

رد ببرود:

- الشروط هنا بسيطة، لكن الوقت أطول. عشرون دقيقة، حاولي البقاء على قيد الحياة فحسب، أمام واحدة من أكثر شخصياتك رعبًا.

سألتُ بيأس، وبلعت ريقِي كأنني أبتلع حجرًا:

- وماذا لو مُتُّ؟

صمت للحظات، ثم هز كتفيه بلا اكتراث:

- قدَرِك.

في داخلي، لعنت "ويليام" مليون مرة، وكرهته مائة مرة أخرى. كان هادئًا في الأشهر الأخيرة منذ قتل "إيثان"، بدا مختلفًا، بل شعرت بأنه اقترب مني على نحو غامض. لكن اليوم يعود إلى صورته المختلة، فقط لأنه غاضب من شقيقه.

تنفست بعمق، وربطت شعري إلى الخلف بربطة بيضاء استعدادًا للقتال. سِرت بخطوات متثاقلة، أحاول تقمُّص دور الشجاعة، ثم تجاوزت "ويليام" حتى صار خلفي. توقفت، أُحدِّق في الظلام المتمدّد أمامي... هل أدخله؟

عندها، شعرت بيدٍ تلامس شعري، تسحب الربطة ببطء، فتتحرر الخصلات وتنساب فوق كتفيٍّ كموجات قرمزية في بحر العتمة. استدرت بسرعة، فوجدت "ويليام" واقفًا خلفي، عيناه تتوهجان بلون لا يمكن للعقل أن يصفه.

همس بصوت منخفض، يحمل بين طبقاته شيئًا لا تفسير له:

- لا تفعلِي ذلك، أفصِّل أن يبقى شعرك مسدولًا.

لم أجد وقتًا للتفكير، فالهواء في الداخل كان باردًا حتى العظام، خانقًا حتى الروح. تضاربت أفكارِي في أعماق جمجمتي، وقلت لنفسي في صمت حاد:

- لن أقع في حبك سيِّد رعب.

- في كل الأحوال، إن وقعتِ فسأكون أنا من يمسك بك.

قال "ويليام" تلك العبارة الساخرة بصوت مرتفع وهو يواصل السير، فاشتعل غضبي عليه، وعلى عقلي الذي لا يهدأ. ذلك العقل الذي يظلُّ يلتقط صوته، يسمع أفكاره كأنه مقيم داخل جمجمتي، بل في أعماق روحي. أقسمت لنفسي ألا أسمح له أبدًا بأن يمتلكني.

تابعت طريقي وحيدة، فيما ظلَّ يلوّح لي بيده في حركة وداع استفزازية. وقبل أن أختفي في عتمة الممر، دَوَّى صوته من خلفي:

- من المؤسف أنني لست أنا المطارد، هذه المرّة أشعر بالغيرة. لكن لا بأس، تذكّري أنهم لن يترفقوا بك كما أفعل أنا. أتمنى لك حظًا سعيدًا.

تابعت السير بخطوات مرتعشة، وقلبي يرتجف كطائر مذعور. كانت قطرات العرق تتكوّن على جبيني، فيما أتوغل في عتمة سراديب تشبه مقابر الموتى. ظللت أسير بخط مستقيم حتى لاحت أمامي نقطة ضوء صغيرة، أشبه بوميض يتحدّى الظلّمة. اقتربت منها وقلبي يخفق بعنف، ثم مددت يدي المرتجفة نحوها... ولمّا لامستها، انفجرت الدائرة الضئيلة في ومضة قاسية اخترقت بصري. وضعت يديّ على عينيّ بسرعة، وحين أزلتهما، كانت بقع الضوء تتلاشى تدريجيًا حتى استعاد نظري وضوحه.

لم أكن في مكاني نفسه... لقد انتقلت إلى عالم آخر!

هنا، لا وجود للوقت، لكنه يتمدد حتى يبدو أبدئيًا.

كانت الشوارع ضيقة، تفوح منها رائحة الدم كأنها تتنفسه، والمباني حولي متداعية متآكلة، توحى بأنها تحتضر منذ قرون. أضواء حمراء باهتة كانت تومض على نحو غير منتظم، تلقي بظلال متكسّرة تتراقص فوق الجدران، فيما يخيم صمت ثقيل... صمت أشبه بأنفاس مدينة تنتظرني بترقّب قاتل.

وفجأة، اخترق هذا الصمت أصوات صرخات بعيدة، امتزجت بضحكات وحشية، وصوت السكاكين وهي تشقُّ اللحم. عندها، تجمّدت مكاني، هذا المكان! أعرفه...

وحين فتحت عينيَّ على اتساعهما، اجتاحتني الحقيقة كصفعة باردة: لقد هبطت إلى الجحيم!

لم يكن حلمًا، ولا هذيانًا، ولا كلمات خطَّتها يدي في لحظة إلهام. لقد أصبحت جزءًا منها أنا هنا، في "مدينة الجرّارين".

كنت أريد أن أصدّق أن هذا مستحيل، أن ما أراه مجرد وهم، لكن الهواء كان يفصح الحقيقة. الرائحة كانت واقعية حتى العظم: مزيج خانق من اللحم المحترق، والدم الطازج، وتعفنٌ يتشبّث بالأنفاس، والصوت... كان أكثر صدقًا من أي كابوس: طقطقة أسنان وهي تمزّق اللحم، صرخات نساء تذوي إلى العدم، وضحكات عميقة تزداد نشوة مع كل قضة.

الرعب لم يكن شعورًا عابرًا، بل حقيقة كاملة تحاصرني من كل جانب. لقد وقعت في عالم روايتي "اللحم الفاسد"؛ ذلك العالم الذي ابتكرته بيدي، وها أنا الآن محبوسة داخله.

كانت الرواية تحكي عن مدينة لا يسكنها سوى الرجال، رجال لا يرون النساء إلا فريسة محرّمة البقاء. وجود المرأة في مجتمعهم جُرم يستوجب الإبادة. يستعملونها فقط للتكاثر؛ لينجبوا الذكور، ثم يذبحونها دون رحمة... يأكلون لحمها، ويتفنّنون في تمزيقها.

خطوْتُ بخفة مترددة، لا أدري إلى أين أتجه، إنه عالمي صنعته بخيالي، لكنني الآن غريبة تائهة بين شوارعه. كان الصمت يسود المكان، لكنّه لم يكن صمت أمان، بل صمت كمينٍ يترصّد لحظة ضعفي.

وقبل أن أتمكّن من متابعة السير، تناهت إلى سمعي ضحكات قريبة، أقرب مما توقعت. ارتجف جسدي، ورحت أركض بخفة، محاولةً الابتعاد عن مصدرها، لكن الرعشة في ساقيّ كانت تُثقل خطواتي.

توقفت عند زاوية شارع ضيق، أختبئ في ظله، ويدي ترتجفان، وقلبي يخط كطبول حرب. حبست أنفاسي خشية أن تفضحني... لكن كان الأوان قد فات.

لقد رأوني!

عند نهاية الشارع، انبثقت من العتمة هيئة رجال، لكنهم لم يكونوا بشرًا على الحقيقة. كانوا مسوحًا تتدلى على وجوههم لحي متسخة، وفي عيونهم جنون هائج، وأفواههم تفيض بدماء حديثة النزف. في أيديهم السكاكين والمناشير والفؤوس، ما زالت عالقة بها بقايا لحم الضحايا الذين سبقوني. مخلوقات على هيئة الإنسان، منسوجة من كواييسي، أنا التي كتبتهم، فإذا بهم يقفون أمامي أحياء، وقد تسرّبت حروفهم من الورق إلى اللحم والدم.

ابتسم أحدهم ابتسامة ملؤها التّهم، نظرة يعرف بها أنني القطعة التالية على مائدتهم. قال بصوت خفيض يحمل سُماً لزجًا:

- انظروا من وجدنا... لحم طازج.

تجمّدت للحظة، لكن الخوف لم يمنحني ترف التفكير. ركضتُ، قدماي تضربان الأرض بقوة، أنفاسي تتقطع، والدم يندفع في أذنيّ حتى كاد يصمّني. خلفي، كانت خطواتهم الثقيلة تتعقبني، مصحوبة بضحكات وحشية، وبأصوات سكاكينهم وهي تخدش الجدران كأنها تكتب على الحجر نبوءة موتي.

انعطفتُ إلى زقاق ضيق، لكنني توقفت فجأة... فقد اصطدمت عيناي بالجحيم.

في ساحة مفتوحة، كانت نساء ملقاة على الأرض، أذرعهن مقيدة بالسلاسل، أجسادهن مثقلة بالعجز، يصرخن ويتوسلن، غير أن صوتهن يتبدد في فراغ لا رحمة فيه. كان الجرّارون فوقهن، أسنانهم غائرة في اللحم، أيديهم تُعابث بالأحشاء، والدم ينحدر غزيرًا كما لو أن السماء تمطره.

لم يكن هذا موتًا عابرًا، كان وليمة حقيقية.

اختنق الهواء في صدري. التقت عيناى بعيني امرأة ممددة، مدّت يدًا مرتجفة نحوي، وشفاتها ترتعشان بكلمات لم يخرج لها صوت: "أنقذيني".

لكن قبل أن أتحرّك، انقضُّوا عليها، وتمزقت بين أيديهم كما تتمزق صفحة رطبة تحت أصابع غليظة.

كرهت نفسي، كرهت قلبي وأفكاري. لماذا خلقتُ لهم هذا الجحيم؟ لماذا زرعت فيهم الموت لمجرد أن أكتب رعبًا؟

كنت أشاهدهم يسقطون واحدًا تلو الآخر، يمدون أذرعهم نحوي كأنني وحدي مَن يمكنه إنقاذهم، لكنني لم أفعل. وكيف لي أن أفعل؟

أنا التي أوجدتهم.

أنا التي حبكت مصائرهم بخيوط لا خلاص منها.

أنا التي خطَّت هذه المشاهد دون أن يخطر لي أن الكلمات قد تنقلب لواقع حيٍّ يلتهم خالقه.

"ألين" الفتاة التي حبكتُ لها خيط النهاية على هيئة دَبَج، ها هي الآن ممزقة على الأرض، قلبها غائب، وعيناها جافتان من الحياة، تُحدِّقان في فراغ لا عودة منه.

"ليلي" التي منحتها الشَّجاعة لتقاتل حتى الرمق الأخير، تصرخ الآن وبطنها مفتوح، يداها ترتجفان وهما تمتدان نحوي، لكنهما تخوران قبل أن تمسانني.
"أنجيلكا" التي ألبسْتُها القوة والعناد، تُسحب من قدميها نحو طاولة الجزار، تصرخ وتلوح بذراعيها بجنون، قبل أن تهوي الفأس فتفصل رأسها عن جسدها، فتسكن في صمت أبدي.

كانوا جميعًا يموتون، تمامًا كما كتبْتُ.

وقفت أرتجف، وجهي منزوع اللون، ودموعي متحجرة في عينيّ، لا تملك الانحدار. لم يكونوا مجرد شخصيات في رواية، بل كانوا جزءًا من حياتي، بنيّتهم بحرف، وأحببتهم بصمت، ووهبتهم ملامح وأحلامًا.
والآن أقف مشلولة، أراهم يُذبحون، غير قادرة على محو الكلمة التي كانت قدَرهم.

تمت بصوت متكسّر:

- هذا ليس حقيقياً... هذا ليس حقيقياً...

لم أعرف هلعًا كهذا منذ تسعة أشهر، منذ أن اختطفني "ويليام". كانت المشاهد تنخر روحي، وأنا التي نسجتُها بيدي، أنا التي صنعتها. الآن فقط فهمت لِمَ جئت "سارة"، لعلها رأت ما يكفي من الظلمات لتفتك بعقلها. واصلت الإنكار، لكن الرائحة الفاسدة، والدم الحار على بشرتي، وأصوات الاختناق، كلها كانت تنقض عليّ كدليل دامغ، كل شيء كان حقيقياً.

انتفضت في داخلي رغبة في الصراخ، في القيء، في الفرار، لكن جسدي ظل جامدًا.

فعيون شخصياتي، قبل أن تُسلم للذبايح، كانت تبحث عني.

كانت تسأل بصمت:

- لماذا كتبتِ لنا هذا المصير؟ لماذا منحنا هذه النهاية؟ لِمَ لَمْ تمنحنا مَخرجًا آخر؟

لم يكن لديّ جواب.

كنت أنا الكاتبة... وكنت أنا الجزار الحقيقي.

قطع الصمت أصوات خطواتهم، الجزارون قادمون نحوي. انتفضت واقفة، استدرت، وواصلت الركض، دون أن أعرف إلى أين؟ لم يكن ثمة مفر، لم يكن ثمة باب خروج.

كانت "مدينة الجزارين" قد ابتلعتني بكاملها.

لم أعُد أفكر، لم أعُد أشعر إلا بحرقه في قدميّ، وبنارٍ في رئتيّ، وأنا ألهث محاولةً ابتلاع أي هواء لا تلوّثه رائحة الدم. كانوا خلفي، يقتربون، وحوش بشرية جائعة للحم، يضحكون كما لو كانت مطاردتي مجرد تسلية قبل الوليمة. حتى تعثرث... وسقطت أرضًا، وانزلقت فوق سطح لزج. اصطدمت يداي بجسد دافئ، مقطوع الرأس. لم أصرخ، لم أملك سوى شهقة متجمدة في صدري. رفعت بصري، فرأيتهم.

الجزّارون كانوا فوقيّ!

أحدهم رفع فأسه، آخر لَعق شفتيه المتسختين، والثالث قال بصوت مبحوح:

- لا جدوى من الهرب بعد الآن، لحملكِ لنا.

- شكرًا لكِ أيتها الكاتبة الجميلة؛ لأنكِ منحنا فرصة الوجود في هذه الحياة.

إدّا... حتى شخصياتي تعرف من أوجدها. نظرت إلى الساعة، لم يمر سوى

اثنتي عشرة دقيقة!

كل هذا في اثنتي عشرة دقيقة فقط، الزمن يزحف كالموت البطيء.
لا مجال للنجاة.

أغمضت عيني في استسلام، ولم يخطر لي يومًا أن يكون موتي على يد
الشخصيات التي صنعتها بيدي، على الورق.

فجأة، اندلع وهج ناري من بين الظلال، وامتلاً الهواء برائحة اللحم المحترق.
لكن هذه المرة، لم يكن لحم الضحايا؛ كان لحم الجرّارين أنفسهم.
فتحت عيني لأشهد المشهد، وتراجعت زاحفةً إلى الخلف، مبتعدة عن ساحة
المعركة.

في لمح البصر، تحوّل أحدهم إلى كتلة من لهب، يصرخ ويتلوى، بينما قُذف
آخر عبر الشارع، مرتطمًا بالجدار بقوة حطمته كدمية بالية. أما الثالث، فقبل
أن يستوعب ما يحدث، اخترق صدره سيف أسود غارق في الظلال.
ثم سقط الجميع في صمت.

ساد سكون غريب، ثقيل كالمقابر.

كان ثمة شخص قد قتل شخصياتي، الجرّارون الذين صنعتهم أنا.
رفعت بصري بلهات متقطع، وعينا متسعان، وهناك... رأيته.

توقعته "ويليام"، لكن لم يكن!

وقف أمامي وسيفه يقطر دمًا، معطفه الأسود يتراقص مع الرياح الملوّثة،
وعينا تتلألآن بوهج نار خافتة. كان طويل القامة، جسده متين كجندي من
حروبٍ غابرة، ووجهه غامض يكتنفه سواد أعماق من الليل. بشرته برونزية
لامعة، وشعره طويل بلون الذهب، ينساب على كتفيه كأنه جزء من هالته
المهيبة.

تساءلت في أعماقي: أهو مَن نسج خيالي؟ أم بطل تائه من رواية فانتازيا
لم أكتبها بعد؟

لكنني التزمت الصمت، عاجزة عن النطق، وهو أيضًا لم يَنيس بكلمة.
غير أنه، بدلًا من أن يسألني عن حالي كما يفعل الأبطال في القصص،
انحنى بجانبني ومد يده نحوي.

قال بصوت منخفض:

- انهضي، إذا كنتِ ما تزالين ترغبين في الحياة.

لم أحجّ إلى التفكير. أمسكت بيده، وسمحت له بأن يجذبني بعيدًا عن ذلك
الجحيم.

لم أكن أعلم مَن هو، ولا لماذا أنقذني. خطر في بالي أن "ويليام" ربما
أرسله؛ فقد كان يشبههم، ولكنه بدا مختلفًا عنهم في الوقت ذاته. لكن لا،
"ويليام" لو أراد إنقاذي ل جاء بنفسه، وهو في الحقيقة مَن قذف بي إلى هذا
الجحيم.

سيرنا بصمت، بخطوات سريعة لنهرب من الجزارين. كان أطول مني بكثير،
ورائحة عطره مختلفة، غريبة، لكنها أيقظت إحساسًا مألوفًا بداخلي، كأنني
أعرفه ولا أعرفه في آنٍ واحد. وحين دخلنا زقاقًا ضيقًا بين مباني المدينة
المظلمة، التفت إليّ قائلاً:

- لا تسأليني شيئًا الآن، لا وقت لمعرفة مَن أنا أو ما أكون.

عندها فقط كسرْتُ صمتي وسألته:

- لكن... لماذا أنقذتني؟ هل أنت شخصية من الخيال؟

كاد يضحك بسخرية، ثم كتم ضحكته وقال:

- مشكلة المؤلفين أنهم يظنون كل شخص يقابلونه شخصية من قصصهم.
لكن هذا ليس موضوعنا... لم يتبقَّ سوى دقائق قبل أن يعيدكِ "ديموس" إلى
العالم الحقيقي. وقبل ذلك، أريد جوابك، هل تريدان العودة إلى عائلتك
وحياتك؟

خفق قلبي بقوة، وتجمَّد الدم في عروقي، شعرت برجفة تعصف بجسدي،
وكأن روحي عادت إليَّ فجأة. لكن لحظة! كيف يمكن لرجل مجهول أن
يعيدني؟ لا بد أنه يكذب. أثرت الصمت، وتركت عينيَّ المبللتين بالدموع
تحدثان عن حالي.

استرسل من جديد، بصوت أقرب إلى الرجاء:

- أعلم أنك لا تصدقيني، وربما تخافين مني، لكن ليس لي أي مصلحة في
الكذب عليك. صدقيني... يا "ماريان".

كانت نبرته صادقة، لكن الشك ما زال يعيش في قلبي. سألته:

- وكيف ستفعل ذلك؟

ابتسم ابتسامة غامضة وقال:

- هناك طلب بسيط.

قاطعته بحدة:

- إذا أنت تستغلني!

- أنا لا أستغلك، بل سأمنحك فرصة للانتقام من "ديموس". أخبريني، هل

ترغبين بقتله؟

اتسعت عيناها، وشعرت بحرارة الحماس تجري في عروقي، لكن سرعان

ما تلاشى ذلك الحماس حين سألته:

- وأنت، تبدو عدوًّا له، فلماذا لا تقتله بنفسك؟

- سيأتي يوم أقتله فيه، لكن الآن الأمر صعب. إنه ملك، ولا يمكن الوصول إليه أو رؤيته متى شئنا. على عكسك... أنتِ دائماً بقربه، سيكون من السهل عليك أن تفعلها. سأمنحك الشيء الوحيد القادر على قتله.

كانت مشاعري متشابكة، تتأرجح بين تصديقه وتكذيبه، بين الخوف والأمان. تمتمُ:

- لكن، أخبرني أولاً مَنْ تكون؟

- يصعب أن أبوح لك الآن. سأمنحك وقتًا للتفكير، وسنلتقي قريبًا، انتهى الوقت. لكن، قبل أن أذهب...

سكت لحظة، ثم بدأ يتراجع بخطوات هادئة نحو الظلام، وجسده يتلاشى شيئًا فشيئًا. وقبل أن يختفي تمامًا، قال:

- أنا أعرفها، أعرف "سارة"، ولم تكن تستحق ما حدث لها.

توقف كل شيء من حولي، تجمدت في مكاني وسط الزقاق، غارقة في دهشتي وصدمة كلماته. ماذا قال؟ هل يعرف "سارة" حقًا؟ وإن كان يعرفها، فهل يهْم؟ أليس الجميع يعرفها الآن، كما بات الجميع يعرفني؟

رفعت يدي إلى رأسي، كأنني أحاول منع انفجاره من فرط الأفكار. أغمضت عيني بقوة، وفجأة شعرت بيد تمسك بي بعنف، فصرخت، مقتنعة أن أحد الجرّارين قد أمسك بي. فتحت عيني مذعورة، لأجد أمامي قناع وجه "ويليام"، والدماء تغطي وجهي وملابسي، وأنا واقفة وسط مكتبة، وصوته البارد يقطع الهواء:

- انتهى الوقت، وانتهى وقت عقابك. تهانينا، نجوتِ كالعادة. كنثِ واثقًا أنك ستنجين؛ لأنه من المستحيل أن تموتي على يد أحد غيري.

كانت ليلة خانقة، الأرض تدور بي، والخوف لا يزال ينهش أعماقي. لم أستوعب ما جرى بعد. الدماء التي تُلطخ وجهي وملابسي هي دماء شخصياتي، أناس لم يكونوا سوى جزء مني.

أما ذلك الرجل الذي أنقذني، فما زلت أرفض تصديقه. هل كان حقيقياً؟ أم أن "ويليام" أرسله ليلعب بعقلي ويزرع فيه الفوضى؟ ربما كان فخاً، لو كنت وثقتُ به لَظهر "ويليام" خلفه وضحكاً معاً على سذاجتي. وربما كان أسوأ من "ويليام" نفسه، وجاء ليؤذيني. أو... ربما كان صادقاً فعلاً.

- "ماريانا"؟

جاء صوت "ويليام" أجشَّ، يقطع تيار أفكارِي. كنت ما أزال واقفة، مشلولة من الصدمة. كرر اسمي وهو يمسك بكثفي:

- "ماريان" ... انتهى الأمر، ما خطبك؟ عودي إلى رُشدك.

يا للمفارقة! كيف يجرؤ على سُؤالي هذا السؤال؟ وقبل أن أنطق بحرف، سقطت مغشياً عليّ بين ذراعيه.

انتهى

خاتمة

"أرض الملائكة والوحوش"

في "مملكة الخوف" قوانين صارمة، ومن يخالفها يلاقي أسوأ المصائر:

١. البكاء جريمة لا تُغتفر - من يبكي فمصيره الغرق في دموعه.
 ٢. الحب محظور ومُدان - لا نملك مشاعر ولا زمناً للعاطفة؛ الكراهية تصنع ملوكاً، أما الحب فيولّد الدمار.
 ٣. استخدام القوة ضدّ أبناء شعب الخوف محرّم بنصّ القانون.
 ٤. القتل والعنف والرعب هي أركان عالمنا - من يمضي أسبوعاً دون أن يسفك دمًا سيلاقي الموت.
 ٥. يُسمَح بقراءة روايات الرعب بكلّ أنواعها، والخيال المظلم المتّصل بالسحر والشعوذة والغرائب؛ أمّا من يقرأ ما عدا ذلك فسيتمنّى الموت ولن يجده.
 ٦. جيش بلا وجوه يمثل قوّتنا وعمادها.
 ٧. قانون الأطفال: من يولد وهو يبكي يُدَقَّن حيّاً؛ لأنّ البكاء عند الولادة علامة نذير شؤم - طفل يبكي عند الميلاد، يُعدّ جباناً وسيجلبُ الهلاك.
- هكذا تُحاك أسفار "مملكة الخوف": قسوة تُؤسّس للخوف وتحميه، وقصص لا ترحم إلّا من يعتنق ظلالها.

لم تكن لي نقطةٌ ضعيفٍ طيلةَ ثلاثِمائةِ عامٍ من الوجود، غير أنني لا أمانع أن أمتلكَ واحدةً، شرط أن تكتبني اسمي في آخرِ سطرٍ من قصيتك؛ فحينها، من عندي سينتهي كلُّ شيءٍ في حياتك، وتُصبحين لي، إلى الأبد.

- فلنُعد سرّد حكايةَ "الجميلةِ والوحوش".

- لكن هذه المرّة، لن أقعَ في حبّك يا سيّد الرعب.

- لا تقلقي، إذا وقعتِ فاعلمي أنني أنا من سيمسكُ بكِ.

نستكمل أحداث الكتابة من أجل الشيطان، في الجزء الثالث:

"أكتب حتى لا أنكسر"

مريم الحيسي